حياة
لِلِيَّان تراشر
أُم النيل

بقلم

بيث بريم هاويل

جدول المحتويات

الفصل الأول:	خلاص لِلِيَّان وندرها	٣
الفصل الثاني:	نموذج للحياة بالإيمان	١٥
الفصل الثالث:	وظيفة عمل كفنانة	٢٧
الفصل الرابع:	دعوة لِلِيَّان إلى مصر	٣٣
الفصل الخامس:	وصول لِلِيَّان إلى مصر	٥٧
الفصل السادس:	قبول لِلِيَّان لأول طفلة	٧٣
الفصل السابع:	أول تبرع لدار الأيتام	٨٥
الفصل الثامن:	شراء أرض لبناء الملجأ	١٠١
الفصل التاسع:	اختبار حماية الله	١٣٩
الفصل العاشر:	اختبار العناية الإلهية	١٦١
الفصل الحادي عشر:	اختبار تدبير وقوة الله	١٨١
الفصل الثاني عشر:	اختبار شفاء الله	٢٠٧
ملاحظات ختامية:	استمرار الحياة بالإيمان	٢٢٧

الفصل الأول

خلاص لِلِيَّان ووعدها بخدمة الله

حولت لِلِيَّان تراشر وجهها النائم في ضوء القمر المصري الغامض على النيل، ثم ابتسمت لما رأته في حلم سري. في لحظة، كانت بعيدة جداً عن مصر. عادت بذاكرتها مرة أخرى وهي في العاشرة من عمرها إلى بلدة برونزويك الساحلية الصغيرة في اقصى الجنوب، لجورجيا في أمريكا. كانت تركب ديزي، الحصان العجوز الطيب بدون سرج عبر الحقول إلى منزل جيردي. تباطأ الحصان العجوز إلى هرولة سهلة وقفزت جيردي، صديقتها الحمّيمة، بسُرعة وانزلقت خلفها. "دعونا نذهب للسباحة" قالتا كلتاهما معاً، بالطريقة التي كان يُكَمّل دائما كلام إحداهن الأخرى. انطلقت الفتاتان إلى النهر وسحابة سريعة من الغُبار تبعتهم. بعد ساعة قصيرة، انتَعَشَتا، وحرصتا على المزيد من اللعب، صعدتا على ديزي العجوز مرة أخرى. صاحت لِلِيَّان "دعونا نلتقط المُكسرات". "ييي-يي - هووو!" ردت جيردي في فرح، وبدأت تقفز بسعادة صعوداً وهبوطاً مع مشية ديزي المتثاقلة، وتوجهوا إلى بُستان سري من الأشجار على حافة المدينة.

لن تنسى لِلِيَّان أبداً عيد الميلاد في ذات السنة، حيث كان الريف السهلي المليء بالمستنقعات يفيض برائحة الصنوبر الطيبة وكان جميلاً لدرجة أنه كان يُلهمها إلى رسمه. كان ذلك في عام ١٨٩٦، ولم يُسمع عن الحرب الكبيرة مع الشمال إلا من حين لآخر، في اجتماعهم بالشرفة الأمامية في المساء، أنه مثل كابوس من ماضي كئيب، وكانت برونزويك الصغيرة المُسالمة، التي لم

تُزعجها كثيراً الأحداث الخارجية، قد استقرت مرة أخرى في داخلها. كانت عائلة لِلِيَّان قد أتت إلى برونزويك من بوسطن، تلك المنطقة الشمالية الشرقية التي يعرفها البيض في الزاوية الجنوبية الشرقية البعيدة من جورجيا باسم "مملكة لينكون" مُنذ جيل واحد، ومن خلال الوافدين الجُدد الذين لم يتجاوز وجودهم خمس أو عشر سنوات، كانوا يُعتبَرونهم عموماً كسائحين وغرباء. وقد رحب أهل البلدة بلِلِيَّان - الفتاة الجنوبية الصغيرة ذات العيون اللامعة وأختها الكبيرة، جيني – بكل ودٍ.

أحبت لِلِيَّان الحياة البسيطة الخالية من الهموم التي وجدتها في القرية الجميلة. ولم يُزعجها أن أُسرتها من المنطقة الشمالية حيث كانت تعيش حياة مُترفة وفي منزل جميل في بوسطن وكان لديها صديقاً مُقرباً للعائلة هو رجل المنبر الشهير - "هنري وارد بيتشر"، وأنهم الآن في برونزويك بولاية جورجيا يعيشون في كوخ صغير بجوار مجرى الماء. لم تفهم لِلِيَّان الأسباب أو تتساءل عنها، لكنها أحبت التحول للحياة البسيطة التي تعرفها الآن. تذكرت بشكل مفاجئ أن والدتها أخبَرُتُها أنها تخرجت من كلية تُسمى فاسار قبل زواجها. وأنها سافرت إلى أوروبا لإكمال تعليمها. كان دائماً عندهم الكثير من المال قبل. لكن كثرة المال، أو نقصه، لم يكن لهُ أي أهمية بالنسبة لِلِيَّان التي فضلت كثيراً القفز على ديزي - الحُصان العجوز - في الحقول المفتوحة عن العيش في حياة مُترفة ومُنغلقة في بوسطن. شيء واحد لم تنساه أبداً، في بوسطن وبرونزويك وفي جاكسون فيل بولاية فلوريدا، حيث وُلدت: اجتماع عبادة العائلة في المساء. لم تفهم صلواتهم أبداً؛ لأنها كانت تحتوي دائماً على عبارات أكبر من سنها الصغير. لكن تلك الأُمسيات التي قضتها معهم لم تنساها أبداً.

في وقت لاحق من بعد الظهر في ذلك اليوم من عيد الميلاد في عام ١٨٩٦، طرق والدا جيردي، إدوار وآنا ماسون، باب كوخ تراشر على ضفاف مجرى الماء ببرونزويك القديمة. كان يوماً مُثيراً، أحد تلك الأيام الباردة الدافئة في مُنتصف الشتاء في اعماق الجنوب. ركضت الفتاتان الصغيرتان عبر غابات الصنوبر، وجمعتا أعواد الصنوبر الصغيرة للمدفأة، أشعلتا النار، واستراحتا أمام دفئها، بينما تحدث الكُبار عن حرث القطن في الربيع، وفترة الأمطار الطويلة والأوقات الصعبة دائماً. قال إدوار بحُزن: "أحياناً أعتقد أنه يتعين علينا رفع الأسعار بالطريقة التي يقولونها، لكنني مرة أخرى لا أعتقد ذلك. هُناك الكثير مما يجب القيام به فيما يتعلق بزراعة الأُرز والقطن. أكره التفكير في التغيير ... نعم، أكره التفكير في التغيير ..."

دفع كُرسيه ذي القاعدة المصنوعة من القصب إلى الحائط، ثم انحنى إلى الوراء وحدق في النار. أخيراً قال: "لقد مر وقت طويل مُنذ أن تذوقنا أي خُبز من القمح. لا يستطيع يوسف الحصول على أي قمح، سعر القطن انخفض بوضوح إلى أربع سنتات للرطل. هذه الأوقات صعبة بالتأكيد على الأشخاص الذين اعتادوا على زراعة القطن. "لا أدري ماذا كُنا سنفعل بدون الرب". خفض إدوار صوته الأكثر عُمقاً، ورفع جسده الضخم إلى الأمام وأنزل كُرسيه على الأرضية الخشبية بصوت قوي. أنحنى نحو الآخرين وبدأ يتحدث بهدوء، بهدوء شديد لدرجة أن لِلِيَّان كانت بالكاد تسمعه. أخيراً، أصبحت لِلِيَّان فضولية للغاية لدرجة أنها تركت الأطفال الآخرين يلعبون في الحارة وسحبت كرسي خشبي بالقرب من إدوار ماسون. بصوت بطيء واثق، كان زوج آنا يحكى كيف أنه كان ذات يوم خاطئاً شريراً. في أحد الأيام، قال

بنبرة مُنخفضة وثابتة، إنه صادف اجتماعاً للمُخيم في بلدة قريبة. "... وفي ذلك الوقت خلصني الرب".

تحولت لِلِيَّان في صمت وحدقت في وجوه الناس في ضوء النار. كانوا يقظين، ومُهتمين، وكلهم يركزون على إدوار وكلماته. تلك الكلمات الرائعة. كانت شرارة النار الصنوبرية، وهديرها، وهسهستها، بالكاد تُصدر أي صوت أو ضوء. تلك الكلمات! تلك الكلمات الغريبة الرائعة... تلك الكلمات ملأت عقل لِلِيَّان بالدهشة والذهول. كانت تستمع إليه باهتمام. كان إدوار يبتسم ابتسامة عريضة ويبدو أكثر سعادة مما رأته من قبل. اختفت كل النغمات الحزينة المُرهقة من صوته عندما خرجت تلك الكلمات السحرية عن ربُه.

في وقت لاحق، عندما غادرت عائلة ماسون، اتصلت آنا ماسون مرة أخرى وقالت: "سنعقد اجتماع صلاة في منزلنا ليلة الأربعاء. لماذا لا تأتوا أنتم أيضاً؟"

لقد فعلت لِلِيَّان شيئاً أفضل من ذلك. ركضت على طول الطريق عبر الحقول، لرؤية آنا في وقت مُبكر من صباح اليوم التالي لأنها أحبت آنا ماسون وعائلته الكبيرة والسعيدة.

في صباح يوم الاثنين، كانت هُناك نار كبيرة تحت إناء الغسيل الحديدي القديم في الفناء. كان يوم الغسيل في منزل ماسون - ذلك الوقت الرائع مع تحضير القهوة، وطبخ اللحوم على الموقد الأسود الكبير في المطبخ، والبخار الساخن النظيف الذي يتصاعد نحو السماء من إناء الغسيل الأسود القديم تحت الأشجار.

كان هذا الصباح مُشمساً وله رائحة نقية، بالرغم من أنه كان وقت عيد الميلاد، إلا أن هواء الصباح كان دافئاً بما يكفي للغسيل في الهواء الطلق. وكانت آنا تضرب ملابسها بعصا مكنسة مكسورة. كانت الرائحة النفاذة والمُنعشة لصابون الغسيل المصنوع منزلياً، والذي يغلي مع الملابس البيضاء في غلاية الغسيل الكبيرة، تُشير بنوع خاص إلى النظافة والترتيب والإيقاع بالنسبة لِلِيَّان. وفوقهم، كان طائر الببغاء يُغني ببهجة. وعلى الأرض، اقترب طائر روبن جائعاً للبحث عن دودة ليتناولها في الإفطار.

توقفت لِلِيَّان فجأة. أراد كل جزء من كيانها الشاب النشط رسم وتلوين منظر الجمال الذي أمامها وحولها. وكأنها تستطيع رؤيته على الورق الآن. لكن المشكلة الوحيدة أنها كانت دائماً تفعل أشياء كثيرة في وقت واحد. رأت أشعة الشمس تتسرب عبر الأشجار الضخمة المُغطاة بالطحالب، وتتجول على ظهر آنا وهي تنحني فوق لوح الغسيل. ثم، تومض أشعة الشمس وكأنها ترش ألف نسمة صغيرة شقية في الظل الهادئ. كانت صورة رائعة حقاً، وفي نفس الوقت هادئة ومليئة بالحركة. في ذاك الوقت، كان عقل الفتاة الصغيرة يتجول في كثير من الأسئلة المُحيرة. قامت بتوازن نفسها على دلو مقلوب بالقرب من وعاء الغسيل، وانتظرت بينما خرجت آنا من المطبخ.

آنا، قالت لِلِيَّان، وهي تأتى مُباشَرَةً إلى النقطة كما كانت عادتها، "أتيتُ لأسألُكِ عما كان زوجك يتحدث عنه في الليلة الماضية".

قامت آنا بترتيب نفسها، ونفضت خصلة من الهواء الرطب عن عينيها. "لِلِيَّان، يا صغيرتي"، قالت، "لا يوجد الكثير مما يُمكنني إخبارك بِه. لقد تم خلاصه مُباشَرَةً، وقد غيّر الله كل طرقه الشريرة." أضاء ضوء جميل وناعم عيني آنا الزرقتان ثم نظرت في عيني الفتاة الصغيرة لدقيقة. ثم تنهدت وبدأت في حركات راب-آه-رو-آه-راب-آه-راب- وهي الحركة الإيقاعية للغسيل.

"آنا، سأُساعدكِ في غسل كل ملابسك"، قالت لِلِيَّان بحماس، "وانتِ تتحدثين عن خلاص زوجكِ أثناء الغسيل".

هزت الشابة آنا رأسها باستسلام، ثم ابتسمت ابتسامة عريضة لصديقتها. "حسناً، عزيزتي. إذا كان هذا ما تُريدينه". أسقطت لِلِيَّان دلو الماء المقلوب خلفها في مجرفتها، وأعادته إلى وضعه الصحيح بسُرعة، وركضت إلى لوح الغسيل. التقطت قميص عمل مُتسخاً وبدأت في تنظيفه بسُرعة جنونية، لدرجة أن المتر بأكمله من الصورة المُتحركة الهادئة هدد بانقلاب عنيف.

قامت آنا بقياس اللون الأزرق في الحوض الأخير بتفكير وهدوء وثبات، على النقيض من تصرفات صديقتها الشابة، ثم بدأت تتحدث بصوت خافت وبعيد. كانت النار تحت وعاء الغسيل الأسود القديم قد اشتعلت عند شروق الشمس قبل أن يذهب إدوار إلى الحقل. كانت لِلِيَّان تعرف من التجربة كم سيستغرق يوم غسيل آنا. كانت تعلم أيضاً أن المُهمة الشاقة ستستغرق ساعات كثيرة. لأن عائلة آنا كانت كبيرة، وكان لا بد من تنظيف أي ذرة من الأوساخ في الملابس والمفروشات بدقة بغض النظر عن مدى آلام الظهر أو المُدة التي ستستغرقها مُهمة الغسيل. تم وضع الملابس في وعاء الغسيل. وكان لابد من غلي الملابس ذات

الألوان الفاتحة. ثم شطفها وفركها مرة أخرى برفق هذه المرة، ولكن بشكل كامل بالرغم من ذلك. ثم شطفها مرة ثانية، وفركها بشكل خفيف، وأخيراً نشرها على سياج الأسلاك لتجفيفها.

ترددت آنا، الآن. كانت لِلِيَّان تعلم أنها تفكر وتقيس كلماتها تماماً كما كانت تقيس الصبغة الزرقاء، فكانت تلك الكلمات مُهمة جداً. بطريقة ما، كانت لِلِيَّان تعلم أن كلمات صديقتها ستكون مُناسبة تماماً، مثل كمية الصبغة الزرقاء التي وضعتها في الملابس. ستكون الكلمات مثالية ونقية وبيضاء، مثل الملابس عندما تنتهي آنا من غسلها. تحدثت آنا بحزم وهدوء: "لا أعرف كيف أقول ذلك باستثناء - أن الرب يحبكِ - بالطريقة التي يحب بها إدوار وآنا وكل شخص آخر في العالم. ونحن نحتاج إلى ذاك الحُب".

بدأ اجتماع الصلاة مساء الأربعاء بعد حلول الظلام بقليل عندما تم غسل الأطباق المتسخة وكنس المطبخ. جففت لِلِيَّان وجيردي الأطباق ووضعوها بسُرعة كبيرة، لدرجة أن آنا ضحكت وقالت إنه يجب عليها عقد اجتماع صلاة كل ليلة إذا كانت الفتيات مُتأثرات جداً. جلسوا حول النار المُتقدة في الموقد الحجري القديم مع الجيران، بعد فترة، أصبح الجميع هادئين للغاية. اثناء الصمت، دوى صوت إدوار ماسون العالي في ترنيمة لم تسمعها لِلِيَّان من قبل. سُرعان ما انضم الجميع بحماس:

دعونا نعمل من أجل السيد من الفجر حتى غروب الشمس:
دعونا نفكر في كل حُبه ورعايته العجيبة.
وعندما تنتهي حياتنا كلها،
وينتهي عملنا على الأرض،

عندما يتم استدعاء القائمة، سأكون هُناك.

فتح إدوار ذراعيه الطويلتين، ونظر نحو العوارض الخشبية وانطلق في الجوقة بإيقاع بطيء نابض:

عندما يتم استدعائي هُناك –
عندما يتم استدعائي هُناك –
عندما يتم استدعائي هُناك - سأكون هُناك.

"آمين"، قالت آنا وهي تجلس بالقرب من لِلِيَّان. "شكل وجهها كان سماوياً للغاية"، فكرت لِلِيَّان. ستكون هُناك عندما يتم مُناداتها. سيكون إدوار أيضاً.

"وهذا أين يترُكني؟" نظرت لِلِيَّان إلى جيردي، وشعرت بقلق شديد بشأن نفسها وصديقتها.

كان إدوار يقود في ترنيمة أخرى يبدو أنهم يعرفونها جميعاً باستثناء لِلِيَّان.

ما أعجب النعمة لي من قلبك الكبير - الذي أنقذ شخصاً بائساً مثلي –

"بائس!" دارت الفكرة في ذهن لِلِيَّان وهزت رأسها. كان صوت آنا العالي الحلو واضحاً وواثقاً، مع الآخرين:

لقد ضللت الطريق ذات مرة، والآن تم العثور عليَّ - كُنتُ أعمى، لكنني الآن أُبصر.

ثم ركع إدوار، وتدريجياً وقع الجميع على رُكبهم. ركعت الفتاتان الصغيرتان بشكل تلقائي لأنهما لم تعرفا ماذا تفعلان. لكن

لِلِيَّان ندمت على ذلك لأن الأرضية الخشنة كانت صلبة ومُتشققة، واستمرت الصلاة، تقريباً، لمدة ساعة. أخيراً، أنهى إدوار الصلاة ببركة، وراقبت لِلِيَّان الجزء المُتعلق بالصلاة من اجتماع الصلاة بحذر بينما قامت من على الركوع. من النظرة على وجه جيردى، بدا وأنها كانت تشعر بنفس المشاعر. كان هذا أكثر ألماً من ركوب الحصان ديزي العجوز بدون سرج عبر الحقول أو السباحة في النهر. جلس الكبار؛ روى إدوار حلقه بالماء، ثم فتح الكتاب المُقدس وبدأ في القراءة ببطء، لأنه لم يكن قارئاً جيداً، لكنه كان يقرأ بمشاعر عظيمة، ولأنه كان جاداً للغاية.

"لأنه هكذا أحب الله العالم - لقد فعل - حتى بذل ابنه الوحيد لكيلا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية".

تردد وهو غير مُتأكد من الكلمات، ثم واصل إخبارنا مرة أخرى كيف أنه كان خاطئاً شريراً، وكيف صادف اجتماعاً للمُخيم في بلدة قريبة ونال الخلاص. لم يعظ طويلاً، لكن بطريقة ما، بدأت لِلِيَّان في الاستماع. كانت لا تزال تسمع وتبحث عندما توقف إدوار وأنهى كلامه بالصلاة.

ربما قال بعض الناس أن إدوار لم يقم بأي عظة على الإطلاق. لكن كلماته استقرت بعُمق داخل لِلِيَّان. عندما غادرت، سمعت صوتاً عميقاً خلفها: "سأدعوك للصلاة في اجتماع الصلاة القادم يا لِلِيَّان". التفتت لِلِيَّان ووجدت إدوار ماسون يبتسم لها. "أنا - أُصلي؟" - "يُمكنك المحاولة، يا صغيرتي".

حاولت لِلِيَّان جاهدة أن تبدو غير مُهتمة وهادئة. لكن في داخلها، كانت مُتحمسة للغاية. بحماسها المُعتاد، انطلقت إلى المنزل مثل كُرة مُندفعة. في تلك الليلة، ظلت مُستيقظة لساعات،

تُفكر في الصلاة. في اليوم التالي، بعد المدرسة، صعدت إلى عُلية المنزل للصلاة وقلم الرصاص ودفّقت لفترة طويلة. "يا رب. .... "نعم يا رب، المُحسن العظيم ومُراقبنا..." استمرت في كتابة كلمات طويلة ومُؤثرة. سمعت أختها الكبيرة جيني تدعوها للعشاء، لكن لِلِيَّان وجدت أنه من الأفضل ألا تصغى لصوت اختها. واستمرت في كتابة الكلمات الطويلة، التي أرادت أن تُبهر بها الرب، ناهيك عن الأشخاص الذين سيحضرون اجتماع الصلاة ليلة الأربعاء القادم أيضاً. أخيراً، حفظت الصلاة الطويلة. تدربت بكلمات الصلاة على الدجاجات التي تعشش في الجانب البعيد من الحظيرة. لقد رمشوا بنعاس، وانزعجوا بشكل معتدل من الاضطراب اثناء نومهم.

عندما زارها إدوار لصلاة ليلة الأربعاء التالية، كان من المفروض أن تنجح بالفعل في صلاتها. لكن لم يكن الحال كذلك. لقد غادر "المُراقب العظيم" و "المُحسن العظيم" هذا من صلاتها. أخيراً، شهقت في اكتئاب. وفي صلاة حقيقية، نطقت بصلاة أصيلة، على الرغم من أنها لم تبدوا كذلك في ذلك الوقت.

"يا رب!" شهقت في إذلال. رأت النظرات المُذهولة على وجوه من حولها، وأغلقت عينيها وجلست على كرسيها. وقف إدوار وأغمض عينيه وبدأ يردد صلاة طويلة صادقة من القلب لكي ما يملئ الفراغ الذي تركته لِلِيَّان.

لكن شيئاً غريباً حدث لها. كان كيانها كُله مملوءاً بالدهشة من هذه التجربة. فيما بعد ظهر أحد أيام فبراير المُشمسة عام ١٨٩٧، كانت عائدة إلى المنزل بمفردها من المدرسة، وفجأة جاءتها فكرة. وصلت إلى قبر قديم طويل عبر الطريق المُشجر.

لم يكن هُناك أحد لإبهاره. لم تكن لديها أي فكرة، ولا حاجة لكلمات مُؤثرة. ضمت يديها إلى ذقنها، واستخدمت القبر القديم كمذبح، وسقطت على رُكبتيها. وأغلقت عينيها بإحكام، وشعرت بوجود شيء قوي هُنا بجانبها.

صرخت بصوت عالٍ: "يا رب، أُريد أن أكون فتاتك الصغيرة".

كانت غابات الصنوبر صامتة ومُوقرة. حتى أن الطيور كانت هادئة في هذه اللحظة.

لقد صلّت لفترة طويلة، ثم هدأت، بطريقة ما كانت في سلام تام مع نفسها. ثم خطرت لها فكرة أخرى، نموذجية لشخصية فطرية تفعل شيئاً حيال ذلك.

قالت بجراءة: "يا رب، إذا كان بإمكاني أن أفعل لك أي شيء، فقط أخبِرني وسأفعله!"

انحنت برأسها. مرت لحظة طويلة قبل أن تدرك تماماً ما قالته.

أحاط الصمت بالوعد مثل ضباب مُفاجئ يحوط بالمكان. شعرت بالخوف قليلاً، ثم بسعادة رهيبة. كانت تعلم أنها تعني ما قالته بكل كيانها. لكن التفكير في الأمر كان مُخيفاً إلى حد ما.

كم كانت خائفة إذا كان بإمكانها أن ترى وعدها يتحقق.

ليالي مُظلمة، ليالي وحيدة في مصر الغامضة البعيدة، أحياناً تنام في سجن القرية مع حِمارها، لأنه لم يكن هُناك مكاناً آخر للنوم فيه؛ أيام حارقة في الصيف، تركب، وتركب، وتركب

حِمارها المُخلص؛ كانت تبحث عن الفاصوليا والأُرز والسكر والقمح - أي شيء للعدد الكبير من الأيتام والأرامل. تمشي، وتمشي، وتمشي، تقود حِمارها وهو يحمل الإمدادات التي جمعتها من القُرى، في حرارة الصيف الشديدة التي كانت تحرق شَعرها ووجهها أيضاً يحترق وهي تتجول من منزل لمنزل. ماذا عن الليلة التي أنقذها جارها من قطاع الطرق. وساعات الرُعب، مع مئات الأطفال والرُضع وهم يتجمعون في فُرن الطوب القديم للهروب من إطلاق النار والسكاكين والهراوات في الخارج. والليلة التي تَتبْعها غريب متطفل إلى سطح دار الأيتام... هل كان كل هذا مُمكناً أن يبدأ بوعدها وهي صغيرة عند جذع شجرة ساقط؟

قام قسيس كنيسة الميثوديث الوسلية في برونزويك الذي أصبح صديقاً لها عندما أخبرته بقصتها بتعميدها بعد فترة وجيزة في القناة بالقرب من كوخ العائلة. تم تعميدها في مياه القناة لأن إدوار ماسون قال إن هذه هي الطريقة الصحيحة للمعمودية. كانت لِلِيَّان قصيرة آنذاك. بدأت بتدريس الأطفال في مدارس الأحد في منزل قديم فارغ بالقرب من كنيسة الميثوديث الوسيلية في القرية- أطفال آنا ماسون وأي شخص آخر يُمكنه أن يأتي إلى المدينة الصغيرة. مرت سنة. أصبحت لِلِيَّان الآن فضولية في الثانية عشرة من عمرها. مُتحمسة، ومُحرجة، وراكضة في الثالثة عشر عاماً. ناضجة، وهادئة وباحثة في الرابعة عشر عاماً. كيف مرت السنوات غير الصابرة!

الفصل الثاني

نموذج للحياة بالإيمان

وضعت لِلِيَّان حقيبتها على منضدة الفحص في محطة السكك الحديدية القديمة في أشفيل، كارولينَا الشمالية. بعد فحص الحقيبة، نظرت في المرآة الطويلة القذرة في حمام السيدات. قررت أنها تبدو أكبر من سنها السبعة عشر. كانت طويلة القامة ونحيلة، وكانت ترتدي تنورة طويلة كاملة وبلوزة بيضاء نقية أنيقة مع الدانتيل والكشكشة، مما أعطاها شعوراً بالكرامة الرزينة التي لم تشعر بها أبداً وهي تَركبُ حصان ديزي العجوز أو السباحة في النهر مع جيردي. أيضاً، وافقت والدتها في السماح لها برفع شَعرها البُني الطويل، لذا فقد أطر شَعر عينيها الزرقاء ووجهها الطفولي بنتائج مرضية. مُرضية للغاية! من المُضحك أنها لم تتذكر مظهرها من قبل. قامت بتنعيم حاجبيها الطبيعيين المُرتفعين ونظرت وجهها في المرآة. بدا مظهرها غير مُهم تماماً. كان الأمر الأكثر أهمية - والأهم - هو ركوب ديزي - حصانها العجوز عبر الحقول بدون سرج مع جيردي والسباحة في مياه قناة برونزويك الباردة ومُساعدة آنا ماسون في الغسيل - والاستماع إلى آنا وهي تتحدث عن ربها ورب إدوار. الآن، نتيجة لحياتها الخارجية المرحة والمُبهجة بالحيوية، افترضت أن خديها وشفتيها كانتا ورديتين صحيتين، وكانت عيناها الواسعتان صافيتين ويبدو أنهما مُضاءتان بنيران داخلية.

أدارت وجهها قليلاً. لم تلاحظ ملامحها أبداً؛ أنفها النحيل، وجهتها العالية الناعمة. غالباً ما كانت والدتها تلاحظ قوتها. فكها مُصمم، ولكن كان هُناك ليونة على وجهها بالإضافة إلى نظرة من

القوة غير المُستغلة. ابتعدت لِليَّان عن المرآه، مُندهشة، وشعرت وكأنها قابلت نفسها للمرة الأولى.

عادت إلى غرفة الانتظار القذرة المُظلمة. كم كانت رائحتها كريهة! فكرت في جيني، أختها الكبيرة. كيف كانت اختها لتتخلص من هذا المكان القذر. كانت تعرف أن أختها لا تستطيع ببساطة أن تتحمل الأوساخ من حولها. لكن جيني أصبحت الآن كاتبة اختزال وتعيش في بيت جميل ونظيف وجديد خاص بها في لونج بيتش، كاليفورنيا. في بعض الأحيان كانت لِليَّان تتوق في داخلها إلى نفس الشيء. تساءلت وهي تمشي في غُرفة الانتظار متى سيكون لي منزل خاص؟

كانت الشمس ساطعه في الخارج، لكن الضوء في الداخل كان باهتاً وخافتاً. من بين الجموع، رأت لِليَّان فجأة امرأة صغيرة مُتزمتة ترتدي ملابس غير رسمية. بدت، بالرغم من ملابسها، أنها شخصً مرحً وواعياً، وشعرت لِليَّان بانجذاب غير مُبرر نحوها. لم تتردد في السير نحو المرأة، وابتسمت وقالت بمرح: "من الصعب الانتظار، أليس كذلك، عندما يكون لديك الكثير مما يجب القيام به؟" "حركت المرأة الصغيرة رأسها بحدة نحو لِليَّان، ثم بدت وكأنها تبتسم بسُرعة. اقتربت لِليَّان منها. أومأت الرأس الصغيرة أمامها. كان هُناك تَنهُد سريع ومُضطرب. كان الأمر وكأنها تُريد أن تتنهد طويلاً وبهدوء. لكن لم يكن لديها الوقت.

"نعم، هُناك الكثير للقيام به، أليس كذلك؟" أجابت أخيراً. أخبرت لِليَّان أنها الآنسة بيري؛ الآنسة ماتي بيري وهي تُدير دار الأيتام ومدرسة للكتاب المُقدس في بلدة جبلية قريبة وصغيرة. فكرت لِليَّان فيما قالته باستفهام. "هل تعيشين في آشيفيل؟" كان

الصوت سريعاً وحاداً، وفيه تعرفت لِلِيَّان على قوة هائلة. مع ذلك، كان هُناك يقين، بل وحتى دفء. جلست لِلِيَّان معها، ومسحت تنورتها، واستراحت.

"نعم. جاءت عائلتي إلى هُنا من برونزويك، بعيداً في الطرف الجنوبي الشرقي من جورجيا، بعد سافانا، مُنذ حوالي عام. "سأعود الآن لزيارة أصدقائي، عائلة آل ماسون، ثم سأعود إلى بيتي عبر أتلانتا."

أومأت الآنسة بيري برأسها. "أتلانتا مكان كبير وقديم. يقولون إنها مدينة متقدمة. عندما كُنت هُناك، وضعوا عربات كهربائية. وكانت هُناك مصانع ضخمة، وفحم". التفتت إلى لِلِيَّان، وكأنها تبحث في حقيبة ذكرياتها عن حزمة أتلانتا. "الكثير من الكنائس قيد البناء. هُناك كنيستان كانتا هُناك قبل أن يضرب شرمان أتلانتا أثناء الحرب الأهلية". فكرت لفترة في صمت، ثم نظرت بعيداً وتابعت: "كنيسة العذراء البتول والكنيسة المعمدانية الثانية - هما كل ما تم إنقاذهم في غارة شرمان. يبدو أن جنود اليانكى من الشمال، كان بعضهم كاثوليك، وشكلوا حراسة حول الكنيسة الكاثوليكية، على الرغم من أنه كان من المفروض أن يحرقوها. كانت الكنيسة المعمدانية قريبة وكان يُقال عنها ذلك أيضاً. يا له من دمار رهيب ..." فجأة تغير مزاجها، حيث دق جرس واحد. هُنا ومضت عيناها اللامعتان بفضول تجاه لِلِيَّان. "لكن ماذا ستفعلين بمفردكِ في مثل هذه المدينة الكبيرة؟ "لا بد أن يكون لديكِ أصدقاء هُناك".

ضحكت لِلِيَّان وقالت إن والدتها لديها صديقة في اتلانتا. لكن هذا ليس سبب ذهابها. "سأجري مُقابلة شخصية مع محرر

فني في إحدى الصحف هُناك. طلب مني إحضار بعض رسوماتي. إذا أعجبته، فقد أحصل على وظيفة في قسم الفن في صحيفة أتلانتا جورجيا. هذه هي الصحيفة..."

أظهر وجه الآنسة بيري الصغير الحاد صدمة شديدة. "آه، عزيزتي! هل ستعملين هُناك حقاً؟ فتاة صغيرة ذات جمال وأناقة واضحين؟"

ابتسمت لِلِيَّان وأومأت برأسها أنها ستعمل، بسعادة. "لكنني مازلت بعيدة كل البُعد في الحصول على الوظيفة"، قالت. "لكن أخبريني عن دار الأيتام الخاص بك. أنا مُهتمة جداً." كانت مُهتمة ومأسورة تماماً بهذه المرأة الصغيرة ذات الرداء الأسود.

"آه"، أجابت الآنسة بيري، "إنه دار أيتام ليس خاص بي. إنه دار الرب".

"آه، بالطبع. من يُدَعِمهُ؟"

ابتسمت السيدة بيري، "حسناً، نفس الشخص الذي يملكه، يا صغيرتي".

استقامت لِلِيَّان ونظرت مُباشَرَةً في عيني المرأة. "لكن يا سيدة بيري، لا بد من أن هُناك شخص ما أن يشتري الطعام والملابس ويوفر المأوى عندما يكون لديك دار للأيتام، حتى ولو كانت دار الرب".

"هذا ما أعنيه بالضبط"، قالت السيدة. "الرب يوفر - جميع احتياجاتنا. بطريقة ما، ومن خلال شخص ما، يُرسل لنا كل ما

نحتاج إليه. هُناك مئة طفل، وأنا في دار الأيتام، نحن نعيش من يوم لآخر - بالإيمان".

"كل الوقت، سألت لِلِيَّان؟"

"كل الوقت؟" حدقت عيني الآنسة بيري إلى ما هو أبعد من لِلِيَّان وبدا أن الصمت الطويل يؤكد مُحادثاتها. "طوال الوقت. الطعام، والملابس، والمأوى، والدواء. الله لا يتخلى عنا أبداً. ليس لدي الآن طعام لعشاءنا في الغد، ولا مال لشراء طعام لأطفالي المئة". فجأة انحنت نحو لِلِيَّان وهمست بجدية. "الله يعلم. إنه يعرف الآن من أين سيأتي عشاءنا. يجب أن يكون لديكِ إيمان، يا لِلِيَّان. الكثير من الإيمان. يجب أن تتعلمي كيف ترعى كل هؤلاء الأطفال المئة دون أي أموال في متناول يدك. يجب أن تذهبي إلى الفراش كل ليلة وأنتِ تعلمين أنه ليس لديكِ طعام ولا مال لشراء طعام اليوم التالي، ومع ذلك يجب أن يكون لديكِ إيمان للحصول على ليلة نوم جيدة حتى تتمكنِ من الاستيقاظ والقيام بعملكِ في الصباح".

كان من الصعب استيعاب هذا الإيمان الكامل والغريب. ولكن لِلِيَّان كانت مُستغربة، وفوق هدير قطار الركاب القادم إلى المحطة، شعرت بيد السيدة بيري على ذراعها وسمعتها تصرخ بحدة في أذنها: "لماذا لا تأتين إلى دار الأيتام وتُساعديني وفي نفس الوقت تدرسين الكتاب المُقدس وتواصلين واجباتك المدرسية؟"

كان من الصعب إدراك حقيقة عرض المرأة في ظل هذه الظروف. بالتأكيد، كانت صادقة. مرت لِلِيَّان من هُنا، غير قادرة على التفكير بوضوح. "سأضطر حقاً إلى التفكير في هذا الأمر.

من فَضلِك..." لقد كان نداءً، قيل بصمت تقريباً ضد هدير القطار". لكن ضجيج القطار لم يكن أعلى من ضجيج أفكارها. دون أن تنظر إلى الوراء، ودون أن تُجيب السيدة بيري بنعم أو لا، سارعت في ركوب القطار. استقرت في مقعدها بينما خرج القطار من المحطة، وشعرت لِلِيَّان بالارتياح لتمكنها من الابتعاد عن مثل هذا الاقتراح الجذري والثوري.

في منزل إدوار وآنا ماسون في برونزويك، لم تتفاجأ لِلِيَّان عندما رأت أن جيردي أصبحت الآن جميلة. درست وجه صديقة طفولتها المُتلهف والمُستفسر، وسمعت أسئلتها الجائعة حول ركوب القطار. هل تناولت غداءها في القطار؟ هل جاءت بمفردها؟ بعد ذلك بقليل عندما كانت لِلِيَّان بمفردها في نُزهة مسائية طويلة، سألتها وهي تلهث: "هل رأيت أي رجال غريبين في القطار؟"

عندئذ ضحكت لِلِيَّان. "رجال؟" نعم، لقد رأيتهم. لا، لم أتحدث إلى أي منهم. لكنهم جميعاً كانوا لطيفين للغاية، وكُنت لأتحدث إلى أي منهم إذا كانت هُناك حاجة بذلك.

"لِلِيَّان، لن تفعلي ذلك!" وجه جيردي احمر وظهرت على عينيها علامات الصدمة.

"آه، جيردي! بطبيعة الحال، لن أفعل أي شيء خاطئ أو غير لائق. لكن الرجال هم بشر أيضاً". ضغطت لِلِيَّان على يد صديقتها وابتسمت: "الرجال واليانكي - كلهم بشر". خمنت جيردي أن هذا صحيح إلى حد ما.

"إذا طلبتُ من الناس أن يُعاملوك بشكل صحيح، بأفعالك، وكذلك بكلماتكِ، فإنهم سيفعلون ذلك بشكل عام". قالت لِلِيَّان ببساطة. "الرجال، اليانكي أو غيرهم، سيُعاملونك بشكل جيد إذا سمحتُ لهم بذلك. هذا هو الحال مع الجميع. ولست خائفة من الإيمان بالناس وكذلك بالله. إذا كانوا بشراً، فهم شعب الله، أليس كذلك؟"

بدت جيردي مُندهشة تماماً من كل هذه الأفكار التي طرحتها لِلِيَّان. كان إيمان لِلِيَّان بالله يشمل الناس أيضاً. قالت لِلِيَّان أن هذا هو ما أراده الله. فكرت جيردى أن هذا كان على ما يُرام بالنسبة لِلِيَّان، التي كانت في الجوار- حتى كارولينا الشمالية التي كانت قريبة من أرض اليانكي التي سمعت جدها يتحدث عنها بخوف وارتعاش. تذكرت لِلِيَّان بهذا. الأشياء التي سمعتها في خوف لم تُخيف لِلِيَّان. ضحكت على خوف صديقتها، وعانقتها بحرارة وقبلت خديها المُتوردتين.

"عزيزتي، انتهت الحرب الأهلية، لقد انتهت. لقد كانت كذلك مُنذ زمن بعيد. حان الآن الوقت لإخراج الخوف وعدم الثقة من قلوبنا، وعقولنا، والتواصل بالحب، والثقة". ضحكت لِلِيَّان فجأة على نفسها. "ماذا أفعل – أنى أعظ وعظة، الآن؟"

فجأة، تم كسر التوتر. تنهدت جيردى، "حسناً، إذا كُنتِ تفعلين ذلك، فأنت تعظين عظة جيدة". ثم صرخت بسُرعة، وسحبت ذراع لِلِيَّان، كما فعلت كثيراً عندما كانتا طفلتين. "لنذهب إلى المنزل ونأكل. أنا جائعة".

كان ذلك اليوم الأخير من زيارتها قبل أن يُتاح لِلِيَّان فرصة للحديث الطويل الهادئ مع آنا ماسون. كانت تفكر كثيراً مُنذ

مجيئها أن صديقتها الأكبر سناً وهي تبدو مُتعبة ومرهقة. لكن الأضواء الخافتة في عينيها الزرقتان كانت لا تزال هُناك، وظلت ملامحها المُبتسمة تعكس صبرها المُذهل وفهمها للظروف الصعبة والهزيلة التي مرت بها في حياتها. كانت لِلِيَّان في نُزهة طويلة بمفردها في ذلك المساء. كانت تتنفس بعُمق الروائح الحلوة لتربة الصنوبر المُختلطة بالرائحة المالحة المُسكرة من المحيط الأطلسي القريب الذي يمر عبر المدينة الساحلية الصغيرة. أخيراً، في تساؤلاتها، وصلت إلى القبر القديم الذي لا يزال مُستلقياً بسلام لفترة طويلة، دون تغيير، عبر الطريق الذي يؤدى إلى كوخ تراشر القديم.

وبدافع، ركعت مرة أخرى بجانب جذع الشجرة القديم الذي كان مذبحها الأول. "يا رب"، صلّت. "إذا كان بإمكاني أن أفعل لك أي شيء، ألا تُخبِرني؟" تجمعت الدموع في عينيها، وانزلقت على خديها. "أنا مازلت أعني ما قُلته يا رب".

كانت غابات الصنوبر ساكنة، كما كانت مُنذ فترة طويلة.

"آنا، قالت لِلِيَّان لاحقاً بينما جلستا معاً على طاولة المطبخ المُستديرة القديمة المصنوعة من خشب البلوط، "أنى أبحث عن شيء، ولا أعرف ما هو".

ابتسمت آنا وربتت على ذراعها. لم يتحدث أي منهما بسبب ربطة العُنق الطويلة. وكما يستطيع أقرب الأصدقاء، جلسا بهدوء، يتذكران ويبحثان ويحاولان الوصول إلى رؤية للغد. بينما كان إدوار يعمل في الحقل، كان الأطفال الصغار في المدرسة وكانت جيردى في مُهمة. لقد كان هُناك وقت لهذا النوع من التأمل. على

الموقد الأسود القديم، كان غلاية الشاي تغلي بهدوء، وكذلك حساء اللحم البقري الذي أعدته آنا للعشاء.

أخيراً، استقامت آنا وابتسمت، "لقد حصلت على وفرة كريمة من كل الأشياء الجيدة. أنا أُصلي كل يوم أن تَجِدي ما تبحثين عنه. سوف تجدينه يا لِلِيَّان عندما يحين الوقت المُناسب".

"أنا أصلي بشأن هذا الأمر أيضاً، آنا"، قالت لِلِيَّان بجدية. "أشعُر وكأن بحثي قد انتهى تقريباً - ثم مرة أخرى - آنا، هل تعتقدين أنني فظيعة إذا قلت إنني أُريد بحماس أن أصبح فنانة؟ حتى لو كُنت أرسم اسكتشات لصحيفة؟"

نظرت المرأة الأكبر سناً إلى لِلِيَّان عبر حقول القطن الطويلة المُنخفضة، والتي كانت جاهزة للقطف. كانت نظراتها ثابتة ونقية مثل اللون الأزرق الذي قاسته أيضاً ذات يوم عند الأحواض في الخلف. ثم التقت أعينهما، ومرة أخرى تعجبت لِلِيَّان من لُطف وحكمة كلمات آنا وأسلوبها. بطريقة ما، هذه المرأة الريفية التي بالكاد تعرف القراءة والكتابة، والتي عاشت في مُحيط جنوب جورجيا البائس مع زوجها المُزارع، الذي لم يتلق أي تعليم في الفلسفة أو الدين أو الفنون - بطريقة ما، كانت تتمتع بالحكمة وفهم لأكثر المشاكل صعوبة وتعقيداً. بينما كانت لِلِيَّان تبحث عن المُستقبل، وجدت آنا مُستقبلها في كل لحظة.

كان إيمانها مليئاً بالرضا والسلام والحكمة المُكتسبة من المكانة الخاصة التي بدت وكأنها تتمتع بها في نظر الله. قد كان مكاناً خاصاً سعت إليه آنا ماسون بنفسها. كانت كسماء تُحيط بها طوال الوقت. عندما كانت تتحرك، كانت سماؤها تتحرك معها؛ لأنها كانت بداخلها، وغطتها مثل هالة عظيمة. لم تستطع الظروف

أن تغير سماء آنا الخاصة. نهضت لتحريك الحساء الذي كانت تطبخه. عندما جلست مرة أخرى، ابتسمت عينيها الأكثر لذة لِلِيَّان.

"يا طفلتي، لا أستطيع أن أُخبركِ إن كُنتِ فنانة أم لا. لقد غرس الله فيك هذه الموهبة. والآن بدأت هذه الموهبة في الظهور. لقد رأيتها قادمة عندما كُنتِ طفلة صغيرة هُنا معي - الطريقة التي كُنتِ تتحدثين بها والطريقة الجميلة التي كُنتِ تحكي بها عن الأشياء. بدا الأمر وكأنكِ كُنتِ عازمة على أن تكوني كاتبة أو فنانة، حتى عندما كُنتِ ترسمين على الأرض. في كثير من الأحيان كُنت أغسل وأرى أجمل الصور التي رسَمتِيها على تراب الارض. في كثير من الأحيان كُنتِ تحكي لي قصة وتطبقيها مع الصورة، أتَّتذكرين؟ عندما كان ظهري يتعب ويؤلمني من الانحناء لفترة طويلة أمام لوح الغسيل، كان من دواعي سروري أن أشاهدكِ ترسمين في التراب وأن أستمع إلى كل تلك القصص التي كُنتِ تحكينها. يجب أن تكوني قد اخترعِتِها كلها، لأنني لم أسمع بهذه القصص في أي مكان آخر. ربما هذا ما يطلب الله منكِ أن تفعليه، إذا كان الأمر كذلك يا لِلِيَّان، فستعرفين - من خلال الاستماع. إذا استمعتِ إلى الله، فستعرفين. وأنا أعلم أنك سوف تستمعي إليه".

كان من اللافت للنظر حقاً بالنسبة لِلِيَّان أن السماء التي أحاطت بآنا ماسون بدت وكأنها تمتد وتجذبها إلى تلك الدائرة السحرية للشخص الذي كانت تتحدث إليه. كان التواجد مع آنا أشبه بالدخول إلى غُرفة مُشمسة دافئة بها مرايا تعكس ضوء الشمس والجلوس على وسائد ناعمة والشعور بيَّدٌ لطيفة تلمُس عقلك وقلبك القلقين وكتفيك المُرهقين. بغض النظر عن مكان وجود آنا، كانت سماؤها موجودة أيضاً. فوق لوح الغسيل النحاسي، وضرب

الملابس المغلية في القدر الأسود بعصا المكنسة المكسورة، والكي بالمكواة الثقيلة القديمة، وطهي العشاء، ورعاية أطفالها - أياً كان- كانت سماء آنا الخاصة بها ومعها. وبطريقة ما أصبح الشخص الذي معها جزءاً منها، ومن سمائها، حتى أنها أخذ بعضاً منها.

رتبت آنا على يد لِلِيَّان برفق. "ربما تسمعين الآن لصوتً عالياً وواضحاً يُخبركِ بما يجب أن تفعليه بحياتك يا لِلِيَّان. ربما بصوت عالٍ مثل الرعد. قد لا يكون صوتاً هادئاً وخافتاً بالنسبة لكِ". انكسر وجه آنا في ابتسامة صغيرة. "أنتِ - أنتِ مملوءة بالحياة يا صغيرتي. أي شيء رائع يُمكن أن يحدُث لكِ - ما لم تسمحي لمظهرك أن يعترض طريقكِ".

صرخت لِلِيَّان ضاحكة. "مظهري؟ آنا، ما علاقة مظهري بذلك؟"

"لا شيء، ما لم تجعليه كذلك". كان الآن وجه المرأة الأكبر سناً جاداً. "لقد صَدمتُ بشدة عندما نزلتِ من القطار يا لِلِيَّان. مظهركِ الجميل يُمكن أن يكون سبب موتكِ وأنتِ متأكدة مما يسميه إدوار "مظهراً".

كان الصوت الجاد همساً الآن. انحنت بالقرب وشخصَّت إلى لِلِيَّان للحظة قبل أن تستمر. "لن تسمحي لمظهركِ أن يعترض طريقكِ - مظهرك والله - أليس كذلك؟"

"أعدكِ. لا أعتقد أنني سأواجه أي مُشكلة بهذه الطريقة"، أجابت لِلِيَّان بهدوء. ولكن ألم تكُن مُعجبة بنفسها في مرآة محطة القطار في آشفيل قبل بضعة أيام فقط؟ أم أنها كانت تلاحظ لأول

مرة حقيقة لم تلاحظها من قبل: أنها تتمتع بجمال جسدي يفوق جمال مُعظم الفتيات الأخريات.

عانقت صديقتها بسُرعة عندما سمعتا عربة إدوار ماسون وهي تقترب من الأمام.

"تعالي حالما أفُك الرباط"، نادى بنفس الصوت الذي تتذكره لِلِيَّان جيداً.

"ولقد خلصني الرب..." كيف دخلت تلك الذكريات إلى ذهنها عندما سمعت لِلِيَّان صوت إدوار ماسون. "ما أعجب النعمة لي، ما أجمل الصوت..." ابتسمت آنا ولِلِيَّان لبعضهما البعض، وبدا أن كل منهما تقرأ أفكار الآخر. كيف كانت الترانيم تصدح في هذا المطبخ القديم والكبير!

يُمكن سماع الأطفال وهم قادمون من طريق المدرسة. نظرت آنا إلى الفُرن الدافئ وتفحصت خُبز الخميرة. قالت: "سيكون الخُبز جاهزاً في غضون ساعة". إدوار، نادت زوجها وهو يدخل من الباب، "أحتاج إلى بعض الخشب لصندوق النار. عزيزتي لِلِيَّان، يُمكنك الجلوس هُناك على الطاولة وتحضير السَلَطة. سيتعين عليك إخراج البصل والفجل من الحديقة. لقد قُمت بقطف الخس وغسله. سأحضره، لِلِيَّان. أريد أن نستمتع بهذا العشاء جيداً لأنه سيكون العشاء الأخير الذي سنتناوله مع لِلِيَّان لفترة طويلة جداً".

شعرت لِلِيَّان أنها لن تغادر في قلبها هذا المكان أبداً، أنها ستأخذ بالتأكيد أينما ذهبت، بعضاً من السماء التي كانت معهم هُنا دائماً... ولكن إلى أين كانت ذاهبة؟

الفصل الثالث

وظيفة عمل كفنانة

أُعجبت لِلِيَّان بأتلانتا من النظرة الأولى. كانت أتلانتا ضخمة، وصاخبة، وجديدة؛ وفي الوقت نفسه قديمة ومليئة بالدخان ومُتعبة. تعيش حياة هادئة كعقيد متقاعد من الحرب الأهلية، لكنها حريصة على المزيد من المجد والعظمة وعلى استعداد تام للعمل من أجل ذلك.

كانت لِلِيَّان تُقيم مع صديقة لوالدتها تمتلك منزلاً في شارع الكونفدرالية. في ذلك الصباح، ارتدت لِلِيَّان أفضل تنورتها الطويلة والسوداء، ونسقت معها قميصاً ضيقاً بحزام، وبلوزة بيضاء متوسطة الطول وربطة عنق سوداء في المُقدمة. أمام مرآة الباب الطويلة، قامت بتمشيط شَعرها بعناية ورفعته بترتيب من خلف تاج رأسها. ثم فكت قفازاتها البيضاء وقبعتها السوداء وارتدتهما بعناية أمام خزانة الملابس القديم ذات السطح الرخامي. ألقت نظرة أخيرة على غُرفة النوم بينما التقطت مُجلد الرسومات التي كانت ستأخُذها إلى الصحيفة في وسط المدينة. لقد تركت الغُرفة مُرَتَبة، كما ذكّرتها والدتها بذلك. بدا السرير الداكن بلوحه العلوي المُرتفع ومفارشه البيضاء النظيفة المُزخرفة بالكروشيه مُناسباً تماماً للسجادة القماشية على الأرض الخشبية والعارية بجانب السرير. وكذلك الستائر البيضاء الجميلة عند النوافذ الطويلة والقديمة والهشة. مرت لِلِيَّان بالمطبخ، وودعت مُضيفة المنزل، ثم ذهبت سريعاً على الأقدام إلى خط الترام الكهربائي. كانت المنازل على طول الطريق القديم والمُتعبة المظهر والمُزينة بزخارف مُعقدة من خُبز الزنجبيل، وكانت الشرفات مُنظفة بعناية

ومفروشة بكراسي مُريحة. كانت الساحات والحدائق مليئة بالزهور والشجرات الجميلة. وكانت المروج خضراء للغاية لدرجة أنها بدت وأنها غير واقعية تقريباً.

وصلت لِلِيَّان وعربة الترام الكهربائية إلى المحطة في نَفْس الوقت. في أثناء الرحلة إلى المدينة، فكرت في جيردي ومخاوفها في الخروج بجراءة إلى الاماكن الجديدة والمُختلفة. فكرت وهي تبتسم قليلاً: كم يُمكن أن يكون هُناك اختلاف بين صديقتين. كانت تتطلع بالفعل إلى مُقابلة السيد هوارد، محرر الفن في الصحيفة، على الرغم من أنها كانت مُتحمسة، أدركت أنها لا تعرف بالضبط كيف تقترب منه عندما يحين الوقت.

ثم وجدت نفسها في غُرفة المدينة المليئة بالدخان في صحيفة أتلانتا جورجيا. كان صوت خشخشة الآلة كاتبة ساحقاً. ثم إلى غُرفة جانبية بها كأس واحد حيث عبس محرر الفن ذو اللون الخردلي الثقيل وسألها أسئلة. أخيراً، انحنى إلى الخلف وأغلق عينيه وقال لها أن تعود في الغد عندما يكون لديه وقت للنظر في الرسومات بعناية أكبر. كان لديه الكثير من الطلبات للوظيفة مُنذ أن نشر الإعلان، لكنه أحَبَ الرسومات التي أظهرتها له لِلِيَّان. في الوقت الحالي، كان يُعاني من صداع والتهاب في الحلق ولديه موعد نهائي، لذلك غادرت لِلِيَّان المكان.

وبعد أن تحررت من ارتباطاتها، نزلت في نُزهه سعيدة، ثم ظلت وواصلت سيرها في شارع مِاريبيتا، ثم فقدت نفسها في متاهة الشوارع المُتعرجة والمُتغيرة. ثم تجولت حتى وصلت إلى متجر ريتش في شارع وايت هُول، ونظرت إلى الفساتين الخريفية المُصممة حسب الطلب في نوافذ المحالات. كانت هُناك قفازات

أطفال وبلوزات بأكمام كبيرة من الدانتيل. مرت بها، ولكنها كانت مُترددة.

عندما عادت إلى الصحيفة في صباح اليوم التالي، قيل لها إن السيد هوارد كان في بيته لأنه مُصاب بنزلة برد شديدة. أخبرها رجل غريب كان يجلس بمكتب محرر الفن، على أي حال، أنه مُتأكد من أن شخصاً آخر قد تم تعيينه في وظيفة الفن المُتاحة.

"شخص آخر؟" لأول مرة ارتجف صوت لِلِيَّان. كانت مُتأكدة جداً من أنها ستحصل على الوظيفة. كان الرجل يهز رأسه عند رؤية أكوام النسخ حوله. "لن أُخلص من ذلك أبداً"، تأوه. وضع يديه على رأسه وبدأ في دراسة مجموعة من الرسومات بتوتر، وهو يدخن سيجار أسود وطويل. كانت لِلِيَّان تتحرك في كرسيها، وكأنها نسيت الأمر. فجأة، نظر الرجل إلى الأعلى بعد فترة وقال، "تعالي بعد ثلاثة أيام أو نحو ذلك، يا فتاة. يُمكنك استعادة رسوماتكِ عندما يكون هوارد موجوداً. لا أعرف أين يحتفظ بأي من هذه الأشياء". سارعت لِلِيَّان إلى الخروج، وهي تحاول يائسة حبس دموعها حتى تتمكن من الوصول إلى الشارع. كان خيبة الأمل أكثر مما تستطيع تحمُّله، ولكن الأسوأ من ذلك أنها لم تكن مُتأكدة حتى من كيف أنها ستستعيد رسوماتها الثمينة بعد كل العمل الشاق الذي بذلته فيها. بعد كل آمالها. بطريقة ما، تمكنت من حبس دموعها حتى وصلت إلى غُرفتها المُشمسة في شارع الكونفدرالية. ولكن بعد ذلك سقطت على السرير وبكت لفترة طويلة. أخيراً، نعست ونامت على السرير. وعندما استيقظت، سمعت صوت آنا ماسون وكأنها كانت في نَفِس الغُرفة. "ربما تسمعين صوتاً عالياً واضحاً يُخبركِ بما يجب أن تفعليه

بحياتك يا لِلِيَّان. ربما بصوت عالٍ مثل الرعد". ثم رأت ابتسامة آنا تغمرها نَفِس السماء الصغيرة التي كانت تتبعها اينما ذهبت.

فجأة ابتسمت لِلِيَّان. أدركت على الفور دون أدنى شك أن الأمور كانت تحدُث بالطريقة التي كان من المفروض أن تحدُث. لماذا كانت تبكي بشأن ذلك؟ ذهبت إلى شرفة الخدمة وغسلت وجهها بالماء البارد ومشطت شَعرها وذهبت بهدوء شديد للمُساعدة في إعداد العشاء. انتظرت عدة أيام قبل عودتها إلى غُرفة الصحيفة لاستعادة رسوماتها.

كانت سعيدة تماماً وهادئة عندما دخلت غرفة المدينة الصاخبة هذه المرة. عاد السيد هوارد إلى مكتبه وعندما رآها، ابتسم، ثم فجأة عاد العبوس القديم إلى وجهه مرة ثانية. خلع نظارته وأشار إليها بحدة وانفجر: "لماذا لم تعودي، أيتها الشابة؟ أردتكِ أن تكوني في هذه الوظيفة. اضطررت الآن لتوظيف شخص آخر!"

تقلصت لِلِيَّان من شراسة قوله. حينئذ شعرت بالأسف على نفسها. قالت بهدوء: "لكنني عُدت. لقد عُدت، وأخبروني أنك وظفت شخصاً أخر لهذا المنصب".

خلع الرجل نظارته وألقاها في غضب. ثم بدأ وكأنه اكتسب قدراً ضئيلاً من السيطرة وقال ببطء وبتَعمدَ: "لقد وظفت شخصاً ما. كان ذلك الشخص هو أنتِ! من بين كل الأغبياء المتخبطين! لماذا لم يُخبروكِ أنكِ الشخص الذي أردتُه؟" ثم تأوهَ وخفف صوته. "أنا آسف يا آنسة. آسف لنفسي. وآسف لكِ".

ابتسمت لِلِيَّان. "لا تتأسف من أجلي". نهضت بسُرعة وأخذت حافظة رسوماتها - "شُكراً لك على كل شيء". اعتقدت أنها رأت نظرة غريبة وفضولية على وجهه العابس، عندما قالت وداعاً وهرعت بثقة خارج الغُرفة المليئة بالدخان.

الحقيقة هي أن لِلِيَّان كانت بالكاد تستطيع الانتظار للوصول إلى دار الإيمان للأيتام عند السيدة بيري في كارولينا الشمالية.

كان الأمر كما لو أن ريحاً قوية بقوة الإعصار تجذُبها إلى هُناك تقريباً. كان الأمر كما لو أن ريحاً قوية تدفعها في هبوب رياح كبيرة بعيداً عن الصحيفة المملوءة بالدخان في وسط مدينة أتلانتا، نحو دار الإيمان للأيتام في كارولينا الشمالية.

الطفلة لِلِيَّان في
السادسة من عمرها

لِلِيَّان الشابة، في
الرابعة عشر من
عمرها

لِلِيَّان في الثالثة والعشرون
من عمرها عندما وصلت
إلى مصر

الفصل الرابع

دعوة لِلِيَّان لمصر

"إنها حياة جديدة وغريبة بالنسبة لي" كتبت في مُذكراتها... أنا أتعلم كل شيء... كيف أقُص الملابس، والخياطة، والطهي، والاعتناء بالأطفال حديثي الولادة. كيف أُعَلمُ وأشرف على عدد كبير من الأطفال. وكيف أعيش بدونهم!"

كما أشارت في مُذكراتها إلى أنها تعلمت أن تثق في شخص آخر غير نفسها لتلبية احتياجاتها. "ليس لدي مال على الإطلاق ولا يُرسل أهلي أي مال". لكنها لم تطلب من أهلها المال، لأنها تعلم أنهم لا يفهمون سبب اضطرارها للذهاب إلى هُناك. هُنا تآكلت أحذيتها ولم يكن لدى الآنسة بيري مال لشراء حذاء آخر لِلِيَّان. ثم أرسل أحد المُتبرعين صندوقاً مليئاً بالملابس القديمة، مع زوج من الأحذية الرجالي. سألت لِلِيَّان الآنسة بيري عما إذا كان يُمكنها من أن تحصل على زوج الأحذية الرجالي.

"أحذية رجالي – لكِ؟" حتى السيدة بيري، التي كانت تجهل تماماً كلا من الملابس والزينة واعتبرت الجمال الشخصي عيباً، لم تستطع على ما يبدو أن تتخيل لِلِيَّان تَرتَدى زوج قديم من الأحذية الرجالي. قالت بحُزن وهي تهز رأسها: "عزيزتي، إنهم ليسوا من النوع الذي تُفضلينه".

كانت لِلِيَّان تعلم ذلك. "لو لم أكُن أعلم ذلك"، كتبت في مُذكراتها بابتسامة ساخرة، "لم يكن الأمر ليستغرق وقتاً طويلاً حتى اكتشفت بذلك عندما دخلت احدى الفصول الدراسية لتدريس

الأيتام - ورأت رسم على السبورة لقدميها ببروز أصابع قدمها من حذاء رجالي".

في صباح أحد الأيام، استيقظت لِلِيَّان في الصباح الباكر، كما أصبحت عادتها، حيث كان من واجبها أن تُحَضَر العصيدة لوجبة الإفطار المُبكرة في دار أيتام الإيمان. بعد ذلك، كان من واجبها تنظيف الأواني والمقالي. كان الاستيقاظ في مثل هذا الوقت يمنحها بداية جيدة ليومها الطويل من الأعمال المنزلية. استلقت على السرير، وألم غريب كان يُحيط بمعدتها. انحنت في شكل نصف دائرة لتخفف الآلام المُزعجة. أدركت تدريجياً حقيقة كانت تشعر بها مُنذ أسابيع: إنها جائعة. لم تكن تحصل ببساطة على ما يكفي من الطعام هُنا في دار أيتام الإيمان. كما أن ساعات التنظيف الطويلة للأرضيات الكبيرة، وغسل الملابس، والطهي، والكوي، والكنس، ناهيك عن التدريس والدراسة التي كانت تقوم بها أيضاً، يتطلب منها تناول كمية كبيرة من الطعام المُغذي الذي كانت لا تحصل عليه.

لقد لاحظت لِلِيَّان أن ملابسها كانت تتدلى على كتفيها ووسطها. رأت في المرآة ظلالاً عميقة تحت عينيها. ولكن ماذا يُمكنها أن تفعل؟ قامت برفع جسدها الحذر من على السرير. لقد خف الألم وقتياً. مدت يدها إلى محفظة النقود الصغيرة البالية تحت الوسادة وأخرجت منها عشرين سنتاً - لقد أعطاها إياها شخص ما في اليوم السابق - لاستخدامها الشخصي. في ذلك الوقت بدا من المُستحيل أن تُقرر ما تحتاجه إليه أكثر من العشرين سنتاً. لذلك احتفظت بها بعناية. أصبح الأمر الآن واضحاً جداً: يجب أن تُنفق هذا التبرع على الطعام، وهو الشيء الذي تحتاجه وتُريده. يجب أن تبدأ بطريقة ما في استعادة قوتها. كانت ضعيفة ومُرهقة. فكرت

في آنا ماسون مرة أخرى وتلك الصباحات العطرة من يوم الغسيل من كل يوم اثنين. كانت تشم رائحة الحم البقري المقدد المقلي في المطبخ كما كانت تفعل كل صباح بعد موسم الحصاد الطويل في بيت ماسون. تنفست بعُمق. أغمضت عينيها واستنشقت الرائحة المُغرية من اللحم البقري المقدد المقلي في المطبخ والفطائر العطرة التي خبزتها آنا ووضعتها في الفُرن الدافئ. "هذا ما سأحصل عليه"، همست لنفسها. فجأة بدأت الدموع تتدفق على خديها. إن مُجرد التفكير في الطعام، كان ساحقاً. أغلقت حقيبة النقود وأعادتها تحت الوسادة عندما سمعت صوت حاداً ومقلقاً من السيدة بيري، في الصالة.

لم تكن العصيدة على الطهي جاهزة لمئة وجبة إفطار. قالت وهي تُسرع بحركات ديناميكية سريعة: "هل أنتِ بخير، يا لِلِيَّان؟" هزت لِلِيَّان رأسها: "أعتقد أنني تعبانة قليلاً في هذا الصباح، وبطيئة بعض الشيء. سأخرج على الفور".

"أنتِ لست مريضة، أليس كذلك؟" غالباً ما يبدو صوت السيدة بيري حاداً ومُباشراً، لكنها كانت مليئة بالشفقة تحت حدة الصوت، كما وجدت لِلِيَّان. فجأة، التفتت لتُغادر، وتوقفت. "سألت، يا عزيزتي لِلِيَّان، هل إذا كان بإمكانكِ إقراضي العشرين سنتاً التي حصلتِ عليها بالأمس؟ ينقصني هذا المبلغ الآن، لدي فقط ما يكفي لدفع ثمن البقالة لعامل التوصيل".

شعرت لِلِيَّان بالتخدير. بدون شعور بأي اتجاه أو آخر، مدّت يدها إلى محفظة النقود، وفتحتها، وأعطت السيدة بيري العشرين سنتاً الثمينة.

"من اللطيف منكِ أن تقرضني إياها"، قالت بيري. "هُنا المبلغ، يا فتى"، سمعت لِلِيَّان نداءها لصبي التوصيل. "ها هي العشرين سنتاً!" عرفت لِلِيَّان أيضاً أن تلك هذه هي العشرين سنتاً التي كانت تملُكها. من الآن، الساعة الثامنة صباحاً إلى الثالثة مساءاً فصاعداً، لن تفكر الآنسة بيري الفقيرة، بارك الله فيها، في هذا الأمر مرة أخرى.

مع حلول فصل الربيع، شعرت لِلِيَّان بأنها تكتسب بعض القوة. لقد أحبت الأطفال في دار أيتام الإيمان بشكل خاص. وما زالت تشعر بالانجذاب الأبدي إلى هذا المكان المُقدس، هذه المُهمة الرائعة. مع ذلك، عندما طلب منها شقيق الآنسة بيري وزوجته الذهاب معهما في رحلات الوعظ، ذهبت بسعادة. هذا أيضاً جذبها. لقد عملت مع الأطفال في دار الأيتام. لكنها الآن ستعمل مع الكبار أيضاً.

لقد ذهبت بكل سرور. كانت هذه من أسعد ساعات العمل. كانت تشعر بذلك. لم تستطع أن تقول لماذا. أنهم زوار عائلة بيري والباقون لتناول العشاء مع عائلة جودسون. عائلة مُزارعين في الوادي. ذهبوا بعربة تجرها الخيول أسفل الطريق الجبلي شديد الانحدار. كانت أُمسية نابضة بالحياة، كانوا في نُزهه مثل طفل في عامه الأول. كانت فترة ربيعية مرحة ومُبهجة في ولاية كارولينا الشمالية. كان التألق يتلألأ في كل مكان. كانت الصورة تخطف الأنفاس - سفوح الجبال تتفجر بأزهار الرودودندرون الحمراء الغنية، والينابيع الجبلية تُخرج رؤوسها المُتدفقة بمرح وشقاوة داخل وخارج بيوت اللعب الجبلية غير المتوازنة. الطيور، والطيور، والطيور - تُغني وتُغني وتُغني لأقرانها، والسناجب،

والينابيع الجبلية، ولخالقها، وحتى للبشر الذين مروا أدناه في عربات تجرها الدواب السوداء القديمة.

اتبعت العربة المُنعطف في الطريق المُتعرج إلى بوابة بيضاء عريضة، خلفها مزرعة كبيرة أنيقة بشرفة واسعة مُريحة مُمتدة في كل مكان، تتبع مُنحنيات الأرض الطيبة التي تُغذيها. كانت هُناك خيمة حمراء كبيرة ومراحيض خارجية في الخلف، تجاوز طريق المنزل بالخيمة. كان ابن الأخ جودسون يفتح لهم بوابة الطريق للدخول وعندما مروا، توقفوا وانتظروه عندما جاء بجانبهم، أولاً كان هُناك مُصافحة وضحك، ثم وقت للتقديم والتعرف على كل شخص. كان معهُ شاب طويل القامة، أنيق، عضلي - قسيس لكي ما يُساعد في عمل التبشير المنزلي. تلاشى صوت الأخ جودسون بالنسبة لِلِيَّان عندما نظرت إلى أسفل العربة ورأت عيني الشاب الوسيم الرماديتين تنظران مُباشَرَةً إلى عينيها. توم جودسون ... أم أنها تخيلت بأنها سمعت اسمه. هل قام مُساعدها في النزول من العربة بقبضته القوية والثابتة؟ أم كانت تطفو؟ كان من المفروض أن يكون هذا الربيع في قلوب الشباب، والآن أحاط بها وانخرط فيها، وأدركت، "يا رب، هل قُدتني إلى هُنا في هذه الليلة؟"

ابتسم توم، كان جاداً وطويل القامة، وهو يمشي بخطوات طويلة وسهلة.

رأت وهي تسير نحو الشرفة، قوس قزح مُمتد عالياً في السماء، محصوراً بشكل لا ينفصل بين مطر قمة جبل مُرتفع وغروب الشمس. كم كان هذا مُثيراً أن تكون في وسط مطر جبلي وتوهج الجبال الغربية. كم كان هذا أمان أن يكون عليك بشكل لا

ينفصل! التفتت باندفاع إلى هذا الشاب ذي العيون الرمادية، وابتسمت، وحبست أنفاسها عندما أدركت أن العيون الرمادية لا تزال تنظر إليها.

أعجبها ذاك جداً.

ضحكا كلاهما من شدة البهجة وتحركا قليلاً تجاه بعضهما البعض. نادت السيدة جودسون للعشاء. ثم "أنا سعيد جداً بلقائك، آنسة تراشر"، سمعته يقول بينما انتقلوا مع الآخرين إلى طاولة العشاء. لم تقُل شيئاً، وأجابته بعينيها.

كانت طاولة المزرعة الكبيرة مليئة بالدجاج المقلي واللحم المشوي وسلطة الخضروات والبطاطس المهروسة والمرق والذرة الرفيعة والفاصوليا الخضراء والخُبز الساخن ومربى التوت الأسود المصنوع بالمنزل. طُلب من توم جودسون الصغير الصلاة قبل أن يأكلوا. وبينما كان يصلي، أُتيحت لِلِيَّان فرصة مُمتازة للنظر إليه، رغم أنه كان من المفروض أن تكون عينيها مغلُقتين مثل عيون الآخرين. كم كان مُختلفاً! كم كان صوته غنياً لائقاً ومُهذباً. كانت لِلِيَّان تبلغ الآن من العمر، اثنين وعشرين عاماً. خمنت أنه يجب أن يكون أكبر منها سناً بقليل.

كانت وجبة لذيذة، وفرة كريمة من كل شيء، فكرت بامتنان. كم يختلف هذا عن الطعام الهزيل غير المُثير للاهتمام في دار أيتام الإيمان. شعرت لِلِيَّان بنوبة من الندم والخجل. ها هي في خضم الوفرة، بينما لم يكن لدى أصدقائها الصغار في دار الأيتام ما يكفيهم. إذ كانت جائعة طوال تلك الأشهر، ألم يكونوا هم جائعين أيضاً، بأجسادهم الشابة التي تنمو؟ ألم يكونوا جائعين الآن! الآن؟ ما أجمل أن يكون لديك ما يكفي لكل ما تحتاج إليه. ولكن هل كان

من الصواب أن تأكل هكذا بينما كان الآخرون في دار الأيتام جائعين؟

ومع ذلك، كيف يُمكن للشخص أن يصل إلى الارتفاع والعُمق والعرض للعيش في عالم الله إذ كان جائعاً؟ كيف يُمكنك أن تمتلك القوة لمُساعدة الجائعين، إذا كُنت أنتَ نفسك جائعاً؟

كانت واعية بتلك العيون الرمادية الثاقبة، الجميلة، على الجانب الآخر من الطاولة. يبدو أن تلك العيون لا يُمكن أن تنفصل أبداً، بعد أن وجدوا بعضهما البعض. عندما افترقا في ذلك اليوم هي وجودسون، كانا يعرفان أن الفراق لن يدوم طويلاً.

أولاً، كانت رحلة مُهمة جبلية مع عائلة ماتي. ثم عشاء ريفي في المدرسة المحلية حيث حصل توم على صندوق لِلِيَّان. ثم، عادا إلى جودسون لتناول العشاء، وجلسا جنباً إلى جنب هذه المرة. حتماً، رأي لِلِيَّان تراشر وتوم جودسون بعضهما البعض أكثر فأكثر في الأسابيع التي تلت ذلك. أنهما حتماً أصبحا مخطوبين لبعضهم البعض.

في تلك الأُمسية الرائعة من شهر مايو عام ١٩١٠، صلي كلاهما معاً وصلوا مُنفصلين. يجب أن تكون هذه إرادة الله لكليهما (أو إرادة كل منهما). يجب أن تكون هذه هي الخطة التي تم وضعها لِلِيَّان تراشر وخطة آخري لتوم جودسون قبل ولادتهما. تأملت لِلِيَّان في هذه الفكرة. هل كانت هُناك خطة أخرى لِلِيَّان تراشر؟ لقد كان هُناك لِلِيَّان تراشر أخرى من قبل، كما تذكّرت.

كانت في طريقها إلى الكنيسة في عربة أطفال في صباح أحد أيام الأحد مع خطيبها، عندما جاءتها فكرة غريبة. كانت تعلم

يقيناً أن هُناك خطة إلهية لحياتهما. لحياة توم. لحياة كل شخص. أولئك الذين فشلوا في العثور على ما يُريده الله في حياتهم، من خلال عدم البحث، أو الجهل، أو الإهمال، أو التجاهل المُتعمد لله - هؤلاء كانوا خارج خطة الله إلى الأبد. ليكُن ما كان في نظر الله، على أي حال؟ تذكرت أن والدتها أخبَرُتُها عن لِلِيَّان أخرى، ولدت قبلها بعام أو نحو ذلك. توفت لِلِيَّان الأولى في طفولتها. وأن الأم الحزينة كانت مُصممة على أن يكون لديها طفلة أخرى باسم لِلِيَّان، لذلك سمت الطفل الثاني باسم لِلِيَّان هأنت تراشر. شعرت لِلِيَّان، بطريقة أو بأخرى، أنها تعيش حياة شخص آخر، وأنها يجب أن تؤدي واجباً مزدوجاً في حياتها. كانت لديها فكرة أخرى، وتجمدت في داخلها. ربما كانت لِلِيَّان الأخرى هي التي كانت تنوي الزواج من القسيس الشاب الوسيم، طويل القامة والواقف بجانبها.

لقد عادت إلى دار الأيتام في الصيف وكانت مشغولة بالخياطة والتخطيط لحفل الزفاف. لم يتبق سوى عشرة أيام للزفاف. رتبت لِلِيَّان وقتها بعناية حتى يكون كل شيء في ترتيب جيد. أعطت فُستان زفافها آخر تجربة وشعرت بالرضا التام عن تفاصيل حفل الزفاف القادم. شعرت بالرضا التام عن زوجها المُستقبلي. كان حبه لها عميقاً - عميقاً مثل حُبها له. كان لطيفاً ورصين وصادقاً - ونعم، وسيماً جالساً بجانبها، مُمسكاً بزمام الأمور بشكل فضفاض بيديه المتينتين والقويتين. كم كانت تلك الأيدي قادرة على حمل الحزام، والعمل في الحقل، كما رأته يفعل. كم كانت واثقة. كم كان رائعاً عقله النشيط الباحث. كم كانت تستمتع بمناقشاتهم الطويلة والعميقة حول حياتهم وعلاقتهم بالله. درست الآن ملامُحه: ملامح قوية مُنتظمة، وحاجبين أسودين

كثيفين وشارب أسود قوي. القوة! كانت هذه هي ميزته الغالبة، قررت. القوة في الإيمان، في الله، في العقل، في الجسد، والقوة في حبه لها: استدار وابتسم قليلاً بعينيه. هل كانت بحاجة إلى إجابة؟ هزت رأسها. لا؟ لا. ثم أصبح كل شيء على ما يُرام. عاد عقلها إلى خطيبها، على ما يبدو، وجهها إلى الطريق أمامها. كانت سعيدة لأنهم أحبوا بعضهم البعض كثيراً، لدرجة أنهم تمكنوا من الركوب في صمت مُتفهم.

لقد سمعت عن أزواج مُتزوجين مُنذ فترة طويلة، كيف انهم يفهمون بعضهم البعض جيداً لدرجة أنهم يستطيعون الركوب لساعات، كل منهم بأفكاره الخاصة، ثم يُكمل أحدهم فجأة فكرة ناقشوها قبل ساعات. والآخر يتبع بالضبط دون أي انقطاع في المُناقشة، أو أي تفسير مطلوب. يبدو أن هذا هو الحال بينهم. فكرت مرة أخرى في فُستان زفافها الأبيض. كم ستكون فخورة بارتدائه مع توم إلى جانبها!

قبل عشرة أيام من زفافهما ذهبت لِلِيَّان والسيدة بيري لسماع خطاب مُرسلة من الهند. قبل أن تنتهي، كانت لِلِيَّان تبكي. عادت إلى دار الأيتام، وسارعت إلى غُرفتها وجثت على ركبتيها بجانب سريرها وهي تبكي بحُرقة. بقيت هُناك لفترة طويلة. أما الآنسة بيري، التي شعرت على ما يبدو أن لِلِيَّان بحاجة إلى أن تكون بمفردها، فقد بقيت بعيدة حتى وقت مُتأخر. ثم سمعت طرقها على الباب. كان صوتها ناعماً بشكل غريب، فقالت: "لِلِيَّان، إذا كُنتِ تريدني، سأدخل. إذا لم تريدني، فأخبريني وسأُغادر".

سحبت لِلِيَّان نفسها وجلست على السرير، ومسحت عينيها. وقالت: "أُريدكِ أن تدخلِي، من فَضلِكِ".

لم تجلس المرأة الكبيرة. "ربما تُريدين أن تُخبريني ما الأمر. أو ربما لا تُفضلين ذلك، يا عزيزتي".

لم تكن حساسيتها الشديدة أكثر وضوحاً من أي وقت مضى. لقد قدرت لِلِيَّان الآن على ذلك بعُمق. "لا يوجد شيء خاطئ، آنسة بيري". ولكن بعد ذلك انكسر صوتها. قالت ببساطة، "لا يوجد شيء خاطئ - باستثناء أنني مخطوبة للزواج من أجمل شاب في العالم بعد عشرة أيام من الآن - ولا يُمكنني الزواج منه".

عبست آنسة بيري. "لا يُمكنك الزواج منه!؟ لماذا، يا لِلِيَّان، إنه شاب رائع؟ وأنتما الاثنان مُناسبان تماماً بعضُكما لبعض".

"نعم"، قالت لِلِيَّان. "لكن الله دعاني لأكون مُرسلة لبلد أجنبية، ولم أستطيع رفض أمر الله".

جلست آنسة بيري بعد ذلك، ووضعت يديها على عينيها، من الواضح أنها واجهت صعوبة في استيعاب الصدمة. ثم نظرت إلى لِلِيَّان بذهول، وقالت ببطء وبتعَمُد: "هل تقصُدين أنك دُعيتِ لتكوني مُرسلة؟" أومأت لِلِيَّان برأسها. قالت إنها لم تستطيع التفكير في الأمر من قبل. ومع ذلك، كان في أعماقها، طوال الوقت. عرفتُ تلك الليلة. عرفت ذلك على وجه اليقين.

قالت الآنسة بيري بصوت خافت وناعم لم تُدرك لِلِيَّان أنه ينتمي إلى المرأة الصغيرة ذات اللسان الحاد التي تعرفها وتحبها جيداً: "يا له من ولد مسكين، مسكين". هزت رأسها بحُزن. "إن هذا سيكسر قلب توم..."

"لكنني لا أستطيع رفض أمر الله"، قالت لِلِيَّان بإصرار. هل يُمكنني الآن؟ على الرغم من أني وعدته بالزواج، لا يُمكنني رفض دعوة الله".

"لا، يا لِلِيَّان. لا، يجب أن تسمعي لله أولاً". وضعت ذراعها بشكل مُحرج حول صديقتها الصغيرة. "إلى أين تعتقدين أنك على وشك الذهاب؟"

هزت لِلِيَّان رأسها وقالت ببساطة، "لا أعرف. إنه أمر مُضحك، لا أعرف إلى أين أنا ذاهبة، أو كيف أنا ذاهبة، أو متى أنا ذاهبة. ليس لدي أي إحساس في هذه المرحلة بشأن من أين أبدأ. ومع ذلك، أعلم أنني قد دُعيت وأنا ذاهبة. لذا يجب أن أبدأ الآن".

ابتسمت الآنسة بيري. لأول مرة مُنذ أن تعرفت على المرأة الصغيرة، رأت لِلِيَّان أن عينيها كانتا مملوءتين بالدموع.

"تصبحين على خير يا عزيزتي. "لماذا لا تنامي قليلاً إلى وقت متأخر في الصباح؟" خرجت من الغُرفة بسُرعة، على ما يبدو مُحرجة من دموعها، وكانت تتردد خطواتها بشكل حاد على أرضيات قاعة الغُرفة، ثم تلاشت، ثم اختفت، وهي تَغلق بابها.

لم يكن لدى لِلِيَّان سوى خمس دولارات مُنذ أن أنفقت كل أموالها على حفل زفافها. وبشكل مُميز، ذهبت مُباشَرَةً إلى توم لتُخبِره بما حدث. في وقت مُبكر من اليوم التالي، قادته إلى الطريق المُتعرج الذي ركبا فيه معاً كثيراً. أخبرته بكل شيء، ثم سارا في صمت لفترة طويلة. أخيراً، نظر إليها بتفكير: "إلى أين تعتقدين أنك قد دُعيتِ؟"

فكرت - إلى أفريقيا.

"سأنتظركِ يا لِلِيَّان"، قال أخيراً. "سنة واحدة – سنتان. أطول، يا عزيزتي". التفت إليها بلطف، وكانت عيناه الرماديتان تتوسلان.

"ولكن ماذا يُمكنني أن أفعل في سنة أو سنتين؟" بكت بهدوء. "أو حتى ثلاث أو أربع سنوات". هزت رأسها بحُزن. "لا يا توم. هذا يمثلُ وداعً. الآن. إلى الأبد". نظرت إليه مرة أخرى، وأحبته أكثر، كما فكرت، أحبته أكثر مما كان من قبل. بدا الأمر وكأن حجاباً مظلماً قد نشأ بينهما ويفصل بينهم في لحظة. وكلاهما عرف أن علاقة الحب قد انتهت.

لقد رحل. سارت لِلِيَّان ببطء، بمفردها، على طول الطريق المُتعرج إلى دار أيتام الإيمان، وهي تبكي بهدوء. كم آذَيتِهُ...

إلى أين كانت ذاهبة؟ نظرت إلى الأمام، إلى الطريق الطويل المُتعرج الذي يمر عبر الجبال الخضراء الجميلة. فكرت أن مُستقبلها الذي كان يُشبه الطريق الذي أمامها. لم تستطع أن ترى إلى أين سيقودها. لكنها كانت تعلم أنه أمامها. لمعرفة أين سيقودها، كان عليها أن تتبعه. بصبر. بإخلاص. بثقة. بهدوء. وبثبات.

بدأت في المشي بثبات.

أعطاها عدد من أصدقائها بعض النقود لرحلاتها التبشيرية وعندما سمعت عن مؤتمر تبشيري للقداسة الذي يُعقد في بيتسبرغ، بنسلفانيا، قررت لِلِيَّان الذهاب إلى المؤتمر، لمعرفة قدراتها، وأملها في أن تكتشف المكان الذي ستذهب إليه في أفريقيا. ربما، أيضاً، سيوفر لها الله طريقة. عرفت لِلِيَّان أنها ليس

لديها كنيسة لتُرسلها. كانت كنيسة القداسة الصغيرة في شارع باكستون التي كانت تذهب إليها في أشفيل، لا يُمكنها إرسالها. كانوا بالكاد قادرين على توفير احتياجاتهم الخاصة. كانت تعلم أيضاً أن عائلتها لم تكن قابله لخططها. لذلك لم يكن بإمكانها توقع أي دعم مالي أو معنوي منهم. حتى أقرب أصدقائها كانوا خائفين. لكن لم تكن لدى لِلِيَّان أي شكوك. لم تكن خائفة. سيوفر الله ما تحتاجه، فقد وفر للسيدة بيري، ومئة يتيم، ومدرستها. بدأت لِلِيَّان، التي بلغت الآن من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، تعيش في سلام تام مع نفسها. بدا الأمر وكأن سماء آنا ماسون تُحيط بها. ربما كان لديها الآن سمائها الخاصة تُحيط بها. ابتسمت بمجرد التفكير في هذا.

ثم بدأت سلسلة غريبة من الأحداث التي شكلت النمط لكل مُستقبلها، على الرغم من أن هذه الاحداث بدت غير مُهمة في البداية.

"لقد سلمتُ كل أموالي إلى الآنسة بيري لحفظها"، كتبت. "لقد وضعتها في مكتبها، واستخدمتها أختها لسداد دين، دون أن تعلم أن هذا المال كان ملك لِلِيَّان. "لم أعرف بهذا حتى كُنتُ مُتوجهة إلى القطار لحضور مؤتمر التبشير. حاول أصدقائي مُساعدتي، لكن لم يكن هُناك ما يكفي من المال لتغطية الثمانية عشر دولاراً التي كُنتُ بحاجة إليها لأجرة القطار. ومع ذلك، كان هُناك ما يكفي للوصول إلى العاصمة واشنطن. لم أكُن قد ذهبتُ إلى تلك المدينة من قبل ولم أكُن أعرف أي شخص هُناك.

"لكن الآنسة بيري قالت إن لديها صديقة في واشنطن وستُعطيني مُذكرة تعرُّف وتعتقد أنه يُمكنني البقاء معها حتى تتمكن من إرسال بقية المال لدفع أجرتي إلى بيتسبرغ.

"في الوقت المُناسب، وصلت لِلِيَّان إلى واشنطن، ووجدت صديقة الآنسة بيري، وسلمتُها مُذكرة التَعَرف. قالت، "آه، أنا آسفة جداً، لا يُمكنني استضافتكِ لأنني أستضيف عائلة مُرسلة من أسيوط، مصر؛ "لكن تعالي وتناولي بعض الغداء."

كان المُبشر القس والسيدة برلسفورد، كما قالت مُضيفة المنزل، مُرسَلين إلى إفريقيا.

يا له من صوت جميل! عندما استمعت لِلِيَّان بالكلمات والفكرة والتوقع الذي نشأ عليها عندما قيلت. إن معرفة هذه الكلمات كانت جزءاً من خطة الله لها، أعطتها شعوراً بالانتماء، وأخيراً، شعوراً بأنها في المكان المُناسب في الوقت المُناسب وتتجه إلى موعد مُرتب سابقاً من الله نفسه.

كان يتحدث المُرسل من مصر. سمعت صوته وكأنه صوت شخص من بعيد، رأته من خلال مرآة غامضة.

"أفريقيا؟" كان يسأل. "إلى أي مكان في إفريقيا أنتِ ذاهبة؟"

فجأة اصبحت كل الوجوه في الغُرفة بحراً من الأسئلة، تتدفق نحوها، وتبتلعها، وتغمرها. سأل أحدهم: "أي هيئة تُرسلك إلى إفريقيا، آنسة تراشر؟ بدون هيئة؟ "كنيستك إذن؟"

احمر وجه لِلِيَّان خجلاً بشكل مؤلم. ثم هدأت من روعها، ونظرت إلى الأشخاص في الغُرفة بجرأة. "لن أذهب تحت غطاء أي هيئة"، قالت ببساطة. "ولن تُرسلني كنيستي. في الواقع، في الوقت الحالي، أنى لستُ حتى الآن عضواً في كنيسة رغم أنني كُنتُ أحضرُ في كنيسة صغيرة رائعة للقداسة في أشفيل".

"عائلتك إذن، على ما أعتقد"، قالت السيدة برلسفورد، مُبتسمة وبلطف. انتقل القس برلسفورد إلى جانب لِلِيَّان. كان يبتسم أيضاً. "عائلتك تُرسِلكِ إذن". لقد كان بياناً، بياناً لحقيقة يجب أن يُتركها لأنها الطريقة الوحيدة المُتبقية.

"سيدي..." تنفست لِلِيَّان بعُمق. "عائلتي لا تؤيد ذهابي على الإطلاق".

لن تنسى لِلِيَّان أبداً نظرات الدهشة الشديدة على الوجوه في الغُرفة. رأت لِلِيَّان القس برلسفورد يتوقف وهو يسير نحوها، وكأن صدمة تصريحها جمَّدتهُ في مساره. "هل تقصدي أنكِ لا تملكي سوى أجرة سفَرِك إلى إفريقيا؟" بدا له بوضوح أن ذهاب فتاة في سنها إلى إفريقيا، دون معرفة اللغة ودون أي أموال لدعمها، هو قمة الحماقة. والأسوأ من ذلك، كارثة لحياة شابة. من جانبها، كانت لِلِيَّان تعلم أن الرجل الذي أمامها يعرف الظروف في إفريقيا لأنه هو نفسه كان في مصر لفترة طويلة. كيف يُمكنها أن تشرح له أن خططها، مثل خطط الآنسة بيري، مبنية على الإيمان وليس على المال. رفعت رأسها، والتقت عيناه بنظرة ثابتة ومُستقيمة. كان يفحصها الآن عن كثب، ثم قال: "هل تقصدي أنكِ لا تملكي سوى أجرة سفَرِك إلى إفريقيا؟"

"القس برلسفورد، لدي دولار واحد".

كانت هُناك شهقات مسموعة في الغُرفة. ثم صمت مُميت. أخيراً، أدركت أن القس برلسفورد يهز رأسه. ثم نظر إليها عابساً: "لا. لا. لا!" ثم انفجر. وظل يُحدق فيها، باحثاً لبُرهة، ثم قال ببساطة: "لا!".

كتبت لِليَّان لاحقاً في مُذكراتها: "ربما كان من الأفضل ألا أحاول أن أُخبِرِكَ بكل ما قاله أو فكَّر فيه القس برلسفورد، ولكنني مازلت أسمعهُ يطلب مني أن أعود إلى منزل عائلتي".

"أمين هو الذي يدعوك، وهو أيضاً سيتمم"، قرأت هذا في الكتاب المُقدس تلك الليلة.

لقد تخلت إحدى المُرسلات عن غُرفتها في منزل الصديق في واشنطن. تطوعت الآنسة ماتي راست، المُرسلة التي ساعدت عائلة برلسفورد في منزل بعثتهم المصرية وكانت تنام في غُرفة النوم الاحتياطية، للذهاب إلى مؤتمر بيتسبرغ التبشيري قبل يومين حتى يكون لدى لِليَّان مكان للإقامة في غُرفتها. تبين أن هذين اليومين كانا الأكثر حسماً في حياة لِليَّان. في صباح اليوم الثاني، دعاها القس برلسفورد إليه وطلب منها الجلوس. نظر إليها باهتمام وقال بهدوء: "آنسة تراشر، لقد تحدثت أنا وزوجتي عن الأمر مع بعضُنا البعض ومع الله. نُريدكِ أن تعلمي أننا نؤمن تماماً برؤيتكِ بأنكِ قد دُعيتِ للخدمة في بلد أجنبي. هل يُمكنكِ أن تُسامحينا على عدم تصديقنا؟ على الأقل، هل يُمكنكِ أن تفهمي أننا صُدمنا جميعاً من أن فتاة صغيرة تجرؤ على الذهاب إلى الجانب الآخر من العالم، بعيداً عن أسرتها بأكملها، بعيداً عن شعبها، ولغتها، وثقافتها، دون أي دعم مالي من أي نوع - هل يُمكنكِ أن تتفهمي أننا ببساطة لا نستطيع استيعاب مثل هذا الإيمان؟"

ابتسمت لِليَّان للمُرسل المُسن وقالت: "لا يوجد شيء يُمكن مُسامحتك عليه. أدرُكُ مدى خطورة ما قُلته. ولكن لا بد أن يكون الأمر كذلك، أليس كذلك؟" ثم رفعت كتفيها وتنهدت بتعبٌ قليل. "لا أفهم كيف سأتخذ هذه الخطوة العظيمة. ولكن هُناك شيء واحد أعرفه: الله يعلم".

قال القس برلسفورد "آنسة تراشر، ليس لدي مال لأُقدمُه لكِ – لأجرتكِ أو لدفع راتبكِ. ولكن هل تأتين إلى أسيوط، مصر، وتُساعدينا في عملنا المُرسَلي هُناك؟ يُمكننا أن نوفر لكِ معيشتكِ وجباتكِ وغُرفتكِ".

مشت لِليَّان إلى النافذة، ونظرت إلى المُشاة المُتسارعين الذين يعبرون الشارع تحت المطر. كانت السماء المُلبدة بالغيوم صافية في الشرق. وهُناك، على بُعد آلاف الأميال من الساحل إلى الجنوب، تقع مصر حيث كان عائلة برلسفورد يؤدون مُهمتهم. اخترقت الكلمات عقل لِليَّان ببطء شديد. تأملت في الفكرة. ألم يكن من المفروض أن تذهب إلى أفريقيا؟ ولكن أليست مصر جزءاً من قارة أفريقيا؟ بالطبع. أغمضت عينيها لفترة طويلة جداً. كانت الدموع تملأ عينيها عندما نظرت إلى القس برلسفورد مرة أخرى. قالت بهدوء: "لم يكن لدي أي نية للتوقف في واشنطن. ربما قادني الرب إلى هُنا فقط لمُقابلتكَ والسيد برلسفورد". أغمضت عينيها، وصليت بصوت عالٍ، لكنها نظرت إلى نفسها أيضاً، مُخاطبة إلهها فقط: "يا رب، هل هذا ما تُريدني أن أفعله؟ "أحتاج إلى إجابة يا رب، حتى أعرف ماذا أقول لهذا الرجل". ثم صمتت، واستمعت بعناية. بعد فترة وجيزة، فتحت عينيها. لم يكن هُناك الآن دموع في عينيها. قالت: "سأذهب إلى أسيوط، مصر. شُكراً جزيلاً من أجل الدعوة".

في اليوم التالي، تلقت لِليَّان نقودها من الآنسة بيري وغادرت إلى مؤتمر التبشير في بيتسبرغ. عندما وصلت، كان لديها خمسة وعشرون سنتاً. علاوة على ذلك، سقط صندوق ملابسها من العربة وتحطم بشدة. كتبت: "لكن الناس في مؤتمر التبشير استقبلوا المُرسَلين، وزودوهم بخيمة للنوم فيها وطاولة، وكُنت مُرتاحة وسعيدة".

أثناء المؤتمر، سلمها شخص آخر ثماني دولارات بعد أن أدرك رؤية لِليَّان للخدمة. اشترت على الفور شنطة ملابس جديدة وحزمت أغراضها مرة أخرى للذهاب إلى بلد أجنبي - أسيوط، مصر.

عندما انتهى المؤتمر، أعطاها الأشخاص المُحيطون بها، الذين سمعوا قصتها، ما يكفي من المال لسفرها إلى فيلادلفيا. ومن هُناك، كان من المُقرر أن تتوجه إلى نيويورك للبقاء هُناك حتى تكون جاهزة للإبحار إلى مصر.

ولكن قبل أن تُغادر مؤتمر التبشير، عانت من نكسة أخرى. كانت واحدة من الأحداث الصغيرة الغريبة التي شكلت مُستقبلها. كتبت عن ذلك في مُذكراتها: "لقد رافقت السيد برلسفورد إلى القطار وعندما كان يشتري تذكرته، اكتشف أنه لم يكن لديه ما يكفي من المال للرحلة الطويلة المُقبلة. قلت بسُرعة: "آه، يُمكنني أن أسمح لك بذلك".

كان عليها أن تبتسم عندما فكرت في الأمر لاحقاً، ولكن عندما انطلق قطار المُرسل، وحسبت النقود اللازمة لأُجرتها، شعرت بالإحباط الشديد عندما اكتشفت أنها تُعاني من مُشكلة أجرة القطار.

قال الموظف بلطف: "سيدتي الشابة، ليس لَديكِ ما يكفي من المال هُنا لشراء تَذكرَتكِ إلى فيلادلفيا". ثم أضاف، على ما يبدو أنه شعر بضيقها، "أنا آسف. هل أنتِ وحدِك؟" نظرت إليه لِلِيَّان بنظرة عابسة، مُبتسمة، "أنا لست وحدي أبداً. "أبداً!" هز موظف السكة الحديد رأسه، "ومع ذلك، ليس لديكِ ما يكفيكِ هُنا لدفع أجرة السفر إلى فيلادلفيا. "تردد." ربما أستطيع مُساعدتكِ". لم يكن صوته ناقداً، لكن لِلِيَّان كانت تعلم أنه رآها تُعطي المُرسل المُسن بعضاً من أموالها. من الواضح أنه لم يستطع أن يفهم كيف يُمكن أن تكون حمقاء إلى هذا الحد الذي يجعلها تتخلى عن أموالها عندما كانت تعلم أنها ستحتاجها لأُجرتها الخاصة. كان يتحدث معها الآن مرة أخرى. هل تقبلي المبلغ الصغير الذي تحتاجيه مني؟ قرض شخصي، أو هدية؟

شكرته لِلِيَّان لكنها رفضت. "إلى أي مكان يُمكنني أن أذهب بهذه الأموال؟" سألت. بحث، ووجد أنها تستطيع الوصول لهاريسبرج ويتبقى لها دولار واحد.

فجأة، أشرق وجهها. "إذن أعطني تذكرة لهاريسبرج!"

تذكرت لِلِيَّان الآن، أن سيدة أعطتها عنواناً في هاريسبرج، وأخبَرُتُها إذا قادتها الظروف إلى تلك المدينة، فيجب أن تأتي لزيارتها في منزلها.

كان ليلاً عندما وصلت إلى هاريسبرج واستغرق الأمر بعض البحث قبل أن تجد عنوان صديقتها. أخذوها رغم أنها لم تكن مُتأكدة من مدى سعادتهم برؤيتها القريبة. أثناء إقامتها، طُلب منها إلقاء كلمة في قاعة الإرسالية، لكن لم يعطيها أحد أية أموال.

عندما جاء يوم الجمعة، أخبرت مُضيفتها أنها ستذهب إلى فيلادلفيا بعد ظهر اليوم التالي. يوم السبت في الموعد المُحدد، أخذها صاحب المنزل إلى محطة القطار. عندما اقتربوا من مكتب التذاكر، سأل لِلِيَّان "هل أعددت نقود أُجرتكِ؟" ابتسم لها بلطف. نظرت لِلِيَّان إلى مُضيفها بحزم، ودرست وجهه وتساءلت عن رد فعله. لم تستطع أن تمنع نفسها من تذكر مُحادثاتها المُبكرة مع القس برلسفورد عندما عَلَمَ بحلمها العظيم وجيبها الفارغ. هل خمن هذا الرجل أنها لا تملك مالاً؟ ردت ببساطة: "لا، ليس لدي المال لدفع أُجرتي. الحقيقة هي أنني لا أملك أي مال على الإطلاق".

استدار الرجل بحدة وحدق فيها. وأخيراً، تنهدَ: "أنت شابة رائعة جداً". كان هُناك وقفة طويلة، ثم: "بالطبع، سأكون سعيداً لشراء تذكرتك إلى فيلادلفيا. لكن هل تتوقعين الوصول إلى مصر بهذه الطريقة؟ بلا مُقابل؟"

ابتسمت لِلِيَّان عندما سمعت هذا. "سيضمن الله وصولي إلى مصر. كما ترى، فهو يهتم بذلك حتى الآن".

من فيلادلفيا ذهبت إلى مدينة نيويورك ووصلت إلى إرسالية البشارة السعيدة في وقت مُتأخر من ليلة السبت الحارة والرطُبة في يوليو ١٩١٠. أثناء إقامتها، تمت دعوة لِلِيَّان للتحدث في هيئات وكنائس مُختلفة. بدا أن أولئك الذين سمعوها قد فهموا رويئتها وسُرعان ما جمعوا أربعين دولاراً. بعد ذلك توجهت إلى مكتب سفريات توماس كوك آند صن. قيل لها إن تذكرة السفر إلى أسيوط - مصر ستُكلف حوالي مئة دولاراً. لذا دفعت أربعين دولاراً لتأمين مكانها، وكتبت إلى أسرتها لتُخبرهم أنها ستغادر عندما تبحر السفينة في الثامن من أكتوبر.

لم تتلق رداً فورياً من والديها. لكن أختها الكبيرة - جيني - كتبت على الفور من منزلها في لونج بيتش بكاليفورنيا: استخدمت جيني مكاسبها ككاتبة اختزال في تلك المدينة لشراء كوخ صغير لنفسها. ثم زَرَعت حدائق زهور جميلة وأضافت أكواخاً للإيجار حتى حصلت على دخل مُستقل، بالإضافة إلى راتبها ككاتبة اختزال. ابتسمت لِلِيَّان عندما قرأت رسالة جيني. شعرت أن أختها الكبيرة والحبيبة، التي كانت خجولة جداً بحيث لا تخرج من منزلها في الظلام، أنها يجب أن تذهب مع أختها الصغيرة ... شهقت لِلِيَّان بدهشة: "... إلى مصر!" عندما بدأت في قراءة الرسالة، اعتقدت أن جيني ربما كانت تتوقع أن تأتي إلى بنسلفانيا وتذهب معها إلى مدينة نيويورك حيث ستسافر لِلِيَّان بمفردها إلى مصر. قرأت الرسالة مرة أخرى. كتبت جيني أن لِلِيَّان قد تمرض، ولن يكون لديها أحد لرعايتها. كم كانت هذه الرسالة تُشبه جيني. واصلت قولها إنها ستُساعد لِلِيَّان في الحصول على ما تُريد، لكن لِلِيَّان أصرت على أن الرسالة ليست لها. بعد أن تستقر الأمور، سأعود إلى أمريكا.

عزيزتي جيني، كتبت لِلِيَّان. "سأكون مسرورة بصُحبتكِ".

ولكن لم يكن من المُمكن إرسال الرسالة لعدة أيام لأن لِلِيَّان لم يكن لديها طابع بريدي، أو المال لشراء طابع واحد. ومع ذلك، في يوم من الأيام زارت هيئة شارع ٤٢ ورأت طابعاً على الأرض.

عندما سلمته للسيدة أليسون التي كانت مسؤولة عن الهيئة، قالت، "إنه ليس لي؛ يجب أن يكون لكِ".

حسناً، بما أنه ليس لي، فلا بد أن يكون للرب، ضحكت السيدة أليسون. "وربما يُريدك الرب أن تحصلي عليه".

أرسلت لِلِيَّان الرسالة إلى جيني.

وأخيراً جاء شهر أكتوبر. يوم آخر وحان وقت وصول جيني إلى نيويورك. شعرت لِلِيَّان بالمرض حقاً عندما بدأت تفكر في مُقابلة أختها، دون أن يكون لديها الستين دولاراً المُتبقية والتي تحتاجها لرحلتها. ثم، حدث شيء آخر غريب، والذي بدا في حد ذاته أنه يُشكل الآن، نمط حياة لِلِيَّان، بينما بقيت في المنزل للراحة. كانت نائمة بشكل خفيف عندما أيقظها طرقٌ على الباب. شقت طريقها بتعب إلى الباب، وفتحته لتجد امرأة غريبة على السلالم. بدا الأمر وكأنه حُلم أكثر من كونه حقيقة بالنسبة لِلِيَّان.

"هل يُمكنني الدخول؟" كان الصوت حريصاً، وكانت العيون ثاقبة، ومُتحركة، وكانت نظراتها ثابتة للغاية. عندما فتحت لِلِيَّان الباب، دخلت المرأة وبدأت بهدوء وبحث في طرح الأسئلة. ما هي خطط لِلِيَّان؟ ماذا تُريد أن تفعل في مصر؟ كم ستحتاج من المال؟

دون إنذار سابق، ركعت المرأة الصغيرة المجهولة بجانب الأريكة وأغلقت عينيها. وبدأت تشكُر الله على توفير احتياجات لِلِيَّان. كانت لِلِيَّان في حيرة من أمرها. لم تلمح السيدة التي زارتها لأي فكرة عما تعنيه. ثم وقفت وفتحت محفظتها وسلمت لِلِيَّان ستين دولاراً وغادرت دون كلمة أخرى.

"شُكراً لكِ، شُكراً لكِ!" حاولت لِلِيَّان استدعاء زائرتها مرة أخرى للتعبير عن تقديرها. لكنها غادرت بنفس السُرعة التي

جاءت بها. "شُكراً لكِ، شُكراً لكِ!" كانت لِلِيَّان تتحدث إلى ربها. لديها الآن المبلغ المُحدد الذي تحتاجه لسفرها إلى مصر.

سأكون جاهزة الآن عندما تبحر السفينة في الثامن من أكتوبر.

سأكون جاهزة الآن لمُقابلة أُختِ جيني في اليوم التالي.

في تلك الليلة تمت دعوتها لإلقاء كلمة في إحدى الهيئات وأُعطيت خمسين دولاراً. ثم أعطاها شخص آخر المزيد بعد الخدمة. بلغ إجمالي المبلغ سبعين دولاراً فوق المبلغ المطلوب لرحلتها. وضعته بعناية بعيداً كاحتياطي.

كتبت في مُذكراتها تلك الليلة: "سيُدبرُ إلهي كل احتياجاتك".

كانت مُناسبة سعيدة عندما صعدت هي وجيني على مُتن السفينة. قال أحد أفراد مجموعتهما: "لماذا لا تفتحين كتابكِ المُقدس وتقرأين أول آية تقع عيناكِ عليها؟"

ابتسمت لِلِيَّان، لكنها أغمضت عينيها وفتحت كتابها المُقدس. كانت أول آية تراها - لم تُلاحِظِها من قبل: "لقد رأيت، لقد رأيت، مشقة شعبي الذي في مصر، وسمعت أنينهم، ونزلتُ لإنقاذهم: والآن هلُما فأرسلُكَ إلى مصر".

سجلت لِلِيَّان في مُذكراتها تلك الليلة، "بهذه الطريقة الواضحة، وضع الله ختمه النهائي على دعوتي".

أدركت لِلِيَّان الآن أنها يجب أن تكون في مصر إلى الأبد.

لِلِيَّان (يسار) واختها- جيني (يمين) في نيويورك بالولايات المتحدة في أكتوبر ١٩١٠ قبل أن يركبوا السفينة التي ستأخذهم إلى مصر

الفصل الخامس

وصول لِلِيَّان إلى مصر

نزلت لِلِيَّان عند الفجر من سريرها على مُتن سفينة إس إس برلين بهدوء حتى لا تُزعج أختها النائمة. لن تنسَ أبداً هذا التاريخ، ١٠ نوفمبر ١٩١٠. ارتدت ملابسها، وارتدت سترة دافئة، وصعدت إلى سطح السفينة. بفارغ الصبر، بحثت بعينيها عما إذا كانت تعلم أنها مصر. لم يمض وقت طويل حتى رأتها. لقد نما الخط الصغير على الأفق أكثر فأكثر أمام عينيها الباحثتين. تضخم بشكل غير محسوس، تقريباً. لكنه تضخم. على الرغم من أنه كان باهتاً وبعيداً، إلا أن ميناء الإسكندرية الشهير بدأ يتخذ شكلاً ضبابياً. كان شكلاً من قصة خيالية مُباشَرَةً من كتاب قصص قديم. وبينما تضخم الميناء القديم إلى حجمه الكامل، لمحت لِلِيَّان قارباً مزدوج الشراع يطفو برشاقة على أحد الجانبين. ثم آخر. وآخر. عرفت لِلِيَّان أنه كان موسم الخريف، وقت الحصاد في مصر. سينتهي عام ١٩١٠ قريباً. لكن بالنسبة لِلِيَّان، كان نهاية العام مُجرد بداية. كان العام بأكمله بداية. لأن التحدي الذي قادها إلى مينائه، إلى هذه اللحظة يكمن في العالم القديم والجديد والغريب. بالرغم من أن تاريخ الحضارة المصرية كان قديم، بل من قديم الزمان، قبل قرون من ولادة المسيح، إلا أنه كان جديداً بالنسبة لِلِيَّان مثل هذه اللحظة التي اكتشفته فيها. وكانت مُستعدة للاكتشاف.

نظرت إلى الأسفل نحو المياه. كانت مياه البحر الأبيض المتوسط اللطيفة المُتدفقة تقترب من السفينة. آخرون تجمعوا حولها، من أجل رؤية هذا الميناء الشهير الذي أسسه الفاتح

الإسكندر الأكبر، قبل أكثر من ثلاثمائة عام من ولادة المسيح. مثلها، افترضت لِليَّان أنهم قرأوا تاريخ هذه الأرض قبل أن يأتوا، ويعرفوا أن هذا الميناء القديم كان جديداً نسبياً مُقارنة بالمُدن الأخرى في مصر. وقفت الآن جيني بجانبها، وهي تبتسم ابتسامة قاتمة بعض الشيء، كما فكرت لِليَّان.

"أليس هذا المكان جميلاً؟" سألت لِليَّان أختها الكبيرة، هزت جيني رأسها. "جميل كما تُريدينه أن يكون"، استنتجت ببساطة. فجأة التفتت بابتسامتها القديمة المألوفة. "أُحبها إذا فعلت ذلك ذات الليلة". تنهدت: "الأمر فقط ان هذا المكان بعيداً جداً عن منزلنا في امريكا". رأت لِليَّان جيني تمسح الدموع بسُرعة من عينيها، وتنظر في الاتجاه الآخر. مرت لحظة، ثم عانقت لِليَّان أختها الكبيرة وقالت بلطف، وبحنين، تتحدث الآن عن أرض مصر القديمة والتي هي أمامهم بدلاً من جيني: "إنها منزلنا. إنها وطننا".

اخترقت الشمس، المياه بدفئها العظيم، فأرسلت أشعة من الانعكاس. كان الدفء نوعاً من الترحيب به. بدا الميناء الشهير وكأنه يُحيط بهم الآن، إنه ميناء جميل ومُتعدد الطبقات يدعو إلى الإقناع، ويداعبهم بكل سحر وساحر قديم وفاتن. كان هذا "ميناء العودة الآمنة" للغزاة اليونانيين.

ولكن لم تكن الإسكندرية المكان الذي ستتجه إليه. ولن تكون كذلك أبداً. فبعدها كانت تعرف القاهرة الكبيرة الصاخبة، والعاصمة المصرية، ثم الأهرامات الحجرية العظيمة، وأبو الهول، ثم المنيا، وأخيراً ستصل إلى ما تعرف أنها ستنتمي إليها طوال حياتها – أسيوط، مصر.

ولم تشُك للحظة في مُستقبلها، ورغم أنها لم تكن تعرف ما هو عملها، إلا أنها كانت تعلم أن أسيوط، التي لا يطل عليها أي منفذ بحري باستثناء نهر النيل العظيم، هي ميناء عودتها الآمنة، لأن أسيوط هي المكان الذي طلب منها الله أن تلتقي فيه وبه إلى الأبد. ومُنذ أن عرفت ذلك، انتقلت من لحظة إلى أخرى، بإيمان كامل، تسمع وتسمع - تفعل فقط ما شعرت أنه من واجبها الوصول إلى هُنا لكي ما تتمّم هذا الوعد. تنهدت قليلاً، وهي تفكر في اللحظات المجهولة، والأيام، والسنوات القادمة.

"أنا سعيدة لأنك هُنا بالفعل يا رب." قالت بهدوء. نشأ ارتباك بين حشود السائحين الذين خرجوا من الباخرة. لكن شعوراً هادئاً لطيفاً بالمعرفة سيطر على لِلِيَّان.

"ماذا قُلتِ، يا ليل؟" بدا صوت جيني حزيناً وبعيداً. ثم أصبح بوضوح ولطف أكثر. "ما الأمر، يا عزيزتي؟" شعرت لِلِيَّان بشيء دافئ وناعم يضغط على شفتيها. أجبرت أفكارها بسُرعة في العودة إلى أختها عندما أدركت أن جيني كانت تضغط بمنديل نظيف على شفتيها. "إذا كان هُناك غُبار، فستحتاجين إليه، ليل".

هزت لِلِيَّان رأسها ببطء لترُد ابتسامة أختها الحبيبة بعينيها. ولم تُلاحظ الغُبار في الهواء. إن هذا مثل جيني، كيف أنها تجد شيئاً صغيراً تفعله لتعزز من نظافتهم وراحتهم، حتى في مثل هذه اللحظة. كان الأمر دائماً كذلك: جيني، المُخلصة، واللطيفة والواقية، على الرغم من أنها تخشى غريزياً من سيطرة أي شخص؛ جيني، كان لديها شغف بالنظافة والنظام ولم تستطع تحمّل ذرة من الأوساخ فى منزلها أو على نفسها. (ذات مرة، قامت

بالضغط للتنظيف خلف أذني لِلِيَّان حتى اضطرت إلى مُعالجة المنطقة بالمرهم عند انتهاء الحمّام، وإطعام لِلِيَّان الحلوى لأيام كثيرة لتسكين ضميرها المُذنب). كانت جيني هادئة، وحلوة، ومُبتسمة تحب الأطفال بشغف، على الرغم من أنها لن تنجب أي طفل طوال حياتها. فجأة عادت أفكار لِلِيَّان إلى الأطفال في دار الأيتام للإيمان الذين بدا أنهم دائماً بحاجة إلى المزيد من الحُب والرعاية. كان الأطفال في دار الأيتام في حاجة ماسة إلى شخص مثل جيني، وذلك لغرض وحيد وهو الحُب. بالنسبة لِلِيَّان، بغض النظر عن حجم دار الأيتام، كان كل طفل شخصاً يحتاج إلى كل الحُب الذي يُمكنه الحصول عليه.

"إذا كان لدي دار للأيتام"، فكرت لِلِيَّان أثناء نزولهما على ممر المُشاة.... لكن فكرة دار الأيتام بدت بعيدة جداً لدرجة أنها تجاهلتها تماماً. كانت تعلم أن جيني أتت من الجانب البعيد من العالم من منزلها مع شقيقتها، ليس لأنها كانت مُلزمة بالواجب، ولكن لأنها كانت مُرتبطة بالحُب. كان هذا الحُب أقوى رابط على وجه الأرض. وضعت لِلِيَّان ذراعها حول جيني الآن، وعانقتها بسُرعة. وبينما فعلت ذلك، نظرت إلى بُعد لسماء مصر الزرقاء الصافية التي بدت أعلى من أي سماء رأتها من قبل.

سارعوا في النزول على ممر المُشاة مع الجميع، لكن لِلِيَّان لم تستطع منع بصرها من العودة إلى تلك السماء الجميلة بشكل لا يُصدق. سمعوا صوتاً مُلحاً ينادي فوق الضجيج: "ميس تراشر ميس تراشر!" كان الصوت يقترب. "ميس تراشر!"

التفتوا ليجدوا صاحب الصوت مُبتسماً ومُنحنياً. هل كانوا من الولايات المتحدة وكانوا ذاهبين إلى إرسالية القس برلسفورد

في أسيوط؟ كانت اللغة الإنجليزية للشاب المصري مُمتازة تقريباً. كانت ابتسامته صادقة. وأعجبوا به على الفور. أخرج رسالة مكتوبة بدقة.

صاحت لِلِيَّان عندما قرأت الرسالة. "كامل!" صافحته بحرارة': وهذه أختي جيني." كامل – كان مُساعد مُهم للأخ برلسفورد - جيني. شعرت لِلِيَّان بالارتياح والسعادة مثل جيني لرؤية الشاب المصري المُبتسم.

كانت رحلة صعبة، ولكنها مُثيرة للاهتمام والتي قاموا بها عبر المدينة ليركبوا القطار الذي سيأخذهم إلى داخل أسيوط. تمت الرحلة في سيارة مصرية قديمة وسوداء، عربة تجُرها الخيول ويقودها سائق فوقهم في المُقدمة. تم دفع الجزء العلوي للخلف، حتى يتمكنوا من رؤية التُحف القديمة الرائعة من حولهم. كان الهواء رطباً قليلاً، لكن الشمس كانت تندفع بشكل كبير من خلال ستارة الرطوبة، مُطالبة باهتمام واحترام الجميع لها. كانت شمس الصحراء العظيمة هذه هي القوة في مصر، التي دفعت لِلِيَّان وطاردتها واستنزفت قوتها، لكنها في نفس الوقت حملتها عالياً على أجنحتها المُلتهبة نحو هدفها. لكنها لم تكن تُدرك الآن، سوى قوة الشمس، والحشود المُتسارعة والمُزدحمة تحتها. درست الأسواق المُزدحمة المليئة بالحياة: الحلاق المُتجول، بائع المياه المُحمّل بأكياس المياه المصنوعة من جلد الماعز. كانت لِلِيَّان تشعر بشوق عميق لأن تكون جزءاً من المشهد المُحيط بها. والأهم من ذلك شعرت بأنها يجب أن تواكب كل فرد في هذا المشهد. لا، ليس لمُجرد مواكبة الخطوات. كانت رغبتها الكبيرة هي أن تصبح مصرية ككل واحد منهم. كيف يُمكنها أن تفعل ذلك؟

بعد ساعة، نقل كامل أمتعتهم إلى القطار الأسود. نظرت لِلِيَّان إلى الوقت. كان لا يزال هُناك ساعة قبل مُغادرة القطار. بدأوا في المشي. فكرت: "ماذا عن هذه البلد، إنها تُشبه مدينة نيويورك تماماً!"

في الواقع، كانت كذلك. كانت المدينة الجديدة والقديمة أمامهم وحولهم كبيرة تماماً، ومباني معمِارية وجميلة. كانت مثل مدينة نيويورك أيضاً، في وتيرتها السريعة العصبية، والضوضاء والارتباك، والمتاهة المُختلطة من لُغات الشوارع حيث ملائها اليونانيون واليهود والفرنسيون والعرب والأميركيون والإنجليز، في طريق الجميع. كانت العديد من المباني من الطوب أو الجص، بشرفات فرنسية ونوافذ عالية وأفاريز من خُبز الزنجبيل. سمعوا صراخ وصيحات من حولهم في الشوارع، ورأوا طربوشاً أحمر يطفو وأردية طويلة فضفاضة باللونين الأسود والأبيض. على أحد الجانبين كان متسول أعمى يُنادي طالباً للمُساعدة بنبرة حزينة، وفي كل اتجاه كانت هُناك أيدي تلوح وعيون حادة. تجمعت حشود مُتشابكة من الناس وتفرقوا، وكأنهم يتلقون إشارة. كانت النساء اللواتي يرتدين ثياباً سوداء ويغطين أنوفهن يصطدمن بغزاره من رويتهم لِلِيَّان وجيني وكامل، لدرجة أنهم كانوا يتعرضون للاصطدامات العنيفة في كثير من الأحيان. وصلوا الآن إلى الشوارع القديمة. هل كانت شوارع؟ ام زقاق ملتوٍ ضيق مسدود... يا له من تناقض مع الجزء الحديث والجميل في الإسكندرية. كانوا يُسارعون بالعودة إلى المحطة، ليركبوا القطار الذي لا يزال يُدخن والذي كان يحمل رُكاب السُفن البخارية. هذا القطار الذي يعمل بالفحم سيأخذهم إلى القاهرة، ثم إلى أسيوط. لقد استقروا بأقصى

قدر مُمكن من الراحة على المقاعد الخشبية الصلبة لعربة الدرجة الثالثة.

كان الضجيج الهائل المُصاحب لرحيل القطار لا يُصدق تقريباً. من خلال النوافذ المفتوحة على مصراعيها، كان منظر الرُكاب المصريين وهم يتدفقون مثل انهيار جليدي عصبي نحو القطار مشهداً لن تنساه لِلِيَّان أبداً. كانت الحركة عنيفة وقاسية ومُضطربة ـ كان الرجال والفتيان يهرعون إلى النوافذ، ويرمون بسلال القصب التي يحملونها فوق رؤوسهم ويمرون بها عبر النوافذ إلى الرصيف المُختار، ثم يقفزون بخفة عبر النوافذ إلى تلك الأرصفة. وكانوا نشيطين للغاية في الرحلة، يمضغون قصب السكر الذي يأخذونه من سلالهم ويبصقونه، بعد أن يمزقوا بأسنانهم أغطية القصب. آه، كم كانت هذه المجموعة من الأشياء الموجودة في تلك السلال العربية هائلة: السكر، وقصب السكر، والمُدمّس (نوع من الفول يأكله المصريون كوجبة إفطار، كما أخبرهم كامل)، والنابوت، وهو خُبز مصري مُستدير مُسطح صلب، وملابس، ومُجوهرات. وكانت النساء المصريات يرتدين فساتين سوداء طويلة، وكان مُعظمهن يرتدين أساور فضية أو حديدية حول أحدي كاحليهن، وكان جميعهن يرتدين شالات سوداء على رؤوسهن وأوشحة صغيرة مُزينة بالشراشير على جباههن العُليا. وكان بعضهن يرتدين الحجاب. كان الرجال يرتدون أيضاً ملابس واقية طويلة تُسمى جاتو بياس، كما شرح لنا كامل، وقبعات سوداء من شعر الجمل. فوجئت لِلِيَّان بعدم وجود رجل عربي واحد في عربة الدرجة الثالثة هذه يرتدي طربوشاً. أبلغهم كامل أن الرجال الأكثر فقراً في مصر لم يرتدوا طربوشاً قَطْ.

غادر القطار المدينة في الغالب على جانب واحد، وتبع التلال الرملية التي مثل القناطر، تمنع البحر، ثم دار حول زاوية بحيرة مريوط التي أشار إليها كامل. ثم مر بأكواخ الطين المحلية التي تُعانق الشواطئ العُليا لنهر النيل، الذي يمتد بمُحاذاة ليس بعيداً عن خطوط السكك الحديدية. أخبرهم كامل أن الريف كان مُكتظًا بالسكان، لكن كان من الصعب إدراك ذلك، حيث كانت عائلات الفلاحين مُكتظة بكثافة في منازل قروية طينية صغيرة، حيث يزرع كل فلاح مساحته القريبة. يبدوا أن كل مُستأجر لديه فدان ويعرف كيف يحقق أكثر استفادة من كل شبر فيه. لقد أخبر كامل لِلِيَّان أن هؤلاء المُزارعين المُستأجرين كان يُطلق عليهم لقب "فلاحين"، يبدو أنهم كانوا مُجتهدون. وقد بدأت لِلِيَّان تحبهم، حتى قبل أن تتعرف عليهم.

وعلى الواجهة البحرية، شاهدوا قرية ذات أسطح مُسطحة وأزقة مُتعرجة ضيقة، وكلاب مُتوحشة المظهر تتجول في كل مكان، على ما يبدو بحثاً عن عظام. كانت الأكواخ الكئيبة بلا نوافذ، وكئيبة ومُتدلية - كما شرح كامل، مبنية من طين نهر النيل. كانت أعواد القطن وسيقان الذرة مُكدسة على أسطح المنازل المُسطحة، وبعض الأكوام، مرة أخرى، بارتفاع الأكواخ. كان المنظر القاسي يُخفف إلى حد ما من جمال أشجار النخيل الطويلة والرشيقة التي بدت وكأنها تنمو بكثرة على طول الوادي. ليس بعيداً جداً عن القرية الصغيرة، على جانبي حقول الأُرز المزروعة بشكل جميل. ثم المزيد من الحقول المُسطحة والخضراء التي لا تزال مليئة بالبرسيم والذُرة. قال كامل: إن هُناك ثلاثة مواسم للزراعة بعد حفر المزيد من قنوات الري قبل ستين عاماً. يصبح الجو بارداً جداً هُنا، في الجزء الأخير من

ديسمبر ويناير وفبراير، وكانت الليالي، على وجه الخصوص، تزداد برودة في الشتاء عندما تغُرب شمس الصحراء.

انحنت لِلِيَّان إلى الأمام، مُتوترة لرؤية طريق القناطر أعلاه. كان هُناك طريق على سد نهر النيل يتحرك عليه مُوكب مُتواصل من الرجال البرونزيين الوسيمين والعضليين، يمتطون الحمير ويتبعهم نساء بدينات مثل أشباح جميلة ترتدي ثياباً داكنة، يمشين ببطء ومثل الملكات في ثيابهن السوداء المُتدلية. كان المشهد غائماً بضباب ذهبي لامع، يضغط على الدلتا من الصحراء المارقة الوحشية التي بدت وكأنها تتنفس بحرارة أسفل عُنق وادي النيل الطويل النحيل. ارتجفت لِلِيَّان. ماذا سيحدث إذا لم يكن هُناك نهر يتدفق عبر هذه الصحراء، ويُعطي الشعب المصري هذا الوادي الخصيب بشكل لا يُصدق؟

"ماذا سيحدث إذا لم يكن هُناك نهر؟" سألت كامل، وهي تراقب قوارب الصيد، وعجلات على حافة المياه التي تُديرها الجواميس، والتي تُدير الجرار بشكل إيقاعي ومنهجي على القنوات لري الحقول.

ابتسم كامل بتساهل. "سيدة لِلِيَّان، لن يجف النيل. لن ينضب أبداً. تتسبب أمطار إثيوبيا في فيضانات مياه النيل الأزرق الهائلة والهائجة كل عام. تبدأ المياه في الارتفاع في يونيو، وتستمر حتى سبتمبر. كلما زادت الأمطار بعد سد أسوان في الجبال، ارتفع النيل هُنا، وزاد ثراء الطمي الذي يترُكه لتخصيب مزارع وادي النيل".

أشار كامل إلى الحقول المحفوظة جيداً. قال بفخر: "الفلاح مُزارع جيد. إنه يعرف كيف يحصل على الأفضل من كل ذرة من تُربته". بعد فترة، مروا بفلاح مصري يعمل في الشادوف؛ الذي

قال كامل إنه كان البديل عندما لم يكن هُناك عجلة مائية أو جاموس لسحب مياه النهر: كان الشادوف مصنوعاً من عصا طويلة مربوطة بصخرة ثقيلة في أحد طرفيها للتوازن، ومثبتة على الأرض بعصا أخرى مشقوقة في الأولى. وباستخدامها، يستطيع الفلاح ببطء وصبر سحب المياه لري محاصيله.

"لقد كانوا يُستخدموا هذه الأساليب - الشادوف، وعجلة الماء، وجاموس الماء - مُنذ أيام موسى"، قال كامل بثبات. "إن أسلوب حياته بالكامل هو الاستسلام. لقد استسلم لهذه الطريقة في الحياة. قد يكون كذلك إلى الأبد". شعرت لِلِيَّان بعُمق لحب هذا الرجل العاطفي لشعبه.

"ستُصدمين من الطريقة التي يعيش بها الفلاح وعائلته، ميس لِلِيَّان"، تابع. "لم تتغير ظروفه وعاداته مُنذ آلاف السنين. ومن المشكوك فيه أنه يتغير الآن".

"كل شيء مُستطاع عند الله"، قالت لِلِيَّان بحزم. ابتسمت وهي تتذكر. "وإلا لما أكُن أنا هُنا".

هز كامل رأسه بحزن. "آه، ميس تراشر، ربما لم يكُن الله في كوخ الفلاحين". وتابع بنبرة كئيبة. كان الفلاح وعائلته يعيشون في أكواخ مُنخفضة بلا نوافذ مصنوعة من طين النيل، في غُرف صغيرة مع الماعز والأغنام والدجاج والحمام والجاموس - أنه محظوظاً إذا كان يملك واحد منها. أرضية كوخه ترابية. في هذه الغُرف كان يتم خض الزُبدة، تجهيز الحليب لبيعة في السوق، على الرغم من أن عائلة الرُجل لم تكن تحصل عادةً على استخدام هذه المُنتجات لأنها كانت مُضطرة لتناول أطعمة أرخص، وعادة ما تكون حبوباً. توقف كامل فجأة وأغلق عينيه. "الفلاح المسكين

هُناك - ليس لديه فرصة للارتقاء فوق فقره. لقد ظل في جهل لقرون لا حصر لها".

"فرصته مع الله"، قالت لِلِيَّان ببساطة، وهي تحدق من النوافذ الآن على مجموعة من الفلاحين يُكافحون لبناء قناة جديدة من النيل لجرف صخر كهفي. بدت المُهمة هائلة، مُستحيلة تقريباً بالنسبة لجماهير الفلاحين الذين يعملون هُناك بدون أي آلات حديثة. أخبرت لِلِيَّان كامل بذلك، لكن المصري هز رأسه فقط. "تذكر، لقد كانوا يفعلون هذا بنفس الصبر والاستسلام مُنذ فترة طويلة قبل موسى. فكر كم من الوقت كانوا يطورون هذا الاستسلام". توقف. هل سمعت، سأل كامل، عن القول العربي القديم؟

قال العقل، أنا ذاهب إلى سوريا.

قال المُتمرد، أنا ذاهب معك.

قال الفقر، أنا ذاهب إلى الصحراء.

قال المُتمرد، أنا ذاهب معك.

قالت الوفرة، أنا ذاهب إلى مصر.

قال الاستسلام، سأكون معك.

اتجه نظر لِلِيَّان الآن، نحو السماء. كانت غارقة تقريباً في الجمال الشديد والبعيد المدى فوقها. فجأة، حدقت في دهشة. كانت السماء ذهبية! التفتت إلى كامل. علم بأسئلتها. الذهب في السماء؟ ابتسم ابتسامة عريضة، ونظر إلى الأفق، وفوقه إلى الامتداد الذهبي العظيم. لأن السماء كانت ذهبية بالفعل.

واضح أن الأمر عادة ما يكون على هذا النحو فقط في الربيع عندما تهُب الرياح الخمسينية من الجنوب الغربي في مارس، جالبة معها بعض غُبار الصحراء. تستمر الرياح الخمسينية لمدة خمسين يوماً، بشكل عام. الآن، نعم، خمن أن القليل من رمال الصحراء هو الذي يُسبب الضباب الذهبي، على الرغم من أنه كان شهر نوفمبر.

نظرت لِلِيَّان إلى جيني، التي كانت ترتجف بشكل واضح. كيف ستتصرف أختها الكبيرة، التي لا تستطيع تحمل ذرة غُبار في أي مكان، في هذه الأرض حيث يبدو أن السماء مُغطاة بالرمال؟ ولكن إنها تأتى فقط في أوائل الربيع.

تحت روعة السماء المصرية، تقع الآن أسيوط، مُتواضعة في امتداد عريض غني لوادي أخضر عند سفح تل محمي. كان هذا هو تل النساك، أشار كامل بهدوء.

كانت جميلة بشكل لا يُصدق - تلك النظرة الأولى. كان في كُل مكان بساتين النخيل المُتمايلة - في الواقع، كانت أشجار النخيل الضخمة تشكل جداراً ضخماً من اللون الأخضر مُقابل السماء.

تمتم كامل لنفسه: "لا يوجد في أي مكان في مصر كلها مثل هذا المنظر الأخضر"، كانت هذه هي الصورة التي رأت لِلِيَّان أمامها الآن. على مدى أميال بعد أميال، كانت النفقات الضخمة تتكشف، ولا تُميزها سوى القرى الطينية الصغيرة التي ظهرت كآثار أقدام صغيرة موحلة على السجادة المورقة لوادي النيل. أغمضت لِلِيَّان عينيها بالدموع. أسيوط، ذروة كل ما رأيته أو شعرت به حتى الآن. بدت لها المدينة القبطية جميلة جداً، لدرجة أن لِلِيَّان اعتقدت للحظة أنها ربما ارتكبت خطأً فادحاً ووصلت إلى

مكان خاطئ في العالم. كيف يُمكن لمثل هذا المكان الجميل أن يحتاج إلى مُساعدتها؟

فوق مدينة الوادي، على التل، كانت هُناك مدينة أخرى بدون أشجار نخيل أو مدخل. أرض صخرية جبلية مُمتدة إلى أعلى. كانت هُناك أسقف مُقببه بيضاء مثقوبة ومنحوتة بدقة بحيث تشبه كرات الدانتيل. كانت تُحيط بها آلاف الألواح الحجرية المُستطيلة البسيطة، ثم المزيد من المآذن الدانتيلة، بيضاء ومُمتازة، وجميلة بشكل أثيري في ضوء الشمس.

"عفواً، ميس لِلِيَّان. إنها مدينة الأموات في أسيوط"، قال كامل بهدوء "أعتقد أنكم تُسمونها مقبرة".

وخلف ذلك رأوا مدينة الأحياء، كبيرة وجميلة وجذابة. "لقد كانت أسيوط لقرون عديدة من بين المُدن التي اضطهدت بني إسرائيل في أيام موسى"، هكذا قال. ثم تابع حديثه وكأنه طفل يروي درساً. فعندما أسس القديس مرقُس أول كنيسة مسيحية على الشاطئ بالقرب من الإسكندرية، قبل آلاف الأقباط وعد المسيح بالحياة بعد الموت، وعدلوا من احتفالاتهم لتتلاءم مع التعليم المسيحي. قال كامل: "إنهم أقلية. فمصر اغلب تعدادها مُسلمين".

رأت لِلِيَّان الآن في الطريق أربعة جمال وحِمارين ومجموعة كبيرة من الأطفال، كلهم مُثقلون بالأحمال. كانوا يسيرون ببطء أمام رجل وزوجته، وينقلون أمتعتهم الدنيوية. في لحظة واحدة، استطاعت أن ترى عن بُعد لدرجة أنها اعتقدت أنها رأت نظرة بعيدة تكاد تقترب من الرُعب على وجوههم. ثم مروا. وفي وقت لاحق، رأت فتاتين صغيرتين على ضفة النهر ترتديان تنورتين سودتان، وصبي يلهث ويسحب جملاً ضخماً، مُحاولاً أن

يوصله إلى مياه القناة القريبة. في كل مكان نظرت إليه، كانت الأرض مُنخفضة ومُسطحة وكانت السماء ذهبية جميلة تُعانق السجادة الخضراء المُنخفضة. وعلى النيل رأوا المزيد من القوارب الشراعية المُزدوجة - الفلوكات، كما أخبرهم كامل - مُحملة بشكل كبير، ولكنها رشيقة مثل طائر أبيض كبير مُجنح قادم من مسافة بعيدة. لن تنسى لِلِيَّان أبداً رؤيتها لهذا. خلف الفلوكات الرشيقة، تلاشى النيل العريض أمام سماء أواخر المساء، ثم يلمع باللون الوردي والقرمزي ويختلط ويتضاءل عندما يلتقي بالضباب الذهبي لأفق الصحراء. توقف القطار الآن: همس كامل: "أسيوط"، "أسيوط! أسيوط! أسيوط!" شعرت لِلِيَّان بأنها على وشك البكاء.

لقد مرت الأيام التالية كحُلم مُثير وحيوي. كان المُرسَلين في أماكنهم أثناء تناول وجبة العشاء... والكلمات العربية التي ظلوا يتداولونها حتى تتمكن لِلِيَّان من تعلمها... أثناء تناول الطعام بشراهة، قال أحدهم من فَضلِك أعطني البصارة، فأجابت لِلِيَّان "كوايس"، والتي اعتقدت أنها تعني "حسناً" رغم أنها لم تكن مُتأكدة تماماً. لقد أُعجبت بشكل خاص بالمرأة الطويلة والنحيلة التي جلست بجانبها - السيدة فريند، التي ساعدت في الإرسالية مع زوجها الطويل ذو الشعر الأبيض. كانوا هم أيضاً مُرسَلين أمريكيين. قضت لِلِيَّان مع عائلة سيلا فريند، ساعات مُمتعة ومُفيدة. تعرفا السيدتان معاً على مدينة أسيوط، من خلال الشوارع الجديدة المليئة بأشجار النخيل ومن خلال الأقسام القديمة في المدينة. في كثير من الأحيان كانت تأخذان كامل لتفسير اللغة القديمة والجديدة والغريبة لهما، وزارتا الأسواق، أو ذهبتا لزيارة أصدقاء سيلا المصريين الذين رحبوا بهما بحفاوة وكانوا دائماً،

كما وجدت لِلِيَّان، مُضيفين مُمتازين. واصلت لِلِيَّان دراستها المُكثفة والمتواصلة للغة العربية في الإرسالية.

مرت الأسابيع، وكبرت معرفتها بشكل كامل، وتعلمت لِلِيَّان الكثير عن الشعب المصري من خلال زيارتها لهم. كم كانوا كرماء! فقد قدموا لها العشاء أكثر من مرة عندما ذهبت لزيارة أسرة فقيرة جداً، لتكتشف فيما بعد لدهشتها أنهم ذبحوا آخر دجاجة لديهم ليقدموا لها وجبة وفيرة. كم كانوا يحبون أطفالهم! زارت لِلِيَّان أُماً شابة (بالنظر إلى وجهها الطفولي كان من الواضح أنها لم تكن أكبر منها) ورغم أنها كان لديها بالفعل ثمانية أطفال وتعيش في فقر كامل، إلا أنها كانت تتوقع طفلها التاسع في غضون أسابيع قليلة وكانت سعيدة جداً بهذا الاحتمال. قالت سيلا: "الأطفال هم أعظم سعادة للمرأة المصرية الفقيرة. ليس لدى الأم المصرية الفقيرة أي شيء - لا شيء على الإطلاق سوى أطفالها. كم تحبهم حقاً! وعندما تجد أنها ستنجب طفلاً آخر، حتى لو أنجبت عشرة أطفال آخرين، فإنها تكون سعيدة جداً".

وصل الشتاء إلى أسيوط. أصبحت الليالي باردة. وعندما اختفت شمس الصحراء في المساء، بدأ برد الليل على الفور. ارتجفت لِلِيَّان وجيني وتجمعتا معاً على مرتبة القطن الصلبة التي شاركتاها، مُحاولتين تدفئة أحدهما الآخر. وبينما كانت مُمتنة بشدة لوجود أختها معها، شعرت لِلِيَّان بشدة المصاعب والوحدة التي كانت تعيشها جيني في أرض اجنبية وغريبة عنها. غالباً ما كانت تسمع جيني تبكي بهدوء في الليل، لكنها كانت تعلم أنه من الأفضل عدم ذكر هذا الأمر. كانت تعلم أن جيني تُفضل عدم إخبار أي شخص بمدى وحدتها في هذه الأرض البعيدة. لم تكن جيني ترغب في أن تصبح مُرسَلة. كانت لِلِيَّان تعلم أن أختها تنتمي إلى منزلها

في لونج بيتش، كاليفورنيا. لقد جاءت جيني فقط لأن لِلِيَّان أتت، ولأنها أحبت أختها الصغيرة والجريئة. ابتسمت لِلِيَّان في الظلام، ووضعت ذراعها حول أختها النائمة. كم كانت رحلة الحُب هذه تُشبه جيني. جيني، التي لم تكن لتخرج في الظلام من منزلها بكاليفورنيا، جاءت حول العالم لمُحاولة حماية أختها بحُبها.

كانت جيني عظيمة حقاً، فكرت لِلِيَّان. كانت عظيمة في طرق الحُب. وأي عظمة أعظم من هذا؟ كيف سيكون العالم بدون جيني؟ إذا لم يكن هُناك من يُشبه جيني، التي كان لديها الوقت للحُب بألف طريقة صغيرة، فما قيمة لِلِيَّان، التي تجرأت على أن تكون جريئة ولا تعرف الخوف؟ تنهدت، وحضنت أختها الكبيرة في الظلام، وراحت في النعاس والنوم، ولا تزال تُعانق بلطف الشخصية العزيزة التي بجانبها.

مُامْا لِلِيَّان (شمال) واختها جيني (يمين) في ١٠ فبراير ١٩٦١، ٥٠ عاماً مُنذ قبول أول طفلة

الفصل السادس

قبول لِلِيَّان لأول طفلة

في وقت مُتأخر من أحد أيام الأحد بعد الظهر في فبراير ١٩١١، بعد أكثر من ثلاثة أشهر بقليل من وصولها إلى أسيوط، شعرت لِلِيَّان بإحساس غريب من الخوف. لم تستطع تفسيره. لذلك، لم تذكره. كان هُناك شعور بالموت في ذلك اليوم. صرخة كئيبة للريح نفسها وعويل الصمت فيها. ومع ذلك، كانت لِلِيَّان تعلم أنه لا يوجد صوت هُنا في الهيئة باستثناء أصوات المُرسَلين. هل كانت شمس الصحراء الشرسة تدفعها إلى فقدان توازنها؟

تومض الألوان الوردية الرائعة للشمس المُتأخرة عبر النوافذ الصغيرة، وترش ضوءاً قزحياً على رؤوس البشر الذين يتناولون عشاءهم، ثم تطعن وترقصُ بشكل مُتقلب على طاولة الطعام الكئيبة. في سخرية، فكرت لِلِيَّان. عدم احترام. مثل هذا التهور في خضم الموت. حدقت في طبقها، وضغطت بيديها على عينيها. ما الذي يحدُث لي؟ في غضون ثوانٍ، عرفت لِلِيَّان - أن الظلام سيغلفهم. في البلاد الصحراوية هُنا، لم يكن هُناك شفقة. فقط سماء صحراوية حارة ومُشرقة، لا تكاد تلمسها سحابة أخرى غير سُحب الغُبار التي تحملها رياح الخماسين والتي تأتي في شهر مارس - والليل مُظلم وبارد وغامض، كما يُمكن أن تكون ليالي النيل هُنا. في ذلك المساء شعرت لِلِيَّان بإحساس رهيب بالترقب، والذي، إلى جانب شعورها الغريب بالخوف، كان أكثر إزعاجاً. تناولت على عجل الوجبة التي كانت تكره أكلُها كل يوم. وفجأة سمعت طَرقاً قوياً على الباب. قفزت لِلِيَّان على قدميها عندما فُتح الباب وتحدث صوت أجش مُتحمس، نصف باكياً، باللغة العربية

في اندفاع حاد مُتقطع، إلى المُرسَلين في الغُرفة. أخبرهم كامل، الذي كان يترجم بسُرعة، أن أُماً مصرية شابة تحتضر. هل يُمكن لأحد منهم أن يأتي بسُرعة؟ ألقت لِلِيَّان معطفها حول كتفيها قبل أن ينتهي كامل، وهرعت إلى القس برلسفورد عند الباب.

"دعني أذهب" توسلت. "من فَضلِك دعني أذهب". ألقى المُبشر الكبير نظرة خاطفة إلى سماء المساء المُتأخرة، ثم نظر إلى الشاب المُتوسل أمامه، ثم إلى لِلِيَّان. "حسناً - حسناً"، قال بتردُد. "سيذهب كامل كمترجم والسيدة فريند". أومأت سيلا فريند برأسها بسُرعة وأخذت عباءتها بينما سارعوا إلى هواء المساء البارد. التفتت لِلِيَّان وقَبَلَت جبيني بينما سارعت إلى الخروج. وبينما كانت تفعل ذلك، شعرت بجبيني تضع غطاء للرأس في يدها. "ارتديه يا عزيزتي"، سَمَعتهَا تقول بهمس.

سار الثلاثة أفراد بخطوات طويلة وسريعة، تابعين الشاب المحموم المُمزق الذي يُخمنون بأنه شقيق أو زوج الأم الشابة. قادهم الشاب عبر الفيلات الجميلة بجدرانها الضخمة المُزخرفة وأشجار النخيل الخلابة، ثم إلى قسم آخر، فقير ومُرهَق وقديم جداً. أخيراً، انحرف إلى مسار مُترب إلى مجموعة صغيرة من الأكواخ الطينية بالقرب من ضفة النهر. ساروا في الظلام لبضع دقائق أخرى، ثم توقف الشاب وأشار إلى باب كوخ صغير، بالكاد يُمكن تمييزه عن غيره من الأكواخ المُحيطة به. تبعتهم لِلِيَّان وسيلا فريند وكان كامل والشاب الموجودان بالداخل يحاولان يائسين لتعويد أعينهم على الداخل المُظلم الذي بلا نوافذ. أخيراً، تمكنت لِلِيَّان من أن تُميز بأن امرأة مُستلقية على بعض القش على أرضية عارية. وسُرعان ما ركعت إلى جانبها، ووضعت يدها على الذراع المُمددة التي ألقيت في التخلي الواضح عن الحياة نفسها.

ولدهشتها، فتحت الأم المصرية الشابة عينيها، ونظرت مُباشَرَةً إلى لِلِيَّان. "أرجوكي، أرجوكي" قالت بشفقة. همس كامل، كانت تقول: "من فَضلِكِ، من فَضلِكِ". لكن لِلِيَّان لم تكن بحاجة إلى مُترجم لفهم المرأة المُستلقية. تحدثت المرأتان، وفْهَمَتَا، بأعينهما. أم أن هذه الطفلة كانت امرأة حقاً؟

حدقت لِلِيَّان الآن في العينين اللتين استطاعت أن تراهما بوضوح لأول مرة. هذه المرأة على القش كانت بجانبها مُجرد طفلة. لم يكُن عمرها أكثر من خمسة عشر أو ستة عشر عاماً على الأكثر. تحولت العيون الآن للنظر إلى كائن في الزاوية المُظلمة. اخترقت صرخة حادة في الهواء. كانت ذراع ضعيفة. كان طفلاً صغيراً، مُستلقياً في حضن امرأة مصرية. نظرت لِلِيَّان إلى والدة الطفل الصغير على الأرض التي كانت تُحدق في الرضيع. سارت بسُرعة إلى الطفل، وانحنت لتلقى نظرة عليه، ثم تراجعت برُعب إلى الوراء. كان كل ما يُمكنها فعله هو منع نفسها من الجري خارج الكوخ البائس للهروب – إلى أي مكان تركض – لم تر هذا في كل أحلامها عن مصر، ولم تتخيل مثل هذا المنظر أبداً.

كانت الطفلة المُستلقية في حضن المرأة المريضة، نحيفة جداً حتى أنه بدا للوهلة الأولى وكأنه هيكل عظمي. كانت الرائحة التي تُحيط بالطفلة كريهة للغاية، لدرجة أنها تفوقت على رائحة الكوخ الكريهة، وكانت رائحتها كريهة جداً، لدرجة أن لِلِيَّان اعتقدت للحظة أنه سيُغمى عليها لأول مرة في حياتها. ثم، وهي تغمض عينيها، تذكرت: وجهاً مُبتسماً. كلمات. كلمات منطوقة بصوت ناعم وحلو، مألوف لدرجة أن لِلِيَّان توقفت لتسمع. "الرب يُحِبكِ، ويحُب كل شخص آخر في العالم يا لِلِيَّان، تماماً كما يحب إدوار وآنا". حدقت لِلِيَّان للحظة في وجه آنا ماسون في

برونزويك، جورجيا، ورأت القدر الأسود الكبير الذي يغلي الملابس ورائحتها - ليست الرائحة الكريهة من حولها - ولكن رائحة اللحم البقري المقلى الذي تقليه آنا ماسون في المطبخ ورائحة صابون الغسيل النظيف وصباح جورجيا العطر. رأت عيون صديقتها المُبتسمة والفهم الذي تعكسه. فتحت لِلِيَّان عينيها؛ نظرت إلى الطفلة مرة أخرى - لم يكن عمرها أكثر من ثلاثة أشهر - ابتسمت وهي تداعب عظمة ذراعها الصغيرة. لقد شعرت بالرُعب عندما رأت الطفلة تحاول شُرب الحليب من العلبة. نظرت بقرب. كان في الحليب خيطاً أخضر اللون بسبب تعفُنه. ومع ذلك كانت الطفلة الجائعة تحاول يائساً في شُربه.

فجأة غمرت الشفقة كيان لِلِيَّان في موجة قوية. مدت يدها برفق إلى الطفلة، التي بدأت الآن في البكاء. بين ذراعيها، تلاشت الصرخات الصغيرة ووجهت الطفلة عينيها الغائرتين إليها، وفمها الصغير يتجعد ويصدر أصوات المص وتوسل للرضاعة. امتلأت عيون لِلِيَّان بالدموع وشعرت أن شيكاتها تتبلل. سقطت دموع لِلِيَّان على وجه الطفلة وبدأ عويل الجوع الصغيرة المُرهقة الذي مزق قلب لِلِيَّان من جديد. لو كانت قد شعرت بالغضب المُبرر تجاه أولئك الذين كانوا جائعين، مثل الأطفال في مدرسة الآنسة بيري- فإن هذه الطفلة كان تموت جوعاً: كانت جائعة حتى الموت!

ببطء، وبحذر، انحنت لِلِيَّان وقبلت الطفلة، وهي ترى الآن سبب الرائحة الكريهة: كانت ملابس الطفلة مُخَيطَة بإحكام على جسمها. يبدو أن الأمر كان على هذا النحو مُنذ أن مرضت الأُم الشابة. مُنذ متى؟ لكن كم من الوقت لم يكُن مُهماً حقاً. عندما رفعت رأسها، كان هُناك صوت من القش على الأرض. لأول مرة أدركت لِلِيَّان أن والدة الطفلة قد شاهدت هذه المرأة الأمريكية

الغريبة تُحبُ طفلتها وتُبدي اهتماماً بها. أنها لغة عالمية، لغة حُب تنتقل بين المرأتين الآن. في ضوء القمر الباهت القادم من المدخل المفتوح، نظر كل منهما إلى الآخر، كل منهما تحاول أن تفهم على ما يبدو. "أرجوكِ، خُدِيها" قالت الأم الشابة لِلِيَّان، وقد أدركت ذلك بخوف مُرتجف. وباستثناء صراخ الطفلة، كان هُناك سكوت مُخيف يملأ ظلمة الكوخ. ومرة أخرى، شعرت لِلِيَّان بان الطفلة تحاول أن تلمس فمها بفمها، باحثة وباحثة وباحثة غريزياً عن الغذاء الذي يمنح الحياة من ثدي الأُم للرضيع. احتضنت لِلِيَّان الطفلة بقُرب، وشعرت بالعجز أكثر من أي وقت مضى في حياتها.

اقترب كامل ببطء بجانبها، وهو يهز رأسه سلباً /لا. قال بهدوء: "ميس لِلِيَّان، هل تعلمين ماذا قالت لكِ تلك الأُم الشابة قبل أن تموت؟" نظر كامل بعيداً، ثم نظر إلى سيلا فريند التي كانت تقف بجانب لِلِيَّان. "ميس لِلِيَّان، لقد أرادت منكِ أن تأخذي الطفلة معكِ إلى المنزل. أرجوكِ خُدِيها".

كان استحالة تلبية هذا الطلب واضحة لِلِيَّان، كما كان واضحاً لسيلا فريند وكامل الذي وقف في صمت. أحاط بهم حُزن ساحق شعرت به لِلِيَّان يتخلل حتى الظلام الدامس. لم يتحرك أو يتحدث أحد لفترة طويلة.

قال كامل أخيراً: "لا يوجد مكان لطفل صغير مريض في الهيئة". "الأخ برلسفورد، لن... حسناً، لا يُمكن أن يكون لديه مكان. لقد... "

أين ذهب الشاب... الشخص الذي أحضرهم إلى هُنا؟ زوج أو أخ... أياً كان، فقد اختفى في تلك الليلة.

تقدمت المرأة المصرية التي كان الطفلة ترقد في حُضنها وهي تُشير بعنف قائلة بالعربي المُتقطع: "من فرط صبرها على الطفلة". "أرما مِاريفيش ارمل أبيها!"

"تُريدنا أن نأخذ الطفلة" ترجم كامل. "تقول إنها لا تعرف ماذا تفعل بها". رفعت المرأة ذراعيها الآن. خطت نحو النهر الكبير، وبدأت تُحدق في الماء في صمت. شهقت لِلِيَّان في عدم تصديقها للفكرة التي جاءت إليها. لن تفعل!

ومع ذلك، استمرت المرأة الكبيرة في التحديق في المياه العميقة. أخيراً التفتت ومدت يدها بثبات إلى الطفلة ووضعتها بين ذراعي لِلِيَّان، وهي تتمتم تحت أنفاسها. "إنها مُجرد بِنْتْ، على أي حال" قال كامل، مترجماً تمتمتها.

فجأة عرفت لِلِيَّان الإجابة في داخلها. دون أن تتوقف للتحدث إلى سيلا فريند أو كامل، تجاوزت المرأة بعناد، وبدأت في المشي في الليل، وهي تُعانق الحزمة الباكية في صدرها ولا تهتم على الإطلاق بما يقوله أي شخص. ماذا ستفعل بهذه الطفلة الصغيرة، لم تكن تعرف. كانت تعلم أنه عندما وُلِدَ المسيح الطفل ذات يوم، كان في احتياج ماس إلى غُرفة. فرفضهُ الجميع، حتى الصالحين، في ليلة مُوحشة مُظلمة ويائسة مثل تلك الليلة، وهذه الأرض ليست بعيدة عن مكان ميلاد المسيح. سيكون لهذه الطفلة مكان في الإرسالية. أليس كذلك؟ رددت لِلِيَّان في التفكير في الأمر أكثر من ذلك. إذا لم يكن الأمر كذلك... حسناً، فستجد مكاناً، في مكان ما.

لن تتأكد لِلِيَّان أبداً من كيفية عودتها إلى الإرسالية في ظلام تلك الليلة. أشرق القمر المُكتمل الجميل على طريقها ومياه النيل،

التي أصبحت الآن صديقة لها، تعكس ضوء القمر كمُرشد. أكثر من مرة تعثرت من القمامة والصخور في طريقها، ومرة تشابكت تنورتها الطويلة مع بعض الأشجار وتعثرت بعض الشيء. لكنها لم تخفف قبضتها اللطيفة والقوية على الحزمة الصغيرة التي لفتها بين صدرها. كانت الطفلة نائمة، وظلت نائمة على الرغم من أن رحلتها في الظلام كانت وعرة. كانت لِلِيَّان دافئة. كان بإمكانها أن تشعر بدفء جسدها يُدفئ الجسم الهزيل العظمي الذي بين ذراعيها.

كانت الساعة مُتأخرة عندما تسللت إلى باب الإرسالية، ودخلت بحذر إلى الغُرفة الصغيرة التي كانت تشاركها مع جيني. وإذا كانت أُختها، التي كانت مُستيقظة تنتظرهم، قد صُدمت لرؤية لِلِيَّان تحضر طفلة جائعة فإنها لم تُخبرها بذلك. قررت لِلِيَّان أن خبر الطفلة لا بد وأن وصل في وقت سابق مع كامل وسيلا. قامت لِلِيَّان وجيني معاً بتسخين بعض الماء على موقد الكيروسين، وبينما كانت لِلِيَّان تقطع الملابس القاسية القذرة التي كانت مُخيطة على الطفلة، صنعت جيني بعض الحفاضات من قطع القماش النظيفة وقطعت بسُرعة ثوباً قطنياً صغيراً من ملاءة قديمة. وبينما كانت لِلِيَّان تعمل، نظرت إلى الأعلى لترى سيلا فريند، التي بدت غير مُندهشة، تدخلُ من الباب مُرتدية ثوبها وعباءتها. وبدون أن تقول كلمة، جلست صديقة لِلِيَّان بجانب مصباح الموقد، ومررت إبرة، وبدأت في خياطة الثوب الأبيض الصغير الذي قطعته جيني. بحذر، قامت لِلِيَّان بمسح الطفلة الهزيلة بإسفنجة، دون فرك على الإطلاق، خوفاً من إصابة الجسد الصغير. بينما كانت جيني تمسك بالرأس الصغير، قامت لِلِيَّان بمسح القماش القطني على الشَعر الأسود الناعم، المُتشابك مع الطين، والأوساخ البشرية، والحليب

الرائب. عندما انتهوا، كانت الطفلة لا تزال تفوح منها رائحة كريهة، لكن الرائحة الكريهة كانت على الأقل يُمكن أُحتملها. بدأت سيلا في هزها، وهي تُغني أغنية طفلة صغيرة ناعمة وتضغط برفق بين شفتيها على قطارة عين من الحليب الدافئ المحلى والمُخفف بالماء المغلي الذي أعدته لِلِيَّان كما تعلمت تحضيره في منزل الآنسة بيري مُنذ فترة ليست طويلة. لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة كما تصوروا.

لم تستطع الطفلة، التي كانت جائعة ومريضة لفترة طويلة، أن تشرب الحليب. ارتفعت صرخاتها في تصاعد مُثير للشفقة، وتواصلت باستمرار. مرت الأيام ومرت الليالي ومع ذلك، كانت هُناك ساعات من البُكاء المُستمر تقريباً. لم تستطع الطفلة أن تشرب الحليب المحلى والمُخفف الذي قدموه لها. استمرت في فقدان الوزن، لجرام واحد في كل مرة، على الرغم من أنه بدا لِلِيَّان أن الطفلة لم يكن لديها أي جرام أخر لتفقده.

تناوبت المرأتان على المشي وتأرجح الطفلة. غيرت لِلِيَّان تركيبة الحليب، وحاولت مراراً وتكراراً في الحصول على التركيبة الصحيحة، فأطعمت الطفلة مرة كل ساعتين. لكنها ما زالت تبكي ولا تستطيع تناول طعامها.

كان هذا هو نَفْس الحال ليلة بعد ليلة.

لقد كانت لِلِيَّان مُمتنة للقس برلسفورد لتفهمه للواقع. كانت تعلم أنه يظهر قدراً كبيراً من الصبر لرجل يحاول النوم في المنزل مع طفلة مريضة تبكي باستمرار.

أخيراً جاءت اللحظة. على الرغم من أنها كانت مأساوية، إلا أنها كانت لا بد أن تأتي. أدركت لِلِيَّان أن الطفلة الصغيرة فريدة، كما كانوا يطلقون عليها، كانت تموت على الرغم من كل جهد بذلوه. جاء الإدراك في الساعات الأولى من الليل ونما في الصباح. كانت ضربة قاسية ومريرة بعد كل الرعاية والمحبة التي قدموها للطفلة. لقد صنعوا المزيد من الفساتين من الملاءة القديمة، وقطعوا المزيد من الحفاضات، وحمموها وأطعموها. حتى انهم عملوا لها مرتبة صغيرة خاصة بها، وأرجحوها بعناية شديدة. ومع ذلك أصبحت ضعيفة. ما زالت تبكي بلا توقف طوال الليل وتنام فقط لأن بكاءها قد أرهقها في النهاية. لم يعُد الآن بيت الإرسَالية مَسَكَنَّاً هادئاً للنوم في الليل والتأمل أثناء النهار. رأت لِلِيَّان أن المُرسَلين الذين كرسوا حياتهم للعمل المسيحي في مصر، كانوا مُنهكين وتعبانين كل صباح. كانت عيونهم مُحمرة من قلة النوم. كانت رئتا فريدة الصغيرة مُمتازة، على الرغم من ضعفها في كل شيء آخر!

أدركت لِلِيَّان في الليالي القليلة الأولى، أن المُرسَلين حاولوا عدم الشكوى والتظلم، مُدركين مدى رغبة لِلِيَّان في نمو الطفلة. ولكن أخيراً، قال أحدهم الذي كان يعوزه النوم. بعد ليلة طويلة وصعبة بشكل خاص والتي بكت فيها فريدة بلا انقطاع، جاء المُرسَلين وتوسلوا إليها أن تأخذ الطفلة مرة أخرى. لمدة اثنتي عشرة ليلة حتى الآن لازالت تبكي هذه الطفلة بلا انقطاع. وقفت لِلِيَّان وواجهتهم مُتوسلة.

"إلى أين؟ سألت". ليس لديها مكان تذهب إليه". بدأت تشرح لها عن كوخ الطين، والمرأة التي كانت تُحدق في النيل في الظلام، للوصول إلى الطفلة. لكن توسلاتها كانت بلا جدوى، كما

أدركت. في وقت مُبكر من ذلك الصباح، دعاها القس برلسفورد إلى مكتبه. صفى حلقه بعناية، ثم نظر إليها مُباشَرَةً وقال: "أنا آسف، لكن عمل الإرسَالية يجب أن يستمر. سيتعين عليكِ إعادة الطفلة - على الفور". "لكن أخ برلسفورد، ليس هُناك مكان لأعيد الطفلة إليه..." بحثت لِلِيَّان بشكل يائس عن الكلمات المُناسبة. وعن نبرة تعاطف في عينيه. لماذا لم يستطع أن يرى أن طفلة صغيرة واحدة هي مُهمة، وأن عقل الطفلة، غير المتطور، وغير المُتحيز، وغير المُثقل بالكراهية أو الانتقام أو الخُبث، يُمكن أن يمتلئ بالحُب واللطف والرحمة والأمل والإيمان بالله. ان الله موجود هُنا لفريدة الصغيرة، بالنسبة لِلِيَّان، وكان كل المتاعب والنوم المُضطرب جدير بالاهتمام في عيني لِلِيَّان. في عيني الله أيضاً، كما شعرت. ولكن المُرسل هز رأسه.

قال، "لا". "سيتعين عليكِ إعادة الطفلة - على الفور".

امتلأت عيون لِلِيَّان بالدموع، وكان صوتها مملوءاً من العاطفة وهي تقف وتواجه رئيسها بثبات.

"إلى أين؟" مرة أخرى، حاولت جاهدة أن تلتقط لمحة من التعاطف من الرجل الذي كان أمامها. "إلى أين؟" كررت صوتها السؤال مثل إبرة عالقة في أخدود الآلة الموسيقية "إلى أين؟ إلى أين؟ إلى أين؟" تُرَدِّدُ في ذهنها السؤال القصير والمأساوي. "ليس لدى الطفلة مكان تعود إليه. كيف يُمكنني إعادتها؟" هز القس رأسه مرة أخرى.

في تلك اللحظة تْشكَلَ قرار في ذهن لِلِيَّان، وهو القرار الذي لا بد أنه كان يتبادر إلى ذهنها لأيام وليال عديدة، في حالة ظهور هذا الموقف. سارت إلى المدخل ببطء. قالت ببطء وبتعمد:

"سأعيدُها. سأعيدُها. وسأذهب معها". رأت عيون رئيسها يسجلان صدمة والعبس ثم وقف.

"وحدك؟" سأل بدهشة واضحة". وحدكِ؟ امرأة أمريكية في عالم عربي؟ حسناً، ستُقتَلين... أو... أو تموتين جوعاً!"

قالت بحزم: "لن أكون وحدي، يا أخ برلسفورد. سيكون الله معي". "همم... ربما. لكنكِ ستموتين جوعاً. ليس لديك وسيلة..." ثم صمتَ. أخيراً نظر مُباشَرَةً في عيني لِلِيَّان. "حسناً. لَكِنْ لا تتوقعي العودة إلى هُنا. لا يُمكنني الموافقة على أفعالك... إذا غادرتِ".

وقفت لِلِيَّان مصدومة صامتة للحظة، ثم التفتت. أغمض المُرسل عينيه، واحنى رأسه، وكأنه يقبل قرارها.

خرجت لِلِيَّان من الباب، وتوجهت بحزم إلى الطريق الترابي.

"هذا كل شيء" قالت بإصرار. "سأعيدُها... وسأذهب معها".

كانت ذكريات منزل ضيق من ثلاثة طوابق للإيجار تدور في ذهنها. لقد رأته فقط قبل أسبوع عندما ذهبت هي وسيلا فريند لشراء مُستلزمات الأطفال. أخذت خطواتها إلى أسفل الطريق الطويل المُترب، وبحثت عيناها عن المعالم التي ستقودها إلى المنزل. أخيراً، رأته وكادت تركض بقية الطريق إلى أن وصلت إليه.

هؤلاء الأطفال، كانوا مُميزين بالنسبة لمْامْا لِلِيَّان لأن عائلتهم تخلت عنهم تماماً

كان الأطفال الرُضع يتمتعون بمكانة خاصة عند مْامْا لِلِيَّان

الفصل السابع

أول تبرع لدار الأيتام

وجدت لِلِيَّان صاحب المنزل على بُعد مسافة قصيرة من الطريق. وبابتسامة، حصلت على المُفتاح وسمح لها بالدخول. لم يكن بعد هُناك أضواء كهربائية في هذا الجزء القديم من المدينة، لذلك كان لا بد من استخدام مصابيح الكيروسين في المنزل. كان المكان في حاجة ماسة إلى تنظيف، لكن الأرضيات كانت مُبلطة وقررت أنه يُمكن تحويله إلى مَسكَن لطيف ببعض التنظيف بالمُطهرات القوية. بالطبع، كان هُناك مساحة كبيرة جداً لجيني والطفلة ولِلِيَّان فقط. دفعت للمالك جنيهان مصرياً مُقابل إيجار شهر، ثم ذهبت إلى سوق للأثاث واشترت موقداً صغيراً يعمل بالكيروسين للطهي، وطاولة، وبعض الكراسي، والبطانيات، وبعض الأشياء الأخرى. كانت تعمل للطفلة سريراً من صندوق؛ ويُمكنهما صنع سرير من أغصان النخيل. سارعت أيضاً الآن في الحصول على البقالة والحليب.

عندما انتهت، كانت قد أنفقت ما يقرُب من سبعين دولاراً من المُدخرات الثمينة التي حصلت عليها من الإرسالية في آخر ليلة لها في الولايات المتحدة. ولكنها كانت راضية عن إنفاق المال بشكل جيد. سارت بهدوء وبتأنٍ عائدة إلى دار الإرسالية الخاصة بالقس برلسفورد. كل ما تبقى هو حزم أمتعتها ونقلها إلى البيت. سيكون ذلك بسيطاً لأنها لم تكن تمتلك سوى شنطة صغيرة من الأمتعة والملابس القليلة للطفلة التي صنعوها، لذلك يُمكن وضعها في ذلك الصندوق أيضاً على عجل. لم يكن لدى جيني سوى حقيبة سفر كبيرة. فجأة توقفت لِلِيَّان عن المشي. جيني... ماذا سيكون رد

فعلها على كل هذا؟ في اندفاع عواطفها، نسيت أختها الكبيرة، ونسيت أيضاً أنها جزء من هذه الحياة الجديدة. أدركت أن جيني ستعرف بذلك. ثم، تذكرت السنوات الماضية التي لم تُخذلها جيني أبداً، وواصلت لِلِيَّان السير..

مهما حدث لِلِيَّان، كانت جيني حليفتها. بعد أن شعرت بالدفء العميق بسبب الذكرى، زادت من وتيرة خطواتها، وكذلك عزمها. لقد استأجرت عربة يجرها حِمار وسائقاً لنقل صندوقها وحقيبة جيني إلى منزلهما الجديد." كانت بإمكانها حمل الطفلة فريدة. ثم بدأت في الغناء وهي تمشي. كان اللحن شيئاً مُبهجاً يتدفق في حركاتها وهي تسير مُسرعة، ليرفع من معنوياتها في هذه المُغامرة العظيمة. ولكن الأمر كان أكثر من مُجرد مُغامرة، فقد سارعت. لقد كان أكثر من مُجرد مُغامرة، فكرت بجدية. كان هذا الفعل من الله: لا بد أن يكون كذلك!

في الإرسالية، كانت صامته، على أمل ألا يتحدث إليها أحد. كانت الطفلة نائمة وكانت لِلِيَّان سعيدة لأن ذلك أعطاها بضع لحظات لتُخبر جيني شخصياً بخطوتها العظيمة ولتجمع أغراضها وتحزمها. قد انتهت تقريباً عندما سمعت صوت القس برلسفورد في الباب المفتوح. للحظة، خفق قلبها. كان يتحدث بجدية، ربما باهتمام أبوي. استقامت وواجهته مرة أخرى وهو يُحذرها من اتخاذ أي خطوة جذرية، حتى لا تندم فيما بعد. ذكرها بأنها في دار الإرسالية تتمتع بالأمن والحماية والطعام الوفير، وأنه مُرحب بها للبقاء إذا أخذت الطفلة إلى أهلها. إن العيش بمفردها في عالم عربي قد يعني خطراً كبيراً على شابة أمريكية وسط ملايين من الناس... وبدون مال أو أي دعم.

"كل شيء على ما يُرام، يا أخ برلسفورد" قالت، مُتمنية بشدة أن تتمكن من قول شيء يُخفف من حدة غضبه. "ليس لدي أي مشاعر سيئة. لا أستطيع. أنا سعيدة بقراري للغاية. وسأكون بخير. لا تقلق. سنكون بخير، لأن الرب سيكون معنا".

استدار الرجل وخرج وهو يهز رأسه ببطء. وبعد بضع دقائق، دخلت سيدتان لتوديعهما. لكن كانت لِلِيَّان تعلم أنهما خائفتان عليهما. كان ذلك مكتوباً على وجوههما، وفي عيونهما، ثم في كلماتهما. قالوا، ربما شيئاً فظيعاً قد يحدُث، وعندما لم تُجب لِلِيَّان، التفتا إلى جيني مُتوسلين. لكنها هزت رأسها: "أينما ذهبت لِلِيَّان، أذهب. أينما بقيت، أبقى"، قالت بهدوء. ثم نهضت وبينما كانت تتجه إلى الباب مع السيدتين، سمعتها لِلِيَّان تقول: "هل تتذكرين قصة راعوث ونُعمي في الكتاب المُقدس؟" كان هُناك توقف طويل، ثم، هدوء، "أعتقد أنني – راعوث - في القصة". امتلأت لِلِيَّان بدفء كبير. امتلأت عيناها بالدموع. آه، أن أكون جديرة بمثل هذا التفاني!

عندما وصلت عربة الحِمار، كانت مُستعدة. بينما كان الرجل يأخذ الصندوق وينقلها في عربته، لفّت لِلِيَّان الطفلة النائمة بما يكفي من الأغطية. كانت فريدة الصغيرة تُعاني من سوء التغذية لفترة طويلة لدرجة أنه لا يمكن السماح لها بالبرود. عندما انحنت لالتقاط الطفلة، شعرت لِلِيَّان بلمسة خفيفة على كتفيها. التفتت، وظهرت ابتسامة سعيدة على وجهها لأول مرة. كانت ذراع دافئة برفق حول كتفي لِلِيَّان، أنها كانت ذراع صديقتها سيلا فريند. للحظة طويلة وقفت المرأتان ونظرتا إلى بعضهما البعض؛ كانت عيون كل منهما مليئة بالدموع. ثم رأت سيلا تأخذ عباءتها الزرقاء الجميلة المحبوكة من على كتفيها، وتضعها برفق على

لِلِيَّان. بعناية، علقت العباءة حول عُنق لِلِيَّان. شعرت لِلِيَّان بالطيات السخية فوق الطفلة بين ذراعيها. كان الصوف الناعم دافئاً ومُريحاً. أخيراً قالت سيلا بإعجاب. "اللون الأزرق يُناسبكِ جداً. لو كُنت قد حاكيته لك، لم أكُن لأختار لوناً أفضل من ذلك قَطْ". ابتسمت. وقالت: "خُذيه يا لِلِيَّان". "ستحتاجين إليه أكثر مني". وضعت ذراعها حول صديقتها الصغيرة برفق. "سوف تعيشين بشكل جيد، أعلم ذلك يقيناً. ولكن إذا احتجت إليّ يوماً، فأنت تعرفين أين أسكُن. تذكري ذلك يا عزيزتي: "كانت هُناك قبضة قوية على يد لِلِيَّان، واختفت سيلا فريند. التفتت لِلِيَّان نحو عربة الحِمار وبدأت في اتباعها بخطوات طويلة واثقة. يجب أن نصل إلى المنزل المُستأجر قبل طلوع الشمس عبر هواء الليل البارد. كانت العباءة الصوفية الزرقاء دافئة على كتفيها، ودفئها يخترق قلبها برفق.

"أنا مُستعدة، يا جيني"، قالت، وذهب الأختان معاً في خطوة واحدة.

كانت الرحلة إلى منزلهما الجديد خالية من الأحداث بالنسبة للطفلة فريدة. حملتها لِلِيَّان بين ذراعيها طوال الطريق ويبدو أن الهواء النقي وأشعة الشمس على طول الطريق، وافق الطفلة المريضة. ولدهشة لِلِيَّان، شربت الطفلة عدة قطرات من الحليب الدافئ بعد وصولهما إلى منزلهما الجديد، واستطاعت أن تستوعبه ونامت لمدة ست ساعات تقريباً – أن هذا أمر لم يحدث أبداً في الإرسالية. كان الطقس بارداً في الخارج لأنه كان يوم ١٠ فبراير ١٩١١. لكن موقد الزيت والجدران السميكة من طوب نهر النيل أبقتهما دافئتين. نامت الصغيرة فريدة بعُمق خلال تلك الساعات

الست، نامت لِلِيَّان وجيني معاً للدفء تحت البطانيات الجديدة على سريرهما المصنوع من أغصان النخيل.

عندما استيقظت الطفلة، بكت بصوت ضعيف من أجل الطعام والاهتمام، فقد زودهم المُتبرعين بالطعام قبل مُغادرتها. خلال النهار، زودت لِلِيَّان كمية الحليب المُعطاة قليلاً في كل رضعة. ولسعادتهم، بدأت الطفلة تشرب الحليب الصناعي من الزجاجة بعد بضعة أيام.

كانت لِلِيَّان تذهب إلى الفراش مُنهكة في كل ليلة. لكن صلواتها كانت صلوات شُكر. كانت فريدة الصغيرة تزداد وزناً. لم يكن هُناك ميزان لتعرف ذلك بالتدقيق، لكن كان من الواضح أن الطفلة كانت شبعانة. كانت تشرب حليبها بشغف، وكانت عيناها الداكنتان الجميلتان تتوهجان ببريق من الصحة الجيدة. في أحد الصباحات، نظرت فريدة إلى لِلِيَّان أثناء استحمامها، وابتسمت ابتسامة عريضة ساحرة، ثم أمسكت بيد أُمها التي تبنتها. فجأة، امتلأت عيون لِلِيَّان بالدموع، لكنها مسحت وجهها بسُرعة عندما رأت نظرة الخوف على وجه الطفلة. همست لِلِيَّان: "عزيزتي الصغيرة، لو كنت تعرفين ما تعنيه لي!" عانقتها بسُرعة وعاد كل شيء على ما يُرام مرة أخرى.

ولكن ليس في المطبخ.

لقد نفدت امدادات لِلِيَّان الثمينة من الموارد الغذائية ولم تكن لديها أي فكرة عن كيف تدبير الطعام عندما يُنفذ. في تلك الليلة صلت بحرارة طلباً للمُساعدة. كانت تعلم أن هذا اختبار حاسم لإيمانها ومُستقبلها. هل تستطيع اجتيازه؟ لقد استنفدت أموالها تقريباً. لم يعد هُناك من تلجأ إليه الآن، لا أحد سوى الله. لكنها

أدركت شيئاً كانت قد تجاهلته من قبل. عرفت فجأة، وهي تنظر في عيني فريدة الصغيرة الداكنتين الجميلتين، سبب مجيئها إلى مصر.

لقد جاءت لتأسيس دار أيتام مسيحية للأطفال المصريين المُشردين.

لماذا لم تكتشف ذلك مُنذ فترة طويلة؟

جلست لِيَّان على طاولة المطبخ. لقد أنفقت آخر أموالها على الإيجار والبقالة لهذا الشهر. نفذت الآن هذه البقالة وحان موعد الإيجار مرة أخرى.

ومع ذلك، جاءت المعرفة في موجة سعيدة. سوف تبدأ دار أيتام بالإيمان الخاصة بها - وليس بمُجرد المال، مثل الآنسة بيري في ولاية كارولينا الشمالية. أدركت أن تدريبها هُناك كان بمثابة عطية من السماء. لقد كانت تعرف بالفعل كيف تُدير داراً للأيتام. لقد تعلمت ذلك في ولاية كارولينا الشمالية عندما لم تكن تعرف هُناك لماذا تتعلم هذا. ما الفرق بين وجود دار للأيتام بدون أموال أو مُرتبات في أمريكا وبين وجودها بنفس الطريقة في مصر؟ لم يُزعجها أنها كانت وحيدة، باستثناء جيني في أرض بعيدة يسكُنها ملايين من الناس. لقد اكتشفت أنها تحب الأشخاص الذين التقت بهم. كانت تنوي الاستمرار في حُبهم. علاوة على ذلك، كانت لديها ثقة في نواياهم الطيبة. كانت تتمتع في نفسها بالهدوء التام والوحدة الكاملة في هذا الهدف. كانت تعلم دون أدنى شك أنها تنتمي إلى هذه المدينة القبطية مع الصغيرة فريدة وأي شخص آخر مثلها يحتاج إلى مُساعدتها.

أخبرت جيني بلهفة. لكن جاء دور لِلِيَّان لتُفاجأ. كانت نظرة الدهشة الصادمة على وجه جيني غير مُتوقعة تماماً. كانت أختها الكبيرة تجلس بمفردها على كُرسي بجوار النافذة. عندما سمعت إعلان لِلِيَّان المُتفائل عن خططها، هزت رأسها بلا ابتسامة. أخيراً، التفتت بلطف إلى أختها الصغيرة. "ليل، عزيزتي. لم آتِ إلى مصر لأبدأ دار للأيتام. لم "يدعوني الله" مَثَلَكِ. سامحني يا عزيزتي؛ لكنني مُرهَقة جداً". مشت جيني ببطء إلى الباب ونظرت للخارج لفترة طويلة. "جئت لأعتني بك، ليل، لمُساعدتك في أي أموال". عبرت نظرة الخوف وجه جيني. التفتت وواجهت لِلِيَّان مُباشَرَةً. "أنتِ تُدركين أنكِ الآن ليس لديكِ أي مال على الإطلاق، أليس كذلك؟" تنهدت بينما ظلت لِلِيَّان صامتة. ثم واصلت، تهز رأسها. "آه، يا عزيزتي، إذا كُنت قد تخليتِ عني، لكُنت تخليت عنك تماماً، لكان الأمر مُختلفاً. إذا كان لدي إيمانك... لكن يجب أن نواجه الواقع - حقائق مثل معرفة أنه لا يوجد طعام للغد، ولا مال لدفع الإيجار المُستحق بعد ثلاثة أيام، لدي إيمان بالله أيضاً. "لكن هذا الإيمان الذي يحملك، يا لِلِيَّان، يتجاوز فهمي. يتجاوز متناول يدي".

وقفت لِلِيَّان تنظر إلى أختها للحظة، ثم سارت أخيراً إلى جانبها، والتفتت برفق حتى واجهتها.

"أعلم أنه من الصعب أن يكون لديكِ مثل هذا الإيمان إذا لم يكن فيكِ - إذا لم تكوني "مدعو"، كما أنا"، قالت بهدوء. "لكن ثق بي، في إيماني"، توسلت. "سأتحمل كل المسؤولية في المُستقبل. فقط... فقط أحبيني، جيني. أنتِ ممتازة جداً، وجيدة جداً بالنسبة لي. سأتحمل كل المسؤولية". ابتسمت وعانقت أختها. "أعلم أنكِ لم تأتِ إلى مصر لإدارة دار للأيتام. لكن... يبدو أنني فعلت ذلك".

نظرت جيني إلى ما وراء لِيَّان بحسرة، ثم ابتسمت ببطء وأومأت برأسها موافقة. "لكن هذا هو دار أيتام خاص بك، حُلمك. "سأتبعك فقط، يا لِيَّان".

في ذلك الصباح، أنفقت لِيَّان آخر نقودها لحليب فريدة. في صلواتها، شرحت الموقف بإيجاز لله. بالطبع، كان الله يعلم كل شيء وبذات الأمر. لكن لِيَّان أرادت توضيح موقفها التابع في ذهنها. ذهبت إلى النوم فوراً بعد صلواتها في تلك الليلة تماماً كما لو كان لديها مطبخ مليء بالبقالة والمال لشراء المزيد. في ذهنها، كان لديها بالفعل كل هذا. ماذا سيجلب الصباح؟ كانت متأكدة من الإجابة. أي إجابة لا تعرفها. كانت لا تزال نائمة في صباح اليوم التالي عندما سمعت طرقاً على الباب. ارتدت رداءها وفتحت الباب بسُرعة: كان الرسول الصبي. وصل رسالته، تأخر الصبي، وفرك جبهته.

"صداع؟" قالت لِيَّان بقلق. تناولت الأسبرين واعطت قرصاً واحداً للصبي. هز رأسه بخوف، ولم يشرب سوى الماء الذي أعطته له. ابتلعه، ثم ذهب إلى الباب وتردد مرة أخرى، وهو يُراقب لِيَّان وهي تأخذ الطفلة من سريرها. ثم تحدث باللغة العربية: "هل أنتِ السيدة التي تبحث عن أطفال بدون أهل؟"

كانت لِيَّان في حيرة. ثم تذكرت بالأمس في مكتب التلغراف أنها أخبرت الموظف المصري بأحلامها في إنشاء دار أيتام للأطفال المصريين المُشردين، موضحة أنها تمكنت من فهم سؤال الصبي باللغة العربية. قالت: "نعم". كانت هذه أول طفلة لي. قالت لِيَّان: "أليست لطيفة؟ كانت مريضة وجائعة". ابتسم الصبي لأول

مرة. مدت فريدة يدها الصغيرة ولفَّتها حول إصبع الصبي. خجلاً، سحب الصبي يده.

"معذرة"، قال، ثم توقف. ثم نظر مُباشَرَةً إلى لِيَّان. "لا أرى كيف ... كيف ..."

"استمر يا عزيزي" قالت لِيَّان.

"ما تساءلت عنه هو ... كيف ستحصلين على المال لدفع ثمن هذا ... هذا؟" نظر إلى أسفل، مُحرجاً على ما يبدو أنه طرح السؤال. أجابته لِيَّان مُباشَرَةً.

"ابني، سيوفر الرب احتياجاتنا. لا أعرف من حتى أين تأتي وجبة الغذاء. "ولكن الله يعلم!"

حدقت عينا الصبي فيها، في البداية بغير فهم، ثم بغير تصديق. ثم خففت نظراته، وتغيرت إلى دهشة.

فجأة، بحث في جيبه، ثم وضع شيئاً في يد لِيَّان. استدار بسُرعة ثم خرج مُسرعاً من الباب.

نظرت لِيَّان إلى أسفل لترى المُساهمة الأولى لدار الأيتام المُستقبلية التي تبلغ سبعة قروش، أي ما يعادل خمسة وثلاثين سنتاً.

"لا تحتقري يوم الأشياء الصغيرة"، هكذا قرأت الكتاب المُقدس على الطاولة في وجبة الإفطار في هذا اليوم. كانت تعلم أنه يمكنها شراء الخُبز بقرش، والحبوب بقرش آخر. ثم قرش آخر للحليب. كم كان هذا الطعام جيداً ورخيصاً في مصر!

عندما كانت تخرج كل يوم بين المصريين، وتُخبرهم بخططها، بدأت تكوّن صداقات جديدة بينهم. ومع ذلك، كانت مُهمتها غريبة للغاية، وغير مسمُوعة تماماً، لدرجة أن عدداً من المُحيطين بها أساءوا فهمها: كان هذا صحيحاً بشكل خاص بالنسبة لأولئك الذين لم يقابلوها. في إحدى المرات، سمعت لِلِيَّان شائعة مَفادِها أنها ستأخذ الأيتام الذين ترعاهم إلى أمريكا. وفي مرة أخرى، شعرت بالخوف تقريباً عندما سمعت شائعة أخرى مَفادِها أنها ستأخذ الأطفال وتبيعهم كعبيد. ارتجفت عندما فكرت في هذا الأمر وعمدت إلى وضع حد لأفكارها. كم أن هذا مُحبط أن يُساء فهم تضحياتها، حتى هُنا حيث كانت تحاول جاهدة اتباع أمر ربها. ثم في أحد الأيام في مكتب التلغراف، تغيرت الصورة فجأة إلى لون أكثر إشراقاً. أخبرها المصري الودود الذي يعمل هُناك عن طفلين صغيرين في قرية قريبة توفي والداها. كان عمهما يرغب بشدة في إيجاد منزل لهما. كان الصبي الصغير يبلغ من العمر أربع سنوات وكانت الفتاة الصغيرة تبلغ من العمر ست سنوات تقريباً. كادت لِلِيَّان تركض إلى المنزل لتُخبر جيني.

بحلول صباح اليوم التالي، ركب الرجل المصري ولِلِيَّان الحِمار المُستأجر لإحضار الأطفال. مكثت جيني في البيت مع الطفلة فريدة. كم كان عالم الصحراء جميلاً بالنسبة لها هذا الصباح! وكم كان العودة إلى المنزل أكثر بهجة. لقد منحَها الأطفال حياة جديدة وأملاً جديداً. لقد كانوا لطفاء وجميلين.

وبعد فترة وجيزة أخبرها أحدهم عن طفل يتيم صغير يبلغ من العمر حوالي خمس سنوات. أخذته معها. كان هُناك ثلاثة أطفال وفريدة الصغيرة. كانت لِلِيَّان سعيدة جداً لأنها شعرت أن كل شيء يسير على ما يُرام. لكن هذا الصيف كان مُظلماً.

في ١٣ يوليو ١٩١١، في اليوم الثاني بعد أن أخذت الطفل الصغير، أصبح مريضاً بشكل يائس. سارعت به إلى الطبيب من المُستشفى الأمريكي المشيخي. كانت صداقة موظفي المُستشفى لا تقدر بثمن. أصبح الأمريكيين في مصر أصدقاء مُقربين بمُجرد وصول مواطن أمريكي جديد. فحص الطبيب المشيخي الطفل بعناية، وأخذ لِلِيَّان جانباً، وهز رأسه وقال. "أنا آسف. لكنه طاعون دبلي".

طاعون دبلي! أحد أعظم أهوال مصر! "لا، لا، يا رب"، صرخت لِلِيَّان في يأس. لكن هذا كان صحيحاً.

الأيام التي تلت ذلك، كانت بمثابة كابوس. أرسل مُفتش الصحة رجالاً لتطهير البيت وتعقيم كل شيء. تم إرسال الصبي الصغير إلى جناح العزل في المُستشفى. تم وضع جميع ملابس لِلِيَّان، والستائر، في الواقع، كل ما لديهم، في خزانات كبيرة مليئة بالمُطهرات. لقد تم إتلاف العديد من مُمتلكاتها الأكثر أهمية.

في صباح اليوم الثاني، لاحقاً، دخلت لتتفقد الطفلين الآخرين، اللذين تم عزلهما داخل المنزل. قبلتهما بحنان، ثم شهقت في خوف. على عجل، خلعت ملابسهما، ثم صرخت مما رأته. كانت البُقع الحمراء تُغطي أجسادهم كلها.

"يا رب"، سقطت على ركبتيها وبكت في ألم. "ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ ماذا علىَّ أن أفعل الآن؟"

"مرة أخرى فحص الطبيب أطفالها. هذه المرة ركعت لِلِيَّان على ركبتيها في صلاة شُكر. أخبرها أن الأطفال مُصابون بالحصبة الحمراء.

كانت مُرهَقة للغاية تلك الليلة ـ مُتعبة جداً بحيث لم تستطع النوم، وهو أمر غير مُعتاد للغاية بالنسبة لِلِيَّان. كان الجو دافئاً، بدا دافئاً جداً، حتى شعرت أن شيئاً ما لا بد أن يكون خاطئا. ثم بدأت ترتجف، ثم تحترق، وكأن ناراً كانت بداخلها. أخيراً، وهي تلهث لالتقاط أنفاسها وتمتلئ بالخوف، دعت جيني. "أخشى أن يكون هُناك شيء خاطئ فيّ! أَسرِعي!"

"لديك حُمى تبلغ ٤١ درجة" قالت جيني بصوت أجوف عندما قاست درجة حرارتها. "يا عزيزتي، إذا كُنتِ مُصابة بالطاعون الدبلي أيضاً، فلن أسامحك أبداً. أبداً". ثم جاءت إلى سرير لِلِيَّان المُنخفض بسُرعة وبصوت أُمومي مُنخفض تغير تماماً عن النغمة القلقة التي استخدمتها حالاً، وقالت، "ستكونين بخير يا عزيزتي. سأذهب إلى الطبيب وسأعود في الحال".

أومأت لِلِيَّان برأسها، وكان حلقها جافاً، وعيناها تحترقان. كانت في حالة من الوعي الجزئي فقط عندما تم حملها على كُرسي كبير إلى المُستشفى الأمريكي. بالكاد تعرفت على وجوه سيلا فريند وزوجها عندما ساعدا أصدقاء مصريين في حملها إلى المُستشفى. كيف عرفوا؟ افترضت لِلِيَّان أن جيني أرسلت جارة إليهم.

سمعت الطبيب يتحدث مع جيني عند باب غرفتها. رأته يرتب على كتف جيني مُطمئناً. "ستكون بخير". تلاشى صوته إلى نغمة رتيبة مُنفصلة، لكن لِلِيَّان، التي كانت تستمع باهتمام، سمعت كل كلمة. قال: "لقد كانت تحت ضغط رهيب. دعنا نُبقيها هُنا لفترة وأنا مُتأكد من أنها ستكون بخير".

استسلمت لِلِيَّان، المحمومة والمُتعبة، وذهبت إلى النوم. يا لها من راحة مُباركة! بعد بضعة أيام حمَلُها أصدقاؤها إلى المنزل مرة أخرى على الكُرسي. اعتنت سيلا وجيني بالأطفال المرضى كما كانت لِلِيَّان تعرف أنهما ستفعلان. اختفت الحصبة، واختفي طاعون الدبلي الرهيب. أصبح أطفالها بصحة جيدة وسعداء برؤيتها. "مْامْا لِلِيَّان"، نادوا، مراراً وتكراراً. أَعَجبَ هذا الاسم لِلِيَّان.

لكنها وجدت أنها ضعيفة جداً لدرجة أنها لم تتمكن من القيام بعملها. "ما الذي حدث لي؟" سألت جيني. "هل هُناك شيء لم يُخبروني به؟" في كثير من الأحيان، كانت تشعر بألم حاد في قلبها. عندما حاولت النهوض ورعاية أطفالها، أو القيام بجزء من العمل الشاق، شعرت بضعف وألم حول قلبها لدرجة أنها اضَطرت إلى العودة إلى الفراش مرة أخرى.

ولكن لم يكن هُناك شيء خاطئ. لا شيء سوى الضعف، طمأنها الطبيب الأمريكي ذات صباح. "لكن"، أضاف، "قد يكون هُناك خطأ فادح". نظر إليها بحزم. "أنه قلبِكِ!"

كانت مجموعة من أصدقاء لِلِيَّان المصريين قد جاءوا مع الطبيب في ذلك الصباح. اعتقدت لِلِيَّان أن هذا في حد ذاته غريب. لقد زاروها كثيراً، ولكن ليس مع الطبيب. قال أحدهم "لِلِيَّان، نعتقد أنكِ بحاجة إلى الراحة. إجازة". هزت رأسها.

قالت لِلِيَّان، "آه، لا يا أصدقائي. كل ما أحتاجه هو استعادة قوتي حتى أتمكن من العودة لرعاية أطفالي مرة أخرى".

"لكن هذه هي الطريقة لاستعادة قوَتكِ". هزت لِلِيَّان رأسها بعنف. كانت عنيدة، وكانت تعلم بذلك. لكنها كانت تعلم أنه لا يوجد وقت لديها لأنها مريضة. علاوة على ذلك، لم يكن هُناك مال لقضاء إجازة، فلماذا نناقش الأمر؟

كان الطبيب الأمريكي ينظر إليها مُباشَرَةً. قال بهدوء: "ميس تراشر، يجب أن تستريحي إذا أردتِ مواصلة عملك. لقد مر قلبك بوقت عصيب في الأسابيع القليلة الماضية. ما مدى وضوح ذلك؟ قلبكِ... قلبكِ قد يتوقف عن الخفقان!" قال بلطف: "أنا آسف لكوني صريحاً جداً. لكن يجب أن تُصَدِقِيني".

أغمضت لِلِيَّان عينيها، غير مُصدقة. ومع ذلك، كانت تعلم أن ما قاله يجب أن يكون صحيحاً. سمَعَت صوتاً، ثم، كما لو كان من بعيد. أبقت عينيها مُغمضتين واستمعت. استمعت لدقائق طويلة.

ثم صوت آخر، في الغُرفة. "لِلِيَّان، لدينا هُنا أموال لكي تقضى إجازة في الإسكندرية. سيُفيدك هواء البحر ونسماته، ويُمكنك الحصول على الراحة التي تحتاجينها. جيني وجميعنا سنعتني بأطفالكِ".

لم تفتح لِلِيَّان عينيها. كانت تعلم أنها ستبكي لو فعلت ذلك. قالت بهدوء: "كان عليَّ أن أُسافر عبر العالم كله، لأجد أصدقاء مثلكم". "أذا كنتم تقولوا ذلك، فَلَيكُنْ".

أخذت الطفلة فريدة معها إلى الإسكندرية، وكان هواء البحر مُنشطاً وحاولت لِلِيَّان بصدق أن تستريح. بعد بضعة أيام، شعرت

بقوتها تعود، ومعها - عدم الرضا في الابتعاد عن أسيوط وأطفالها، حيث كانت تعلم أنها تنتمي لأسيوط.

في إحدى الأُمسيات، أخذت كتابها المُقدس وجثت على ركبتيها بجوار النافذة المُطلة على البحر الأبيض المُتوسط الجميل، وصلت لوقت طويل. ثم فتحت كتابها المُقدس لزكريا ١٢:٩. "ارْجِعُوا إِلَى الْحِصْنِ يَا أَسْرَى الرَّجَاءِ. الْيَوْمَ أَيْضاً أُصَرِّحُ أَنِّي أَرُدُّ عَلَيْكِ ضِعْفَيْنِ".

عندما نهضت، شعرت بطفرة كبيرة من القوة في جسدها، وفي عقلها، والأهم من ذلك، في قلبها.

"لم يتركني الله" قالت بجراءة لمياه البحر الأبيض المُتوسط خارج نافذتها. سارت نحو الطفلة التي كانت تلعب في مُنتصف الغُرفة. قالت بحزم: "فريدة، عزيزتي، سنُغادر هذا المكان في الصباح". ابتسمت الطفلة ورفعت ذراعيها، فحملتها لِلِيَّان، وعانقتها وقبلتها: "سنعود إلى ديارنا في أسيوط حيث ننتمي. لنفعل ما كُنا ننوي فعله. كيف لي أن أعرف؟ كنُت أصلى الآن وسمعت الله يُخبرني بما يجب أن أفعله. كانت المُشكلة من قبل أنني كُنت مشغولة للغاية، ونسيت أن أسمع".

بدأت لِلِيَّان في حزم أمتعتها على الفور.

اثنان من أطفال مُامْا

ماما لِلِيَّان مع الأطفال الرُضع الذين كانوا بجوار منزلها

الفصل الثامن

شراء أرض لبناء الملجأ

في أوائل خريف عام ١٩١٥، جاء صديق مصري يدعى مالك لزيارة لِلِيَّان، وكانت عيناه تتلألأن بالإثارة. كان مالك، مُوظف حكومي في أسيوط، يُراقب أطفال لِلِيَّان وهم يغسلون الأطباق ويدرسون ويكنسون ويلعبون، وكان كل طفل راضياً وآمناً ويشعر بالحاجة والرغبة والفائدة. انتظر بأدب حتى انتهت لِلِيَّان من مُساعدة بناتها في تنظيف بعض العدس الذي سقط منهم على الأرض. دخلا إلى الصالون؛ ونظر إليها الرجل باهتمام. "آنسة لِلِيَّان، لدي خبر". اتسعت ابتسامته؛ وخفض صوته. "نصف الفدان عبر النيل الذي تريدين شرائه، معروض الآن للبيع". نظرت إليه لِلِيَّان بدهشة. قالت ببساطة: "اعتقدت أن المالك لن يبيع لنا. أنت تعرف كيف حاولت..."

"الارض الآن ملك لسيدة جميلة جداً، آنسة لِلِيَّان. ستبيعها مقابل خمسون جنيهاً". "خمسون جنيهاً! مالك، هذا ثروة بالنسبة لي. كيف يُمكنني..."

لكن صديقها واصل الحديث: "اعتقدت أنه إذا كان بإمكانكِ أن تكوني الأولى..." ثم مضى في كلامه مع المالك الجديد وما أخبرته به. وبينما كان يتحدث، أصبحت عينا لِلِيَّان حيّة فجأة. لقد سمعت عن المالك الجديد، السيدة أمينة خياط، وأدركت أنها صديقة مصرية جيدة. خمسون جنيهاً ما يساوي مائتان وخمسون دولاراً بالعملة الأمريكية في ذلك الوقت. توهجت عيناها الآن وهي تشعر بإحساس هائل بتحقيق الغرض. ابتسمت وقالت بصوت خافت:

"آه، نعم، مالك. ويُمكن لأطفالي الأعزاء أن يكون لديهم بيت خاص بهم. كم حلُمت بمثل هذا الوقت".

تنهدت وجلست ببطء. "دعنا نرى من يقدر أن يُساعدنا..." عاد عقل لِلِيَّان إلى أصدقائها المصريين الذين ساعدوها في الماضي. كم كان الشعب المصري طيب بمُجرد أن فهموا غرضها في بلدهم. لقد علمت في وقت مُبكر أنها يجب أن تذهب إليهم، أغنياء وفقراء، للحصول على المال والطعام والإمدادات، اللذين سيتعين عليهم توفير المال، لأنه لم يكن لِلِيَّان أي دعم مالي. لم تكُن العطايا الصغيرة من الولايات المتحدة كافية لتغطية حتى احتياجاتهم البسيطة. لم يتمكنوا أبداً من الحصول على أي شيء على الإطلاق، لو لم تكن الحياة رخيصة جداً واحتياجاتهم قليلة جداً. الطعام، وثمانية ملابس كافية، ومنزل غريب وضيق والمُكون من ثلاثة طوابق التي استأجرته بسعر معقول.

جيني ولِلِيَّان وأطفالها، الذين أصبح عددهم الآن ثمانية، كانوا ينامون على أغصان النخيل، ويأكلون البيسارا والأُرز وبعض الخضروات ويستمتعون معاً باللعب والعمل والصلاة وقراءة الكتاب المُقدس ودراسة اللغة الإنجليزية في الفصول اليومية التي كانت تُدرسها لِلِيَّان. كانت جيني قد عادت إلى الولايات المتحدة في العام السابق، لرعاية مُمتلكاتها المُستأجرة في كاليفورنيا، وعادت مؤخراً وهي تشعر بسعادة غامرة لعودتها إلى لِلِيَّان والأطفال الذين تحبهم كثيراً. كانت لِلِيَّان سعيدة للغاية. عندما يُنفذ الطعام (وهو أمر يحدث بانتظام كل يومين أو ثلاثة أيام)، علمت أنها تستطيع استئجار حِمار بثلاثة قروش، ثم تذهب بالحِمار الصغير إلى مكان قريب، حيث يتم توفيره دائماً. القمح والفاصوليا والبصل والأُرز - أي شيء يشعر المُزارعون أنهم

يستطيعون العيش بدونه. كان عطاءهم يعني تضحية شاقة. ومع ذلك، كانوا يتطلعون دائماً إلى زيارتها التالية وهى تركب على الحِمار ويحاولون اعطاء أي شيء لأطفالها، بغض النظر عن مدى صغر الكمية. كان الفلاحون كرماء القلب، على الرغم من أن الظروف أجبرتهم على العيش بتواضع شديد لدرجة أنه كان من غير المعقول بالنسبة لِلِيَّان أن يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة بهذا القليل.

كانت قُرى الفلاحين التي تقع على ضفة نهر النيل الخصيب مُتجمعة على أطراف الصحراء، تحت شمس الصحراء. كانت الأكواخ الخالية من النوافذ تُشبه أقبية التخزين الباردة في الشتاء وفي الصيف تشبه أفران الخُبز المصنوعة من الطوب. كانت لِلِيَّان تتساءل كثيراً كيف كانوا يتحملون هذا الوضع. وإلى جانب هذا، كانوا يبقون بحيواناتهم عموماً داخل منازلهم. وقد مر وقت طويل قبل أن تُدرك أنهم تحملوا هذه الظروف لمدة قرون من الزمان بنفس الاستسلام التي لاحظها كامل في بداية حياتها المصرية.

ولكن الأمل والإيمان بالمُستقبل كانا جزءاً من لِلِيَّان وإيمانها المسيحي. كان بوسعها أن تُغير الظروف بدعم من ربها. هُنا على النصف فدان التي اتفق مالك على شرائها هذا الصباح بالنيابة عن لِلِيَّان ليُمكنها من المُساعدة في بناء ملكوت الله وملئها بأطفالها المصريين المحبوبين، وتعليمهم طرق الرب يسوع المسيح ووعده العظيم بحياة غنية وذات معنى تحت رعايته والوعد بالذهاب إلى السماء بعد حياتهم الأرضية. فجأة قفزت على قدميها.

"مالك، سنفعل ذلك! اذهب وأخبر السيدة خياط أن أموالها ستكون جاهزة في غضون... أسبوع." سارع مالك في الخروج

لإنجاز مُهمته، ووجهه مُضاء بالسعادة. ذهبت لِلِيَّان بسُرعة إلى سريرها المصنوع من سعف النخيل وركعت بجانبه. سألت: "يا رب، أرني الطريق". "سأحتاج إلى المال - كل المال في غضون أسبوع. لدي في البيت، خمسة وعشرون قرشاً (دولار وخمسة وعشرون سنتاً) فقط. ولكن إذا كانت هذه هي إرادتك، فأظهر لي الطريق..."

ذهبت بسُرعة إلى المطبخ، وأخبرت جيني أنها ستُغادر البيت، ثم ركضت إلى مذود الحمير. على ظهر الحِمار، هدأت نفسها، بحركة الحِمار السريعة بينما كانت حوافره الصغيرة السريعة تدق على الطريق، صلت بجدية: "أرني يا رب الطريق. أرني الطريق".

"كان الطريق يقود إلى المُدير، مُحافظ أسيوط. دخلت مكتبه الفاخر وهي تسير بجراءة. لقد خطرت لها خطة وهي تركب حِمارها. كما كانت هي عادتها المُعتادة، لم تُضيع الوقت في البدء في العمل بمُجرد اقتناعها بأن التعليمات جاءت من ربها وليس من عقلها الابداعي. لقد قُيل لها إن المُدير مُهتم بخطتها لإنشاء دار للأيتام المصريين. ذهبت لمُقابلته وكانت مُتأكدة من أن هذا هو الوقت المُناسب للمضي قدماً في هذا الأمر. في ذهنها، كانت أيضاً تتذكر رجلًا مصرياً ثرياً، توقف ليراقب أطفالها وهم يلعبون قبل بضعة أسابيع. عندما غادر، أعطاها بطاقته. وقد فوجئت عندما لاحظت أنه أعطاها بطاقته. كما فوجئت أيضاً عندما لاحظت أنه كان مسؤولاً في مركز الشرطة في بلدة قريبة. لقد ترك لها نقوداً للمُساعدة في إطعام أطفالها وأخبرها أنه سيُساعدها مرة أخرى. كم كانت لِلِيَّان تقدر لطفه! يحتاج أطفالها الثمانية الذين يكبرون الآن إلى الكثير من الطعام. إن هذا يتطلب المال – الشيء الذي لم

تكن تملك منه المبالغ الكافية. ربما كان هذا الصديق اللطيف سيُساعدها مرة أخرى في هذه الحالة الطارئة العظيمة. بطريقة ما، شعرت بالحاجة للذهاب إليه بدعم من المُدير. وكانت هذه فرصة مُمتازة لمُقابلة المُدير وطلب تعاونه. هل سيُقابلها؟ درست الغُرفة الفاخرة للإستقبال، ثم فتح الباب.

تم اصطحابها إلى المكاتب الخاصة بالمُدير التنفيذي. جلست لِلِيَّان وبدأت في إخباره بخططها. بينما كانت تتحدث، كان بإمكانها أن ترى أن المسؤول المصري كان يسمع باهتمام مُتزايد. أخيراً، أخبرته عن حاجتها الفورية وعن الرجل في مكتب الحكومة في المدينة القريبة، والذي أخبرها أنه سيُساعدها إذا نشأت الحاجة. إنها بحاجة الآن إلى المال. كانت بحاجة إلى خمسين جنيهاً لشراء قطعة أرض مساحتها نصف فدان لبناء دار الأيتام الخاصة بها. لم يكن لديها أي شيء من المال. كانت ترغب في الذهاب بموافقة المُدير. هل سيكون لطيفاً بما يكفي لتحديد موعد لها مع ذاك الشخص؟

ابتسم المُدير. في الواقع، كان موافقاً. نعم، سيتصل بالرجل ويرتب موعداً. سألها إن كانت لديها وسيلة نقل؟

"نعم، حِمَاري" ابتسمت لِلِيَّان. "أخرج دائماً طوال الوقت إلى القرى للحصول على الطعام لأطفالي - على ظهر الحِمار".

كان وجه الرجل يُعبر عن الدهشة، ثم الذعر. هذا عبس. "امرأة أمريكية شابة بمفردها على ظهر حِمار في الصحراء؟ إنه أمر لا يُصدق" صاح. "ألم تجربي... ألم تواجهي..." نظر إلى الأرض، فجأة وشعر بالحرج.

"لا"، ابتسمت لِلِيَّان، "لم أجرب". كان هُناك صمت طويل، ذكرها بالوقت الذي أخبرت فيه القس برلسفورد لأول مرة بحلمها بالذهاب إلى إفريقيا كمُرسلة دون أي دعم. قالت ببساطة "لا يُزعجني أحد. مصر لم تمنحني سوى اللطف". نظرت باهتمام إلى المُدير الذي كان يفحصها الآن بتعبير مُحير. "كما ترى" استنتجت، "أنا لست وحدي حقاً هُنا في رحلاتي". إن ربي معي في كل لحظة". ترددت عندما رأت النظرة الغريبة على وجه مُستمعها. ثم رأته يسترخي ويبتسم بلطف. قال، "كما تقولين، فَلَيكُنْ". "آنسة لِلِيَّان، كل هذه الأشياء الجيدة التي سَمَعتَها عنكِ حقيقتاً. هذا واضح تماماً" وقفت لتذهب. عندما نهض المُدير، قال، وهو يهز رأسه مُستسلماً: "ولكن على حِمار! كم هو مُهِين لسيدة شابة جذابة جداً! الحِمار هو رمز للدناءة المُطلقة، والسخرية ..."

توقفت لِلِيَّان في مُنتصف الطريق إلى الباب والتفتت. "كان الحِمار جيداً بما يكفي لأم ربي. إنه بالتأكيد جيد بما يكفي بالنسبة لي أيضاً". ضحكت بأسف. "أعتقد أنني المرأة التي على الحِمار. سمعت الفلاحين ينادونني بذلك عندما يروننني قادماً".

ابتسم المُدير، ثم بدأ في تدوين مُلاحظة على مكتبه. "هل الساعة الحادية عشرة صباحاً يُناسبكِ للمُقابلة؟"

"هذا رائع،" أجابت لِلِيَّان. "غداً".

"سأتصل بالسيد إذن". تردد، ثم ماذا بعد ذلك: "أقترح أن تستأجري السيد الذي يقود الحِمار، سائقي حمير محليين، وأن تغادر المجموعة عند الفجر في الصباح. إنها رحلة طويلة بالنسبة لامرأة أمريكية شابة أن تقوم بمفردها على ظِهر حِمار".

غادرت لِلِيَّان وهي مليئة بالفرح. كان المُدير مُتعاوناً جداً. لقد أحبت الرجل كثيراً وهرعت بحِمارها نحو مذود الحمير بأسرع ما يُمكن واستأجرت اثنين من سائقي الحمير لإرشادها في الرحلة في صباح اليوم التالي. في الواقع، لقد قامت بهذه الرحلة بمفردها عدة مرات على ظهر حِمار، لكنها لم تذهب إلى هذا الحد أبداً خلال موسم الفيضانات. نظراً لأن هذا كان في شهر يوليو واقتربت أيام ذروة فيضان النهر العظيم السنوي، فإن الماء قد انتشر عبر الأرض على كل جانب ليحول مناطق شاسعة إلى مُستنقعات عميقة وخطيرة في كثير من الأحيان. وستحتاج إلى سائقي حمير أذكياء حقاً لقيادة الطريق في هذه الرحلة.

قبل الفجر بوقت طويل، كانوا في طريقهم. كان السائقون يضربون الحمير بخفة، وكانت الضربات السريعة التي تُشبه آلة لحوافرهم الصغيرة القاسية على رمال الصحراء بمثابة أغنية حلوة تهتز في قلب لِلِيَّان مع كل خطوة. وبحلول شروق الشمس، كانوا قد وصلوا إلى الأراضي المُنخفضة وكان عليهم أن يسلكوا طرقاً صحراوية طويلة للهروب من المياه البعيدة التي كانت تزحف فوق الأرض مثل الهواء نفسه، تاركة تلك القنوات فيضاناً على الأرض عديمة الفائدة، حتى تتسرب المياه الزائدة إلى الأرض أو تتبخر بفعل شمس الصحراء الحارقة. كانت لِلِيَّان تعلم أن الطمي الذي تجلبه مياه الفيضانات من أسفل نهر النيل سوف يملأ القنوات، مما يجعل من الضروري أن تقوم مصر بتنظيف مجاري المياه المسدودة عندما ينتهي الموسم. أخبرها أصدقاءها المصريون في الماضي، أن الطمي الخصيب كان نعمة عجيبة، مما جعل التربة أغنى تربة في العالم. لكن الآن أصبح الطمي الخصيب عائقاً كبيراً. مُنذ بداية الزمان كانت الأرض الخصبة

تنحدر سنوياً بفعل الفيضانات من المناطق المُرتفعة خلف سد أسوان العظيم. كان هُناك سيل هائج، هائج، غادر، مُدمر، مشهد هادر من الغضب العظيم، المُحترم، المُعبود والمُخيف. هذا هو النيل الأزرق القوي فوق سد أسوان الذي أرسل مياهه العظيمة إلى مصر. لكن كانت هُنا المياه عملاقاً نائماً، يتضخم بصمت طوال أشهر الصيف وعادة ما يصبح أعظم في سبتمبر، يرقد بجوار القرى المصرية الصغيرة وغالباً ما يُغطيها.

وجدوا أنفسهم الآن ينسجون في القنوات وحولها، وغالباً ما كانوا بعيداً عن طريقهم في الصحراء للهروب من المياه الساكنة والقوية. عندما نظرت لِلِيَّان إلى ساعتها، كانوا يحاولون العودة أقرب من النهر لتقصير طريقهم. الساعة الثامنة! وفقاً لحساباتها، كانوا مُتأخرين عن الجدول الزمني. وبما أن مياه الفيضان كانت تتسبب في خروجهم عن مسارهم أكثر مما توقعوا، فلم يتبق سوى ثلاث ساعات فقط حتى موعد المُقابلة في الساعة الحادية عشرة. كانت تعلم شيئاً واحداً: لا يُمكنها أن تتأخر! فتوفير منزل لأطفالها أمر بالغ الأهمية. وحثت سائق الحِمار في الإسراع على قدر الإمكان. ثم استرخت وحاولت التفكير بهدوء. فكرت بشكل معقول أنهم يقطعون وقتاً أفضل الآن. إذا لم يواجهوا المزيد من الطرق الالتفافية، فمن المُؤكد أنهم يستطيعون إصلاح كل شيء. وبعد بضع دقائق - لم تكن مُتأكدة تماماً.

نظرت مُامْا إلى الأمام بذهول بارد إلى منطقة مُستنقعية واسعة. لم يبدو الماء عميقاً جداً، لكن نطاقه كان واسعاً. نزلت من على حِمارها ودرست المنطقة. شعرت أنها بعيدة جداً للتجول حول المساحة الواسعة من الماء والحفاظ على موعد مُقابلتها. بدافع، جلست وخلعت حذاءها وجواربها. سيكون من الصعب

بعض الشيء إبعاد تنورتها الطويلة التي كان يرتديها نساء ذلك الوقت عن الماء، لكنها اعتقدت أنها تستطيع أن تُدبر أمرها. بالتأكيد كانت لديها خبرة كافية كطفلة في الدخول والخروج من مد وجزر المُحيط في جاكسون فيل وبرونزويك. بالتأكيد، يُمكنها المرور عبر مُستنقع ضحل بشكل واضح. بدأت تمشي في الماء لكنها توقفت للحظة، عندما سمعت سائقي الحمير يُناديها. بكل احترام، ابتعدا قليلاً بينما خلعت جواربها.

"انتظري! انتظري!" كانت أصواتهما بالغة العربية حادة وفي قلق واضح. "انتظري، سيدتي لِلِيَّان"، صاح الأكبر منهم. "ستتعرضين لحادث!" لم يكن لِلِيَّان وقت للانتظار. نادى الأولاد مرة أخرى، وأصروا على أن يتجولوا حول الماء. لكن لِلِيَّان استمرت في السير. لم يكن الوقت يعني شيئاً على الإطلاق لسائقي الحمير المصريين إذ لم يفهموا أهمية الالتزام بالمواعيد هذا الصباح، أما هي فقد فهمت. كان مُستقبل أطفالها في كفة الميزان. مرة أخرى نادى عليها الأولاد. قالوا لها إنهم سيصنعون لها سرجاً، وسيحملونها عبر الماء على أذرعهم. هزت رأسها بفارغ الصبر. "سأحمل نفسي عبر الماء. أحضرُ الحمير وتعالوا!" ثم أصبحت أكثر جراءة، وسارت بسُرعة أكبر. أصبح الماء أعمق واضطرت إلى رفع تنورتها إلى ركبتيها تقريباً. نظرت إلى الأولاد، وابتسمت لفترة وجيزة على وجوههم الم صدمة. ثم خطت خطوة أخرى، وارتفعت ثقتها بنفسها - وقفزت.

في البقايا الموحلة والمياه الرطبة، انطلقت بصوت قوي! بدت وكأنها تتجه في كل الاتجاهات دفعة واحدة، وشعرت بشعور سخيف بأنها لن تتمكن أبداً من أن تجمع نفسها لجسد واحد مرة أخرى، حتى لو تمكنت من تحرير نفسها من الطين والأوساخ التي

كادت تغطيها الآن. وبعد أن حررت نفسها بمُساعدة سائقي الحِمار، تمكنت أخيراً من العودة إلى الأرض اليابسة.

"لا بد أنني سقطت في القناة" قالت بحُزن". كانت المياه تُغطيها ولم تستطع رؤيتها. هز الأولاد أصحاب الحمير رؤوسهم فقط. "أعتقد أنه كان ينبغي لنا أن نسلك الطريق الطويل، كما قُلت، أليس كذلك؟ أو نحاول حمل الأمتعة على السرج". لكن المُشكلة لم تكن فيما كان ينبغي لها أن تفعله، بل فيما يُمكنها أن تفعله الآن بملابسها المُبّللة بطين النيل الخصيب.

كانت هُناك بلوزة وتنورة جافتان في حقيبتها التي كانت على الحِمار. لكن لا يوجد مكان لتغيير الملابس الداخلية، التي ترتديها السيدة أثناء النهار، عندما تكون في مرأى في الأماكن العامة. "يا رب"، صلت بائسة. "لقد جعلتُ من نفسي شخصاً أحمق. أحتاج إلى مُساعدتك. لا يُمكنني الذهاب بهذا الشكل لمُقابلة رجل مُهم. يجب أن أذهب وإلا فلن يكون لدي مال جاهزاً لدفع ثمن أرض دار الأيتام الخاصة بنا". أنه أقل من أسبوع لدفع ثمن الأرض و... " فجأة وقعت عيناها على كوخ صغير مصنوع من سيقان الذرة. عند المدخل، حدقت امرأة فيهما بدهشة. قالت لِلِيَّان "هذا جوابي" وبدأت في السير مُبتسمة نحو السيدة المصرية، رغم أنها كانت تعلم أن الطين جعل ابتسامتها أقل من أن تكون مُغرية.

نعم، ستُساعدها المرأة إذا استطاعت. وكما توقعت لِلِيَّان، فقد كانت تعلم بكرم ضيافة المصريين. لكن المرأة هزت رأسها عندما طلبت منها ماء للتنظيف. لا يوجد ماء باستثناء ذلك الموجود في وعاء فخاري حيث يستحم فيه بطها. كانت لِلِيَّان في حيرة.

عندما أقنعوا البط بالخروج أخيراً، بدأت على الفور في فرك الملابس الداخلية الموحلة بدون صابون في ماء مُتسخ.

بعد أن نظفتها بقدر الإمكان، قامت المرأتان بنشرها فوق سيقان الذرة. أشرقت شمس دافئة لكن لِلِيَّان أدركت الآن أنهما لن تنجحا أبداً إذا انتظرتا حتى تجف الملابس الداخلية حتى تتمكن من ارتدائها. لأول مرة في ذلك اليوم شعرت بالدموع تتجمع في عينيها. ولكنها، مُرتدية قميصها وتنورتها النظيفتين من الحقيبة، قررت أن تشرح المُشكلة لسائقي الحمير. مُهين بالطبع. غير لائق بالنساء. فكرة مُناقشة مثل هذه المُشاكل الأنثوية مع سائقي الحمير. ولكن لا يهم.

بعد لحظات، كانوا في طريقهم مرة أخرى، هذه المرة كان يأخذون طريق آمن حول المُستنقع الكبير. أمامها، أجبر سائقو الحمير حميرهم على الهرولة السريعة، من أجل العجلة. على حبل الغسيل المصنوع من أغصان النخيل الطويلة التي صنعها الأولاد على عجل، كانت ملابس لِلِيَّان الداخلية ترفرف بوقاحة، ولكن بشكل جميل في ضوء الشمس الدافئ والنسمات التي أحدثتها هرولة الحمير. ابتسمت لِلِيَّان: "طرق الرب - وسائقي الحمير". عندما وصلوا، كانت ملابسها الداخلية جفت إلى حد ما، على الرغم من أن اللون كان مُختلفاً عن اللون الأبيض النقي الذي كانت عليه عندما بدأت الرحلة. أخيراً، وجدت مكاناً خاصاً لارتداء الملابس الداخلية، على الرغم من أن هذه مُهمة صعبة في حد ذاتها في الصحراء.

في الساعة الحادية عشرة، دخلت مكتب مركز الشرطة، ووجدت ترحيباً حاراً، وأعطوها مُعظم الأموال التي كانت في

أمس الحاجة إليها لشراء أرض دار الأيتام الجديدة. شُكرت المُتبرع بحرارة. ثم قالت بصمت: "شُكراً لك يا رب". وأضافت بصوت عالٍ لسائقي الحمير: "شُكراً لكم يا أولاد".

اسلكوا في الطريق الطويل الآمن والجاف إلى أن جاءوا إلى منزل مْامْا المُستأجر.

بعد يومين، في الظهيرة، تم الانتهاء من شراء نصف فدان لدار الأيتام. يُمكن لها ولأطفالها الثمانية الآن أن يعتبروا الأرض الرائعة ملكاً لهم. لقد أعطوها ما يكفي من المال - من أصدقاء مصريين مُختلفين لإكمال الخمسين جنيهاً المطلوبة. لم يتبق سوى بضعة قروش. هذه القروش التي تُعادل أقل من دولار بالعملة الأمريكية، وضعتها في حافظة بعناية. في ذهنها، كان بإمكانها أن تتخيل بسهولة دار أيتام جميلة من الطوب الأبيض والجص، مع جدار واقٍ حولها، وفناء مفتوح بالداخل للصلاة وقراءة الكتاب المُقدس في المساء عندما تنتهي من عمل اليوم. ستكون هُناك أشجار جميلة ومجموعة من الزهور في الفناء، لتغذية الجمال في أرواحهم بينما يعبدون الله بصلواتهم. سيكون أيضا سور عظيم حول المبنى وبوابة أمامية ضخمة وتستطيع لِلِيَّان أن ترى البوابة بوضوح، حتى الآن. كانت مفتوحة، مفتوحة دائماً للأطفال المصريين المُشردين وغير المرغوب فيهم. ربما يزداد العدد حتى يكون هُناك خمسة وعشرون أو ثلاثون في دار الأيتام يوماً ما. للحظة، التقطت لِلِيَّان لمحة أخرى. كانت لمحة مُلهمة للرهبة - لمحة كادت تُخيفها. في تلك اللحظة، رأت ألف طفل يدخلون من البوابة المفتوحة العظيمة. كانت أجسادهم نحيفة بشكل مُثير للشفقة، وملابسهم بالية، وعيونهم داكنة ومُتوسلة، ينظرون إليها، وأذرعهم النحيلة تمتد إليها عندما يدخلون. فجأة، نظرت عيناها

خلفهم. هُناك في المسافة، رأت خطاً يمتد بوضوح إلى أفق الصحراء. لا بد أن يكون هُناك آلاف قادمين في المسافة! أغمضت لِلِيَّان عينيها، وبكت بهدوء. "لقد رأيت كل ما أستطيع رؤيته في نظرة واحدة، يا رب. لا أستطيع تَحَمُل عجائب هذا المكان بعد الآن". سارت بخطى سريعة إلى نصف الفدان وبدأت في السير بخطوات واسعة إلى الجدران الخارجية للمبنى. لا بد أن يكون كبيراً - مَسكَناً للأولاد وآخر للبنات، ومطبخاً كبيراً وغُرفة طعام وغُرفة أطفال.

كان المبنى مُكوناً من طابقين، وله سقف مُسطح يُستخدم دائماً في مصر. كان مبنى جميلاً، فكرت لِلِيَّان وهي تمشي عبر الأرض. كان مرئياً بوضوح وكأن المبنى والجدار قد اكتملا. فجأة، التفتت وبدأت في السير نحو المنزل المُستأجر المُكون من ثلاثة طوابق حيث كان أطفالها ينتظرون مع جيني. بدأت في الجري، أسرع فأسرع. عندما دخلت، نادت للأطفال. قالت بفرح: "سنبدأ في صنع الطوب الأسبوع القادم. يُمكن لأولادنا الكُبار العمل في ذلك وسنُساعد جميعاً بأفضل طريقة مُمكنه. حتى الصغار يُمكنهم فعل شيء ما".

رأت لِلِيَّان النظرات المُحيرة على وجوه أولادها الكبار. قالت: "لا تقلق يا جون. سنأتي بشخص لمُساعدتنا". "وسوف يُرينا الرب أي شيء آخر نحتاج إلى معرفته. تعلمون يا أطفال، أن الرب يعرف كل شيء عن صناعة الطوب. وهو يُريدنا أن نعيش في بيتنا الخاص. ترددت للحظة، ثم ابتسمت وهمست: "أعرف بذلك لأنه أخبرني بذلك!"

ضحكت لِلِيَّان عندما سألها أحد الأصدقاء عن خططها للبناء. قالت إنها ستبدأ في بناء مباني دار الأيتام، إذا كانت لديها الطوب. ثم ضحكت بصوت عالٍ. "وعندي ثلاث طوبات".

في البداية لم يكن بناء هذا الطوب سهلاً. ولكن هل وعدها الرب بحياة مُريحة؟

بدأوا في صناعة الطوب في وقت مُبكر من سبتمبر ١٩١٥. كم كانت الشمس ساطعة وحارة! في الجزء الخلفي من قطعة الأرض الخاصة بهم، كان بإمكانها أن ترى مياه فيضان النيل تتجه نحوهم. لكنها كانت تعلم أنهم في أمان من الفيضانات السنوية. مُنذ فترة طويلة، وجدت أن المصريين كانوا حُكماء في طرق البناء بجوار النيل. كانوا يعرفون بالضبط تقريباً مدى سيكون ارتفاع المياه كل صيف. وبنوا بيوتهم وفقاً لذلك. على ضفة النيل، رأت مدينة أسيوط، المُزينة بأشجار النخيل، والجميلة، والمُرتفعة فوق خطر الفيضان. وشعرت هي أيضاً بأنها مُرتفعة فوق خطر الفيضان ـ فوق كل خطر.

أزاحت خصلة شعر من عينيها، ثم ترددت عندما رأت شعرة مُنسدلة، التصقت بالطين على إحدى يديها. حدقت فيها لبضع ثوان، ثم ابتسمت. كانت الشعرة التي سقطت هي من اللون الأبيض - أول شعرة بيضاء لها. لم تشعر بالشيخوخة، كما اعتقدت. كانت لا تزال في العشرينيات من عمرها. تنهدت وربتت عمداً على الشعر الأبيض في الطين الأسود الرطب الذي ملأ الأشكال الخشبية، ثم نظرت إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى نتائج عملها.

أشرقت شمس سبتمبر الحارة على صف تلو الآخر من الأشكال الخشبية، كل منها يحمل عشرين لبنة طوب. كم كان هذا منظر جميل! امتدت الأشكال المليئة بالطين عبر نصف الفدان الخالي، ورسمت صورة للإيقاع والنظام. بدا لها وكأنه لحاف مُرقع ضخم، مع ماسة سوداء لامعة تلمع من كل كتلة مُستطيلة صغيرة. كان الأمر سهلاً عندما تم بناء هذه النماذج، وقد تعلموا كيفية خلط المُكونات. كانت المسألة ببساطة تتلخص في حفر التراب ووضعه في كومة وإضافة الماء من النهر والقش والسماد للحصول على القوام المُناسبة. ثم يقفز جون ومساعدوه الصغار في الخليط، ويضربون بأذرعهم وأرجلهم ويدوسون ويحركون ويعجِنون. وعندما يمتزج الخليط لدرجة جيدة، يأخذ كل منهم حُفنة ويحملها إلى القوالب، ثم حُفنة أخرى وأخرى. ثم يتم تعبئتها بقوة وصقلها. حتى أصغر الأطفال حملوا حصتهم، حمولة تلو الأخرى في أيديهم الصغيرة. كانت مْامْا تشعر بالفخر بأطفالها وهي تشاهدهم يعملون.

كانت شمس الصحراء حارة مثل حرارة الفُرن في هذا اليوم، وكانت درجة الحرارة الشديدة أعظم بكثير من أسوأ حرارة صيفية عرفتها في جاكسون فيل بولاية فلوريدا، أو برونزويك بولاية جورجيا، أو بوسطن بولاية ماساتشوستس عندما كانت طفلة. لم يكن من المُمكن أن يفهم الأمريكيون حرارة الصيف الرهيبة التي عرفتها مصر. كانت درجة الحرارة المتوقعة من ٤١ إلى ٤٨,٨. كانت تلك الأيام تؤلمها أكثر من غيرها. كان السفر على حِمارها عبر الصحراء المُلتهبة أحد أكبر محنها على مر السنين. كانت درجة الحرارة كشيطانا حاربها بوحشية، ويضربها حتى تصرخ طالبة الرحمة، وأدانها بالعقاب عندما فشلت.

وسخرت من مخاوفها، واحتقرت جهودها الجبارة. ظهر هذا الشيطان القبيح في أوائل يونيو وطاردها طوال سبتمبر من كل عام. لو كان بإمكانها البقاء في الداخل، لكانت قد تحملته بسهولة أكبر، ربما. شكلت الجدران السميكة للمباني المصرية حاجزاً أبقى حرارة الشيطان تحت السيطرة جزئياً - على الرغم من أنها كانت سيئة بما يكفي في الداخل. ولكن في الصحراء، دون حماية على ظهر حِمار، كانت درجة الحرارة لا تطاق أبداً.

ساعة بعد ساعة، يوماً بعد يوم، عاماً بعد عام، شتاءً وصيفاً، لم يكن هُناك أي توقف في رحلات للبحث عن الطعام عبر الصحراء لسبب بسيط جداً: يجب أن يحصل أطفالها على الطعام يومياً، مهما كان الموسم. كما كانت تعلم في الماضي أنها ستضطر إلى الاستمرار في السفر على حِمارها خلال أوقات الفيضانات، وأوقات الجفاف الحار، وأوقات الشتاء الباردة، وأوقات غُبار الرمال الخمسينية ... على مدار السنوات الماضية كان الأمر كذلك. سوف يكون كذلك لسنوات قادمة. لقد قبلت الأمر ببساطة على أنه مُجرد أمر مفروغ منه.

لقد ارتجفت عندما فكرت في أيام الخماسين تلك.

حتى الشتاء في مصر بدا سهلاً مُقارنة برياح الخماسين في أوائل الربيع. كان الشتاء شديد البرودة هُنا. توقف المرء لزيارة صديق. جلس هُناك كل منهم يرتديان سترتين، ومعطفاً ثقيلاً، ووشاحاً ثقيلاً على رأسه، وثلاثة أزواج من الجوارب في قدميه وحذاءً ثقيلاً. حتى في مثل هذا الطقس البارد للغاية، كانت منازل الفقراء المصريين غير مدفأة. كان المُرسَلين الأمريكيين الذين جاءوا وذهبوا على مر السنين في مصر يُعانون في الشتاء من

قضمه الصقيع وكان عليهم استخدام لفائف ثقيلة لتحمل الطقس. حقاً، بدا أنه لا يوجد مكان بارد في يناير مثل داخل المنزل الطيني غير المدفأ. في دار الأيتام، كان المطبخ دافئاً بحرارة الطهي. وفي السنوات اللاحقة، قام أحد مُساعدي مْامْا المُرسَلين ببناء مدفأة في غُرفهم. لكن البرد الشديد لم يُزعج مْامْا بشكل خاص.

كانت فصول الشتاء في مصر سهلة مُقارنة بموسم الخماسين من الرياح والغُبار في أوائل الربيع. في ذلك الوقت، كانت رياح الخماسين القادمة من الجنوب الغربي تضرب مصر برمال الصحراء التي تخترق كل شق وكل زاوية في المطبخ، وفي الأطباق، وفي الطعام، وفي الملابس، وحتى في الناس ـ أذانهم، وأعينهم، وجلودهم ـ حتى بدت رمال الصحراء والناس فيها وكأنهم شيء واحد.

ولكن ينابيع مصر بعد موسم الخماسين كانت جميلة. أشجار السنط المُزهرة العظيمة، وأزهار الجُهنمية تتفتح على أسوار حديدية عالية أو على جدران خلابة، والفيلات الجميلة التي يسكنها المُضيفون والمُضيفات الساحرات، وأشجار النخيل المُهيبة التي ترتفع عالياً في السماء الزرقاء الصافية مثل الكاتدرائيات العظيمة ذات القمم الخضراء. كُل هذا، ونهر النيل العظيم الجميل الذي يتدفق إلى الأبد عبر وادي النيل النحيل، مُتعرجاً برشاقة وسحر وسلام خلال مجراه المُخصص له في الموسم ثم يفيض في الموسم، وكأنه وفقاً لخطة عظيمة. كم كان هذا النهر الذي وهبه الله لمصر قوة وممتازا! كم كان جميلاً في الربيع عندما عادت رياح الخماسين إلى الصحراء الجنوبية الغربية البعيدة وتركت الريف المصري الجميل في سلام مرة أخرى!

وكان الصيف، وقت حرارة الشيطان، وقتاً جميلاً أيضاً. لكن الحرارة الشديدة في الصحراء جعلت من المُستحيل على مْامْا أن تُقدر المشهد من حولها، وخاصة على حِمارها في الصحراء.

تذكرت الآن رحلة الحِمار التي قامت بها قبل بضعة أسابيع. أخبرت بالمال الذي سيحتاجونه للبناء؛ خططت ليوم كامل للسفر على حِمارها في الصحراء. زارت إحدى عشرة قرية فلاحية. سجل مقياس الحرارة في الظل في دار الأيتام ٤٦,٧ درجة في اليوم السابق. بدا اليوم أكثر حرارة. لكن إحدى عشرة قرية يُمكن أن تعني المُساعدة في وضع الطوب وشراء الأبواب والأدوات، ناهيك عن الطعام والملابس. غادرت قبل الفجر لمُحاولة التغلب على حرارة الشيطان. وصلت إلى القرية الأولى دون صعوبة. كان هواء الفجر مُنعشاً. ثم انفجرت الشمس بهجومها المُشتعل في لحظة عظيمة غيرت الليل المُنعش المُظلم إلى يوم صحراوي متلألئ وواسع ومؤلم.

تَجمعَ القرويين، في منزل ذهبوا إليه جميعاً، كما فعلوا في الماضي. أعطى كل منهم ما كان في وسعهِ. ثم كانت تركب على حِمارها مرة أخرى في الصحراء.

قرية أخرى.

أميال أخرى في حرارة الصحراء. قرية أخرى.

إلى الصحراء مرة أخرى. وقرية أخرى.

في وقت مُتأخر من تلك الليلة زارت القرية الحادية عشر. لقد كان يوماً رائعاً وسخياً. كم كانت مُمتنة لأصدقائها الفلاحين في القرى! كم كانت مُرهَقة بالرغم من ذلك. كانت مُنهكة للغاية بسبب

درجة الحرارة لدرجة أنها شعرت أنها ستنفجر في البكاء إذا لم تتمكن من الحصول على بعض الراحة السريعة. شعرت أنها بالكاد تستطيع الصعود على السرير الخشبي الذي كانت تعلم أنه سيتاح لها في مركز الشرطة. ضغطت براحة على عينيها المؤلمُتين لكنها لم تشعر بالراحة. كانت يداها تحترقان أيضاً.

أخيراً، وصلوا إلى مركز الشرطة. شعرت أنها لا تستطيع أن تخطو خطوة أخرى، حتى لو كانت حياتها تعتمد عليها.

ولكنها فوجئت أن السجن كان مشغولاً. وللمرة الأولى لم يكن هُناك مكان حتى في سجن القرية لسيدة وحِمارها.

رأى مُضيفها في القرية إرهاقها وبدا أنه يفهم، فأمرها أن تأتي إلى منزله. ستوفر زوجته مكاناً لها. بطريقة ما، وصلت إلى منزل القروي المُكون من غُرفة واحدة. كان رأسها وعيناها وجسدها يحترق بالكامل. بدا جسدها مُشتعلاً بالكامل نتيجة للحرارة الرهيبة التي تحملتها تحت شمس الصحراء.

سقطت في سريرها على أرض ترابية بحمد، تصلي من أجل الهدوء ونسمة من البرودة. ثم، لدهشتها، شعرت بأن نفس الهواء الصغير المُنفتح على الباب قد انقطع، بينما كان مُضيفها يجهز المنزل الصغير ليلاً. تذكرت حينها، كانت عائلات الفلاحين تُغلق دائماً كل فتحة لمنع دخول الليل. كحماية، ربما. أو عادة. على أي حال، بدا أن الفلاح وعائلته وحيوانات المزرعة يُغلقون الباب على أنفسهم دائماً في كل ليلة، بغض النظر عن الطقس في الخارج.

ذهب مُضيفها إلى مُصباح الكيروسين الصغير على الطاولة. آه، كان سيطفئه. تنفست مُامْا للراحة، كان المُصباح الذي لا غلاف له، والذي كان يُدخن بشدة، قد ملأ بالفعل كوخ الطين الخانق الخالي من النوافذ بالأبخرة والدخان، ناهيك عن الدخان المُتزايد الذي كان ينبعث منه. لكن لا - لم يكن يطفئه. كان يقطع اللهب ليشتعل المُصباح طوال اليل. ستصبح المُشكلة أكبر بدلاً من أن تصغر مع تقدم الليل. تأوهت في بؤس. على جانب واحد من الغُرفة رن الجرس. في البداية لم تتمكن من العثور على مصدر الصوت. لكنها فهمت بعد قليل أنه كان لدى الطفل الفلاح أجراس في أصابع يديه وقدميه. عندما بدأ الطفل في البكاء، بعد فترة وكلما حرك يديه وقدميه، كانت الأجراس تدق. كانت الأصوات التي كانت في العادة تبدو لطيفة وسعيدة بالنسبة لها، أشبه بسكاكين حادة ساخنة في أُذنها المحترقة. تذكرت بشكل غامض صلاة بولس الرسول خلال ليلة صعبة. صلت بصمت: "متى تنتهي هذه الليلة يا رب؟"

أدركت هذه المرة أن هُناك رنين أجراس يتردد صداه، صادر عن قطة العائلة التي كانت ترتدي أجراساً حول عُنقها أيضاً.

لكن مواد البناء ستكون جاهزة الآن لمسرجي، عامل البناء، لأنها كانت تحمل في حقيبتها عطايا من إحدى عشرة قرية.

استغرق الأمر منها عدة أيام للتعافي من آثار حرارة الصحراء هذه المرة.

بعد بضعة أيام، رفعوا القوالب الخشبية. أصبح الطوب الآن رمادي بُني. كان صلباً وثقيلًا وجميلاً. حملت هي والأطفال طرود

الطوب الثمينة إلى مكان واضح ورصصوها بعناية. كم كان عملهم جيداً عندما سُنحت لهم الفرصة للتعلم! كانت تتذكر دائماً الصبايا الصغار وهم يحتضنون طوبة واحدة على أجسادهم أثناء سيرهم، وكان الكُبار منهم يمسكون بالطوب بفخر، ثلاث طوبات في كل ذراع كما عَلَّمَهم مسرجي. كم كانوا حذرين! عندما كان يجب عليهم أن يعملوا الطوب يدوياً، كان يجب عليهم بالتأكيد أن يحملوه بعناية.

"هل أنت مُستعد لبدء حفر كومة جديدة من التراب؟" صاحت مْامْا. ابتسم الصبيان المصريان، ومسحا حاجبيهما، وبدءا في الحفر. أدركت أنهم مُرهقون وحارون تحت شمس الصحراء القاسية لكنها لم تعترف بذلك. رأت الآن شكلاً مألوفاً قادماً على الطريق. تنهدت مْامْا بسعادة. كان مسرجي، الرجل الذي كان سيضع الطوب، قادماً في طريقه من أسيوط كما يفعل كل ظهر. الآن يُحييها وهو يمشي. ابتسمت ابتسامة عريضة. "كل شيء على ما يُرام، يا مسرجي، أعتقد. كيف يبدون؟" سار المصري العريض المُنكبين إلى كومة الطوب المصنوع منزلياً، والتقط واحداً في صمت وفحصه بشكل نقدي. ثم أومأ برأسه وابتسم. أخيراً، قال: "إذا كان أولادكِ يصنعون الطوب طوال حياتهم، فلن يكونوا أفضل من ذلك". قالت مْامْا: "آه". "القوالب التي ساعدت الأولاد في صنعها - كيف يُمكننا أن نشكُرك بما فيه الكفاية؟" هز مسرجي رأسه ولوح بذراعه أفقياً بحركات سريعة وحادة. "لا داعي للشُكر، سيدة لِيَّان. نحن في مصر من يشكُركِ". تحدث بإيجاز عن الأساس. قال إن الاولاد يُمكنهم حفره عندما تنتهي سيدة لِيَّان من الخطط. سيُساعد في وضع علامات عليها. هل تم رسم الخطط؟

هزت مْامْا رأسها ضاحكة. " مسرجي. لم أرسم خطة أبداً. لم أر أحداً يرسم خطة بناء. لقد عملت لأيام في محاولة لجعلها صحيحة تماماً. آه، الورق الذي استخدمته - وألقيته بعيداً".

لقد كان هذا صحيحاً. فقد عملت حتى وقت مُتأخر من الليل لعدة ليالٍ على ضوء شعلة الكيروسين. قد خططت لأربعة سرائر كاملة (مصنوعة من الألواح، بالطبع) في كل غُرفة. ويُمكن عمل المراتب، إذا كانت بها مراتب، من سعف النخيل حتى يتمكنوا من تحسينها. لكن لم يكن هذا مُهماً. لقد حسبت حجم السرائر الأربعة بدقة شديدة، ثم رسمت الغُرفة حولها لتُناسب السرائر. لأن الجدران ستكون أكثر من قدمين سُمكاً كما كانت العادة في مصر، فإن خزانة كبيرة للملابس والأمتعة يُمكن أن تتناسب بشكل جيد مع جدار كل غُرفة. يجب أن يكون هُناك مطبخ وغُرفة للزوار وغُرفة لها. يجب بناء كل هذه الغُرف حول فناء داخلي. سيكون الفناء المُغلق تماماً مكاناً رائعاً وخاصاً للعب والصلاة المسائية، وغُرفة معيشة خارجية، ومكاناً للزيارة في الطقس الدافئ. سيكون هُناك شجرتان كبيرتان في الفناء - شجرتا أكاسيا مُزهرتان جميلتان، إذا تمكنت من العثور على شجرتين صغيرتين لزراعتهما. كانت تعلم أنها تستطيع ذلك. كانت السيدة خياط، صديقتها المصرية الطيبة، تملك بعض النباتات الصغيرة التي تنمو على شرائط الأرض القريبة. وكانت مْامْا تعلم أن كل ما عليها أن تفعله هو أن تطلبها منها.

استنتجت أن المبنى الأول لا بد أن يكون من طابق واحد، وليس من طابقين كما كان حلمها الأصلي. يُمكن إضافة طابق ثانٍ لاحقاً إذا لزم الأمر. سوف تبنى الجدران من الطوب الطيني المصنوع منزلياً والذي كان أولادها يصنعونه كل يوم. وسوف

يكون هُناك عدة صفوف من هذه الطوب، وهي ضرورية لصنع الجدران السميكة، ثم يتم تجصيص الجدار الخارجي لهذه الجدران بشكل كثيف وطلائه باللون العاجي. سوف يُصنع السقف المُسطح من جذوع أشجار النخيل الموضوعة بالقرب من بعضها البعض، حيث يوضع أحد طرفيه على الجدار الخارجي للمبنى، والآخر على جدار الفناء الأقرب. ومن خلال عدم وجود سقف فوق الفناء، فإن امتداد كل جذع نخيل داعم سيكون أقصر، وبالتالي أقوى. وسوف تضع شبكة من سعف النخيل الأصغر على جذوع النخيل. وعلى هذا الأساس سيتم ملء السقف بالطين، في البداية شرح لها أصدقاؤها المصريون كل هذا، والآن يأتي مسرجي مرة أخرى بعد أن وافق على العمل في المبنى باليومية. وعندما يكون لديها المال لدفعه، سيستمرون في العمل. عندما لا يكون هُناك مال، ينتظر حتى تصبح مُستعدة مرة أخرى. يا له من صديق طيب لمْامْا وأطفالها!

"نحن جاهزون لك تقريباً، مسرجي" قالت له الآن. "يُمكن للأولاد الحفر من أجل الأساس. هل تعتقد أن لدينا ما يكفي من الطوب المصنوع للأساس؟"

هز مسرجي رأسه سلباً. "سيدة لِلِيَّان، لا يُمكنكِ استخدام هذه الطوب للأساس، أخشى ذلك".

التفتت مْامْا في دهشة. "لماذا لا؟ أليست جيدة بما فيه الكفاية؟"

ابتسم مسرجي. "إنه طوب ممتاز. لكنه مصنوع من طين. يجب أن يكون لديكِ أساس قوي. أنتِ بحاجة إلى طوب حقيقي من المصنع هُنا. "ثم يُمكننا وضع الطوب الطيني فوقهم".

بدا صوت تال معقولاً. أدركت مْامْا أن صديقها المصري يعرف البناء وما هو مطلوب لجعل دار الأيتام الجديد قوي وسليم.

"سأطلبها، يا مسرجي" قالت ببساطة. كان عليها أن تبتسم لنفسها. لقد قالت ذلك بسهولة: سأطلبها، يا مسرجي. تماماً كما لو كانت لديها قرش واحد لشرائها.

"سوف يُكلف الأمر حوالي ثلاث جنيهات لهذا العدد، أخشى ذلك" قال مسرجي.

عبس وجه مْامْا. "كثيراً جداً؟" ثم ابتسمت والتفتت بسُرعة. "من الأفضل أن أذهب للصلاة". قالت ذلك لنفسها أكثر من لمسرجي. كانت خطواتها سريعة وواثقة. كانت تعلم أنها يجب أن تحصل على الطوب الجيد أولاً. في غُرفتها، ركعت بصمت. ثم، دون مُقدمات: "يا رب، هل أطلب الطوب من المصنع الآن، أم أنتظر للحصول على المال؟" استمعت بعناية. ثم سارعت إلى أسيوط وطلبت الطوب القوى للأساس.

في وقت مُبكر من في صباح اليوم التالي، كانت مْامْا وجندي مصري خصصه لها المُدير لحمايتها اثناء ركوبها على الحِمار مُتجهين إلى قرى الفلاحين. شعرت مْامْا بقوة بضرورة الحصول على المال اللازم لشراء الطوب حتى تتمكن من سداد الفاتورة على الفور. كما كانت بحاجة إلى المال لدفع أجرة مسرجي وعماله كل يوم. بعد أن أصبحوا الآن على وشك البدء في البناء الفعلي، لم يكن هُناك ما يُعيقهم. حتى مياه فيضان النيل القوية.

كانوا على بُعد خمس كيلومترات من هدفهم، وهي قرية كوم أسفحت، وهي إحدى القرى التابعة لمركز صدفا في محافظة أسيوط. عندئذ اضطروا إلى التباطؤ. لقد كانوا يسافرون لمسافة كيلو تقريباً عبر المياه الضحلة: استداروا إلى جانب واحد، وتوقفوا أخيراً. لم يكن من الآمن المضي قدماً نحو كوم أسفحت. مع ذلك، يجب أن يصلوا إلى هُناك. ولكن كيف؟ أحاطت مياه الفيضانات بالقرية الصغيرة تماماً. كانت جزيرة في حد ذاتها، صغيرة، وحيدة، ونائية، ولكنها جميلة بالنسبة لمْامْا، في وهج أشعة الشمس الساطعة البعيدة. في تلك الأكواخ الطينية المُزدحمة، عرفت مْامْا أن هُناك عائلات فلاحية طيبة القلب ستُساعدها، على الرغم من فقرهم الشديد. اتجهت مْامْا والجندي إلى قرية قريبة وبدأتا في الاستفسار عن قارب. من الواضح أنه كانت الوسيلة الوحيدة للسفر بالرغم من المياه المُحيطة.

بحلول الظهر، وجدوا قارب واستأجروه. كان شيئاً هشاً ومؤقتاً، لكن من الواضح أنه سيكون قادراً على تغطية كيلو أو ثلاثة كيلو متر من المياه بينهم وبين كوم أسفحت. كان القارب والجندي ومْامْا في طريقهم. بدا القارب أكثر أماناً في الماء مما بدا عليه. وكان قائد القارب كفؤاً جداً.

في القرية، اجتمع الفلاحون الأصدقاء، كما كانوا يفعلون دائماً، عندما وصلت. كما توقعت، كانوا أسخياء بالقليل الذي كان لديهم. لكنها شعرت بالدهشة حقاً عندما كانت مُستعدة للذهاب واحصت عطاياهم. لقد جمعوا ما يكفي فيما بينهم ليصل المجموع إلى خمس جنيهات مصرية - وهو ما يكفي لدفع ثمن الطوب الممتاز تقريباً، وأيضاً ما يكفي لدفع أجر مسرجي وعماله لمدة يومين. امتلأت عينا مْامْا بالدموع عندما رأت مدى احتياجهم، ومع

ذلك كم كانوا اسخياء. سيتم الآن وضع الأساس على الفور. وعندما يتم ذلك، لن يتمكن أي شيء من إيقافهم.

ربطت المال بعناية في كيس من القطن. كانت الشمس تغرُب تقريباً عندما انطلقوا بعيداً. كانت هُناك ريح خفيفة بدا أنها تزداد سُرعتها مع تحركهم. لكنها لم تكن قوية بما يكفي لإثارة الذُعر، على ما يبدو. توجهوا إلى الماء بسهولة على الرغم من أن الرياح استقرت. كانت مُامْا سعيدة. بعد لحظات، أدركت زيادة الرياح والأمواج المُرتفعة. بعد وقت قصير شعرت بهزة سريعة، ثم عاصفة حيث ألقت طبقة من الرياح القارب إلى أحد الجانبين. في الظلام القريب، كانت حركة مُرعبة. أمسكت مُامْا والجندي بالألواح الجانبية في مُحاولة يائسة للبقاء في وضع مُستقيم. صرخت "انحنِ إلى الجانب الآخر". كان من حُسن الحظ أنهما فعلوا ذلك على الفور تقريباً ضربت عاصفة أخرى من الرياح مما أدى إلى انقلاب القارب القديم. بطريقة ما، تأوه القارب القديم وارتفع إلى وضع مُستقيم مرة أخرى. خيم الآن الظلام عليهم. ولكن بعد لحظات، أشرقت أشعة القمر المُكتملة الثاقبة عليهم. بطريقة ما، ساعد ذلك مُامْا. على الأقل، كان بوسعهم أن يروا محنتُهم الآن. وربما كان بوسع شخص آخر أن يرى محنتهم أيضاً.

في ضوء القمر، ربطت الخمس جنيهات الثمينة التي أعطيت لها بملابسها الداخلية. قالت لنفسها بحُزن: "إذا غرقت، فسوف يجدون المال اللازم لبناء الأساس".

هدأت الرياح الآن. ربما، كما اعتقدت، انتهى الأسوأ. ولكن كان هذا هدوءاً زائفاً. بدا الأمر وكأن ضربة أخرى ضربت من الأسفل، فرفعت القارب بكامل قوتها. وهبط مرة أخرى في وضع

مُستقيم. ولكن كان هُناك ضغط مُفاجئ في القاع. "ييي..." صرخ صاحب القارب المصري. "انظر!"

تتبعت عينا مُامُا خط إصبعه الذي يُشير به إلى قاع القارب. تسرب - تسرب كبير! وفي ضوء القمر، كان بوسعها أن ترى أن الماء يتصاعد من خلال الفَتِحة التي في القارب. صرخت: "يا رب، ساعدنا". كان قائد القارب الآن، ينزع ملابسه ويحشرُها في الفَتِحة. توقف الماء للحظة. ولكن إلى متى قد يستمر هذا؟

بحثت عينا مُامُا في الفضاء الخافت عن إشارة للمُساعدة، لكن لم يكن هُناك أحد في الأفق. غطت عينيها بذراع مُبللة. "يا رب" شهقت يائسة، "أنا بحاجة إلى المُساعدة. أنا بحاجة إلى المُساعدة. أنا بحاجة إلى المُساعدة!" لكن لم يكن هُناك سوى الرياح المُظلمة للرد على سؤالها. شعرت بالضعف، والحيرة، وشعرت بأنها تبكي في بؤسها. ثم شعرت بصدمة طفيفة. لم تكن هزات الأمواج، بل شيء صلب. ماذا يُمكن أن يكون؟ ليست الأرض، بالتأكيد. خاطرت بالانحناء إلى جانب واحد وأمسكت بشيء صلب يُشبه الساق. ثم سحبت نفسها نحوه. سيقان الذرة! كومة كاملة منها تُبرز فوق الماء. صرخت "توقفوا!" "أوقفوا القارب!" تمكنوا بطريقة ما من التشبث بالسيقان، ووجدوا بعضها مغروساً بما يكفي للتشبث بها للحصول على الدعم وسحب أنفسهم على السيقان. تدفق الماء الآن إلى القارب بُعنف. بعد ثوانٍ انقلب. لكنهم كانوا آمنين على الأقل في الوقت الحالي. يبدو أن جزيرتهم المبنية من سيقان الذرة كانت متينة، وربما آمنة حتى، إذا لم ترتفع مياه الفيضان أكثر من ذلك.

ولكن ماذا يُمكن أن تفعل سيقان الذرة في مثل هذا المكان؟ فجأة، تذكرت مُامْا. بسبب نقص المساحة، كان الفلاح المصري عادة ما يُكدس سيقان الذرة عالياً، والتي كان يستخدمها غالباً كوقود، فوق كوخه الطيني الصغير ذي السقف المُسطح. كانت المنازل المكونة من غُرفة واحدة مُكتظة بالقرى، بحيث لم يكن هُناك سوى طريق ضيق يشبه الزقاق للممر حول المساكن. في بعض الأحيان كانت أكوام سيقان الذرة ضعف ارتفاع الأكواخ. لا بد أن هذا هو الوضع الذي تحتها. لا بد أن شخصاً ما بنى منزله على مستوى مُنخفض للغاية، ثم اضطر إلى تركه عندما جاءت الفيضانات.

كانت مُامْا مُشغولة بالعودة إلى ارض يابسة، إلى الحِمار، وإلى القرية التالية، وإلى جيني، وإلى أطفالها، وإلى مسرجي لتُخبِره أن المال جاهزاً لشراء الطوب. امتلأت بأغنية من الفرح عندما سمعت صوت قارب عابر. ولكن على الرغم من نداءاتهم ولوحهم، استمر القارب في سيره في الظلام. بعد لحظات مر قارب آخر. هذه المرة رآهم قائد القارب في ضوء القمر الكاشف، فتوقف.

كان من الجيد أن تركب ظهر الحِمار مرة أخرى، وأن تسمع صوت حوافره السريعة والثابتة. ما أجمل السرير المصنوع من الألواح الصلبة في مركز الشرطة في القرية التالية!

سيكون من الأفضل أن تعود إلى المنزل في الصباح التالي والمال جاهزاً لبدء حُلمها العظيم. ابتسمت لنفسها "يا رب، أنا عائدة إلى البيت" ثم نامت.

عادت إلى المنزل، وبدأت في العمل بجدية وحرص على مُخططات البناء. باستخدام المَسطَرة والقلم الرصاص والورقة ومُقياس النسب المُناسبة، تمكنت أخيراً من إكمال مُخططات البناء. هذه المرة بدت وكأنها أكملت خطط البناء. لم يستغرق الأمر سوى بضع ساعات للقيام بذلك. وعندما أظهرته لمسرجي، وافق.

في الصباح التالي، قام مسرجي ومْامْا بتثبيت الأساس وحفر الأولاد خنادق الأساس. وبمُجرد الانتهاء، بدأ مسرجي في وضع الطوب الفعلي للمبنى. احتفظ الأولاد بقوالب الطوب المصنوعة يدوياً المليئة بمزيج من الطين والسماد والقش وتمكنوا بطريقة ما من تزويده بالطوب الممتاز.

عندما تم الانتهاء من غُرفة الزاوية حيث يحتفظ مسرجي بأدواته، انتقلت مْامْا وأطفالها إليها.

"إنه مثل روبنسون كروزو تماماً"، قال يوحنا، أكبر أطفالها. كانت القصص الإنجليزية أحد الأشياء المُفضلة لديها. كم مرة أخبرت بهذه القصة، وغيرها من الكلاسيكيات، لهؤلاء الأطفال المصريين؟ لقد فقدت العدد مُنذ فترة طويلة. لقد بدأت في اختلاق قصصها الخاصة الآن - حكايات أخلاقية لبناء حياة أطفالها بشكل أكثر اكتمالاً. ودائماً، بالطبع، كانت تحكي لهم قصصاً من الكتاب المُقدس.

جاءت التبرُعات الصغيرة، ولكنها لم تكن كافية لتغطية نفقات معيشتهم. أتت تلك العطايا من الولايات المتحدة، وخاصة من مناطق فيلادلفيا ونيويورك، حيث تحدثت عن أحلامها في عدد من الإرساليات. كما جاء أصدقاء مصريون جُدد لمُساعدتها. لقد أثلج صدرها إدراك أن مصر بدأت تحبها - كما أنها أحبت مصر.

في عدة مرات، صادفت لِلِيَّان بعض المُرسَلين من دار إرسالية القس برلسفورد في السوق. كانوا دائماً مُهذبين، لكنهم صارمين في تحذيراتهم. لقد ارتكبت خطأ في التوسع في بناء دار للإيتام. من غير المُمكن أن تدعم كل الأيتام المصريين الذين سيأتون إليها. كيف ستُطعمهم بدون أي دخل؟ قد تتعرض حياتها للخطر. ستستاء السلطات المصرية منها. كان من المُحتم أن يحدث شيء رهيب آجلاً أم عاجلاً.

ظلت لِلِيَّان مُبتهجة ومُتفائلة دائماً في حضورهم، لكنها شعرت أيضاً بالاهتزاز قليلاً لفترة من الوقت بعد تحذيراتهم. بالتأكيد، كان المُرسَلين يقصدون الخير على الرغم من تشاؤمهم. "مُعزين لأيوب" قالت بصمت ذات يوم بعد اللقاء. ومع ذلك وجدت نفسها ترتجف.

كانت لديها الفرصة لتتذكر نبوءتهم القاتمة بعد وقت قصير. كان ذلك في يوم صيفي حار، في وقت مُتأخر من بعد الظهر عندما رأت ظلالاً يسقط عبر مدخل منزلهم المُستأجر. كان ظلالاً كبيراً وطويلاً ومُخيفاً. تحركت عيناها لأعلى نحو الرجل الذي كان يسبب الظل. كان طويل القامة إلى حد ما، وملامحه داكنة ووسيماً للغاية، لكن ملابسه كانت مُمزقة ومُتسخة. رأت عينيه تراقب الأطفال الصغار وهم يلعبون في الفناء. ركزت على طفل واحد يلعب في الجانب بعيداً عن الآخرين، للحظة. تتبعت عيناها خط رؤيته. كان هذا الظل يراقب فريدة! فجأة، انطلق شعاع من الخوف عبر لِلِيَّان. درست ملامح الرجل وهو يراقب الطفلة. كانت تلك الملامح تُشبه تماماً ملامح فريدة. هل يُمكن أن يكون هذا والد الطفلة؟ هل يُمكن أن يكون هذا هو الشاب الذي جاء إلى إرسالية القس برلسفورد في البداية وطلب المُساعدة؟ إذا كان هذا هو نَفِس

الرجل، فهو الذي ترك فريدة الصغيرة لتموت، أليس كذلك؟" أطلق أحد الأطفال على الطفلة اسم فريدة، واندفعت الفتاة الصغيرة بسعادة عبر الفناء نحو الطفلة الأخرى. كان الرجل يتحدث ببطء، يتمتم، ويُخرج بعض الأوراق الرسمية من جيبه. كل ما استطاعت لِلِيَّان تذكره لاحقاً، أنه هو الرجل الذي كان يحمل الفتاة الصغيرة الباكية. قال إنها ستعود لزيارتها في وقت ما. فكرت في الحصول على مُساعدة قانونية، لكن دون جدوى. لم تُوقع لِلِيَّان على أي أوراق رسمية تسمح لها بأن تكون وكيلة عن الطفلة في البداية. بكت لفترة طويلة تلك الليلة، ولعدة ليالٍ بعدها. لكن الأسوأ لم يأت بعد. تلقت بعد ذلك بفترة خبر وفاة فريدة.

"كيف حدث ذلك؟" بكت. "كانت بصحة جيدة عندما أخذها؟" ثم انحنت برأسها. كان الأمر بعيداً عن فهمها. مات جزء منها أيضاً مع طفلتها الأولى.

ربما كان من المُفيد أن تذهب في المزيد من رحلات البحث عن الطعام للحصول على المال للعُمال، وكذلك للحصول على الطعام والإمدادات لأطفالها. لقد بني مسرجي الطوب التي كان أولادها يصنعوها. كانت مْامْا تركب حِمارها وتغيب طوال الأسبوع وتعود كل يوم سبت. كانت النوافذ والأبواب تُكلف أموالاً كثيرة. كان يجب أن يحصل كل عامل على يوميته من تسعة قروش في اليوم. كيف ستحصل على كل هذا، لا أحد يعلم إلا الله. لكنها كانت مُتأكدة، إن الله يعلم.

عندما اتصلت بصديقها الجديد، المُدير - مرة أخرى، وجدت أنه على استعداد أكثر لمُساعدتها. اقترح عليها أن تتصل بمكتبه عندما تُريد الذهاب إلى قرية طلباً للمُساعدة. في المُقابل،

كان يتصل بضابط شرطة القرية، وكان شخص ما يلتقي بها ويأخذها إلى منازل الفلاحين، ويقدمها إلى كل منزل في جميع أنحاء القرية. "ثم يُمكنهم أن يقولوا شيئاً آخر غير (سيدة على حِمار)"، قال مازحاً بلطف.

أجابت لِلِيَّان ضاحكة: "لا يهمني ما يدعوني به، طالما أنني أحصل على طعام لأطفالي". ثم أصبحت جادة. قالت: "شُكراً لك على هذا العرض". "سأكون مُمتنة لو أن شخصاً ما قابلني من القرية".

كانت مُساعدات المُدير مُتعددة. كان من دواعي الارتياح الكبير أن تصل إلى قرية أسفل النيل، أو في أطراف الصحراء وتعرف أن شخصاً ما ينتظرها. شعرت لِلِيَّان بمزيد من الراحة في حالة النوم في سجون القرية بعد أن عُرف أنها "ضيفة" رسمية في تلك المؤسسات.

أصبح وصولها وقتاً للعمل الجماعي بين القرويين، والتواصل والسعادة. غالباً ما كان يُقابلها ضابط شرطة القرية نفسه. ثم يأخذها إلى أول منزل في المدينة، حيث تشرب القهوة والماء الفاتر المنقوع من مياه القناة الصفراء الكريمة. كانت تحكي قصة أيتامها، ثم تذهب إلى المنزل التالي، وتحكي المزيد عن أطفالها. ثم ينضم جميع رجال كل منزل إلى المجموعة ويذهبون إلى المنازل الأخرى. أخيراً، عندما ذهبوا إلى كل البيوت كانت لِلِيَّان تزور بيوت القرية، وكل القرى تتبعها. في وقت تناول الطعام، كانوا يجتمعون في بيت واحد ويأكلون. كانت لِلِيَّان تُعامل دائماً باحترام شديد. ومع ذلك، كانت تتوق إلى التعرف على النساء والفتيات. لكن النساء كن يلتزمن بصرامة بالعرف العربي المُتمثل

في عُزلة النساء، فلا ينطقن بكلمة واحدة، بل يقدمن أفضل ما يُمكنهن تقديمه من طعام. وكثيراً ما كانت لِلِيَّان تبتسم لهن بإعجاب. عادة ما كانت زوجة الفلاح جذابة بطريقة صحية، امرأة ذات عيون صافية، وسلوك رشيق، وعادة ما تكون مُمتلئة الجسم، وهادئة دائماً، وتعتبر نفسها مُجرد خادمة في المنزل. في بعض الأحيان، قد تبتسم إحداهن لِلِيَّان، ثم تتوقف فجأة.

كانت مُامْا تحلم بأن تصبح قريبة من النساء المصريات ـ قريبة إلى الحد الذي يُمكنها من مُساعدتهن كما كانت تتوق إلى ذلك. لكن هذا كان في المُستقبل. ففي أوائل العشرينيات من القرن العشرين، أصبحت نساء مصر من أقرب أصدقاء لِلِيَّان. أصبحت بعض النساء الأثرياء الجميلات بطرقهن المُميزة من أشد مُؤيديها وأعز صديقاتها، وساعدنها على اجتياز نصف قرن من الزمان. وأطفالهن تبعهن بدورهن على نفس المنوال.

منزلهم! وبدا أن الأيام السعيدة تمر بسُرعة. لم يكن الأطفال مُثقلين بعبء المسؤوليات كما حدث في وقت لاحق. كان جميع الأطفال قريبين من بعضهم البعض، ويعملون لمُساعدة بعضهم البعض ومُساعدة دار الأيتام. كانت الفتيات الكبار يقمن بالطهي وغسل الأطباق وخياطة الملابس وإصلاحها ورعاية الأطفال، تحت إشراف لِلِيَّان الوثيق. وكان الأولاد يعملون في الخارج، فيكملون جدار الحافة، وينظفون الأرض، ويصنعون الكراسي والسلع الجلدية لبيعها في المدينة. كانت لِلِيَّان تعلمهم اللغة الإنجليزية، التي كانت مُستخدمة على نطاق واسع في مصر، وتقرأ لهم الكتاب المُقدس في غُرفتها في المساء. ثم يأتي وقت الصلاة، ثم النوم.

لكن كان هُناك المزيد من الأطفال الجُدد الذين يحتاجون إلى بيت. كان عليهم توسيع المبنى بجناح آخر. ثم جناح آخر. تدريجياً، أصدقاء جُدد في مصر ساعدوها أكثر. أصبح أكثر من عائلة مصرية ثرية مُهتمين وساعدوا بالعطايا. كان لا بد من توفير المزيد من المساحة للأولاد والبنات الصغار المُرهقين والمُمزقين الذين وجدوا طريقهم إلى بوابات دار الأيتام، واحداً، أو اثنين، أو ثلاثة، أو أكثر في كل مرة. كانت لِلِيَّان قد أقسمت مُنذ فترة طويلة ألا ترفض أبداً اي طفل كان في احتياج. ربما اثنان أو ثلاثة أطفال ينامون على سرير صغير واحد. ربما تخترع طرقاً لجعل الطعام يدوم إلى وقت أكبر. ولكن هل ترفض طفلاً محتاجاً؟ طفلاً يستحق ذلك؟ أبداً!

كانت الفصول تتحرك بسُرعة أكبر الآن. بدأ الأولاد والبنات الكبار في الزواج وإنشاء بيوتهم الخاصة في أماكن أخرى. كانت لِلِيَّان مسرورة برؤية أن هذه البيوت كانت بيوت مسيحية. بدأ الأيتام الجُدد في القدوم بسُرعة كبيرة لدرجة أنهم لم يتمكنوا من البناء بسُرعة كافية. بدأت في أخذ الأرامل اللاتي جئنَ مع أطفالهن وتوسلت إليهن للبقاء أيضاً. في وقت سابق، أخذت مْامْا، الأرملة الهادئة وطفلها الصغير، وأصبحت هذه المرأة رصيداً كبيراً ومُهِمَاً، لدرجة أن لِلِيَّان تساءلت كيف كانت لتُدبر أمور الملجأ بدونها.

في عام ١٩١٧، قبلت لِلِيَّان خمسين. ثم ثمانين. ومع ذلك، جاءوا. بطريقة ما، تمكنت لِلِيَّان من توفير الطعام والملابس والسرائر لجميعهم.

عندما كانت المُساعدات المالية وفيرة، كانوا يأكلون بوفرة؛ عندما كان الطعام مُنخفضاً، كانوا يديرون أمورهم كما تستطيع لِلِيَّان فقط أن تعمل. أثبتت جيني أنها قد قامت بمُساعدة هائلة في إدارة إمدادات الغذاء. لا يستطيع أحد أن يفعل الكثير بالقليل مثل أخت لِلِيَّان الكبيرة. ليس فقط بالطعام، ولكن بكل الطرق، كانت جيني مُفيدة جداً. كانت غير مُزعجة دائماً، ولا تطلب أي شيء، كانت محبوبة من الجميع، وكان الأطفال الصغار يتبعونها بشكل خاص. كانت تفحص آذانهم للتأكد من نظافتها، ثم تحتضنهم برفق وتمنحهم قطعة من الحلوى. كان من المُعتاد أن ترى مجموعة من الأطفال الصغار يمشون خلف جيني، راغبين في فحص أذانهم لأنهم كانوا يعرفون أن الحلوى ستكون جاهزة لهم بعد الفحص.

كانت لِلِيَّان تطلق صلاة شُكر في كثير من الأحيان من اجل جيني، لأنها كانت هادئة جداً لدرجة أنه كان من الصعب في كثير من الأحيان إدراك أن جيني موجودة في دار الأيتام، ومُتفهمة جداً من خضم المشاكل، ومُحبة للغاية لأولئك اللذين من حولها عندما كانت الحاجة إلى الحُب غالباً ما تكون أكثر إلحاحاً من أي سلعة أخرى - حتى الطعام. كانت جيني قديسة راضية لم تطلب سوى مُعروف صغير واحد: أن تتولى لِلِيَّان مسؤولية تمويل وإدارة دار الأيتام. كانت جيني تحل محل أختها، وتُكمل صفاتها، وتحب بهدوء كل من حولها طوال الوقت.

تساءلت لِلِيَّان ألف مرة أين ستجد طعام اليوم التالي لعائلتها المصرية والكبيرة. كان يأتي الطعام دائماً. كانت تصلي دائماً دون انقطاع. ثم تركب حِمارها وتسمع وتذهب إلى حيث يبدو أن الرب يأمرها بالذهاب.

في القرى المصرية كانت تجد المُساعدة دائماً. ولكن في كثير من الأحيان لم يكن هُناك مكان مُناسب لنومها. كان النوم على الأرضيات الترابية وسط الفئران والبراغيث أمراً لا تستطيع تحَمُله. كانت تشد الحبل حول رقبة الحِمار وتقول له: "تعال يا صديقي، لم يكن هُناك مكان لربنا الطفل يسوع أيضاً، فمن نحن حتى ما نشتكي؟" كانوا يمشون بتعب إلى مركز الشرطة لقضاء ليلة النوم في السجن. وإذا خطر ببالها أن هذه حالة غريبة لشابة من أعماق اقصى الجنوب في أمريكا، كانت يطرق من ذهنها بدفعة سريعة. هذه هي حياتها. مصر بكل فقرها - أيتام وأرامل منكوبون يحتاجون إلى الحُب والطعام والمأوى مثل كل أطفال الله.

تدريجياً، تعَرَفَ عليها أهل القري وأحبوها. وعندما رأوا الحِمار يحمل المُرسلة الأمريكية على ظهره، كانوا يلوحون ويقولون لبعضهم البعض:

"ها السيدة على الحِمار قادمة! لقد قطعت شوطاً طويلاً في حرارة الصحراء. كم تبدو مُتعبة ومُرهقة!"

"كيف يُمكن لأي شخص، باستثناء المصري، أن يتحمل حرارة الصحراء هذه؟"

"ولكن أليست هي الآن، مصرية حقاً، لأنها كانت واحدة منا مُنذ فترة طويلة؟"

أصبحت تلك السنوات المُبكرة سنوات رائعة. بطريقة ما، استمرت في تقديم التبرُعات التي كانت تعلم أنها تأتي من الله: تم تشكيل طائفة جديدة، وهي الكنيسة الرسولية في أمريكا في عام ١٩١٤، وأصبحت هذه الطائفة الرسولية مُهتمة بعملها، لدرجة

أنهم غالباً ما أرسلوا براميل من الملابس، وعندما أمكنهم - أرسل أعضاءها الأفراد المال، غالباً بتضحيات شخصية كبيرة. ثم استمرت التبرعات في التدفق من الأصدقاء المصريين، الذين ظهروا تدريجياً من القُرى والمُدن والريف للمُساعدة. لم تفشل إرسالية نيويورك الصغيرة في إرسالها لأي نوع من العطاء في كل شهر.

كانت تكتب دائماً إلى المُتبرعين وتشُكرهم بلطف، وتُخبرهم بمدى تقديرها لهم وتشرح احتياجات دار الأيتام عندما تراهم. جلبت التبرُعات الإضافية المزيد من الشُكر. كان قلب مْامْا مليئاً بأطفالها واحتياجاتهم، لدرجة أنه كان من السهل التحدث عن ذلك وكتابة رسائل تقول "شُكراً لكم". غالباً ما كانت تُرسل صوراً، حتى يتمكن المُتبرعين من رؤية ما تفعله بأموالهم. وبصرف النظر عن حجم كومة البريد على مكتبها أو طول اليوم وشدته، كانت تضغط على نفسها في الرد شخصياً على كل رسالة في نفس اليوم الذي تلقتها فيه. كان شعارها "لا تترك رسالة تمُر بين عشية وضحاها". كانت تلتزم بهذا الشعار طوال خدمتها.

كيف قدر مُتلقى الرسائل هذه الصفة! يقول أولئك الذين تلقوا رسائل لِلِيَّان إنهم لم يتلقوا "شُكراً كاملاً" حقاً في حياتهم حتى شكرتهم لِلِيَّان على عطاياهم لدار الأيتام!

بحلول صيف عام ١٩١٨، كان هُناك أكثر من مئة شخص في دار الأيتام. قد يبدو هذا العدد متأخر بدقيقة واحدة، لكنه يبدو الآن ضخماً عندما كان لا بد من تجهيز الطعام والإمدادات لهم في كل يوم، وكل ذلك بالموارد الضئيلة المتاحة نسبياً. كان المُستقبل بعيداً، بعيداً جداً. كانت المُشكلة هنا في الوقت الحاضر. كانت

موجودة في كل مكان حولهم، معهم في الفجر من كل صباح، وعلى طاولات الطعام عندما يحين وقت الطعام، وفي الليل عندما يحتاجون إلى سرائر للنوم. فبحلول ذلك الوقت، كانت لِلِيَّان قادرة على شراء المراتب والسرائر، ليس فقط لأطفالها، بل وأيضاً لجيني ولها. كان من الجيد أن تنام على مرتبة ونوابض قطنية حقيقية كتغيير. نعم، كان الحاضر مُشكلة مُستمرة، ولكنها رائعة بالنسبة لِلِيَّان. إن المُستقبل بعيداً جداً بحيث لا يُمكن التفكير فيه. ربما كان من الأفضل. ربما كانت لمحة من المُستقبل لتُخفف حتى قلب لِلِيَّان المُترقب.

الفصل التاسع

اختبار حماية الله

إنها ترى العيون دائماً. أينما ذهبت، ومهما فعلت، وبغض النظر عن عدد الساعات التي قضتها في حرارة الصحراء الحارقة، كانت عيون مصر تراقبهما هي وحِمارها. في دار الأيتام الكبير، رأت عيون أطفالها تراقِبها بحُب وهي تُغادر لتبحث من قرية إلى قرية عن الطعام اللازم لإطعام أولئك الذين كانوا يعتمدون عليها. كانت عيون جميلة، عيون أطفالها. جميلة بشكل مُخيف، وصافية، وداكنة، ومُهدبة بشدة مع رموش طويلة مُنحنية. عيون مُبتسمة، مُمتنة جداً لمُامْا الأمريكية لدرجة أن امتنانهم أشرق بتوهجهم عند احتضانها لهم. عيون حزينة، تتذكر الماضي المأساوي قبل أن تأتي إلى أحضان مُامْا الممدودة الرحيمة. لم تمنحهم مُامْا الحُب فحسب، بل: الخُبز والبصل والفاصوليا والأُرز والخضروات الطازجة ... حتى اللحوم والفواكه عندما يتسنى لها أن تتوسل من أجلها - وطوال الوقت كانت تُحبهم بحُب عظيم لدرجة أن آخر طفل بينهم يُمكن أن يشعر به. آه، تلك العيون المصرية الجميلة!

قد أشرق النهار الآن وكانت مُامْا على وشك البدء في إحدى رحلاتها في البحث عن الطعام. قامت بتنعيم بردعة حِمارها في المذود بخلف دار الأيتام، وتأرجحت على ظهره، جانبياً. للحظة، تساءلت كيف سيكون الأمر لو كان لديها سرج، حتى تكون الكيلومترات الطويلة الحارة عبر الصحراء أقل إرهاقاً، سرج جانب جلدي جميل. دفعت فكرة السرج الجلدي الجميل من ذهنها

بحزم. سيكون لديها سرج عندما يكون الربُ مُستعداً لها ان تملك واحد.

في يوليو ١٩١٨، ركبت حِمارها بصمت حول جانب عنبر النوم الرئيسي. لم يحن الوقت بعد لاستيقاظ الأطفال لبضع دقائق. بعد فترة وجيزة. عرفت مْامْا أنهم سيكونون مُستيقظين، ويستحمون ويرتدون ملابسهم، ويذهب كل طفل إلى عمله الروتيني أو إلى فصله. كان هذا الصباح هو يوم الثلاثاء، مدرسة العمل بالجلود للأولاد الكبار، ودروس اللغة الإنجليزية، ثم دروس الخياطة للفتيات الصغار، والفتيات الكبار يُعلِّمِن الصغار ما علمتهم مْامْا إياه.

لقد لفت انتباهها صوت نقرة خفيفة على النافذة فوقها. نظرت إلى أعلى رأسها لتجد وجهاً صغيراً يبتسم من نافذة في الطابق الثاني. كان صبياً صغيراً مُمتلئ الجسم لا يزال يرتدي ثوب النوم الأبيض، وكان يُرسل لها قُبلة، وينقر النافذة بيده الأخرى لجذب انتباهها. إنه كان أنور. كان في الرابعة من عمره الآن. تذكرت اليوم الذي جاء فيه كطفل صغير. كان وزنه أقل من كيلو جرام. كان نحيفاً وضعيفاً جداً، لدرجة أنها لم تتخيل أنه سيعيش في تلك الليلة الأولى. لذلك لفّته بعناية وأخذته إلى المستشفى الأمريكي في قسم آخر من أسيوط. هُناك وضعه الطبيب في الحاضنة، وقدمت له المُمرضات رعاية مُخصصة. ربما بعد أن صلت، ربما يحيا بعد كل شيء. لقد طلبت من الله أن يعتني به، ثم سارعت في العودة لرعاية أم الطفل العمياء التي ستبقى مع الأرامل الأخريات في دار الأيتام. تنهدت بحُزن قليلاً وهي تتذكر أمه المسكينة، وتُرسل له قُبلة في المُقابل. لقد توفيت والدة أنور بعد فترة على الرغم من كل الرعاية والمُحبة التي تلقتها.

نظرت مْامْا إلى الوراء مرة أخرى وهي تبتعد. كانت النافذة مملوءة بالوجوه الصغيرة الآن، عيونهم متوهجة بالدفء الذي كانت مْامْا تعرف أن هذا لا يُمكن أن يولد إلا بالحُب. نبيه وفؤاد ونهاد وصباح وفريد وسعيد - استطاعت أن تراهم يلوحون بفرح وابتسامة على كل من عيونهم. من جناح آخر من المبنى، رأت مجموعة من الفتيات الصغيرات يلوحن لها. عيناها الحادتان من النظر إلى مسافات الصحراء التي لا نهاية لها، وجدت ليلى الصغيرة البالغة من العمر عشر سنوات. "ليلى عزيزتي" قالت لنفسها بهدوء. "كم أُحَبَكِ! "كم أُحَبكِ!" قد أتت الفتاة الصغيرة إليها قبل ثلاث سنوات. كان لا بد من بتر قدمها. كانت والدتها، التي أصبحت أرملة مؤخراً، ترغب في الزواج مرة أخرى ولم تكن تُريد الطفلة المشلولة عبئاً في طريقها. لذاك طردتها. لقد تعثرت الطفلة في مشيها للكثير من الكيلومترات في حرارة الصحراء ولم يكن لديها سوى عصا لتُساعدها. بالطبع، أخذتها مْامْا. ولأنها كانت مشلولة، فقد كانت في احتياج إلى حُب مْامْا أكثر من أي وقت مضى. كانت مْامْا تعلم أن هذا يتناقض تماماً مع موقف مُعظم الأمهات المصريات. فقبل كل شيء، كُن يُحبن أطفالهن. كانت أسرهن مُقيدة بحُب قوى. ليلى الصغيرة المسكينة، كانت والدتها غير ذلك لأنها لم تُكن تُحبها لأنها مشلولة!

لوحت بيدها مرة أخرى الآن، ووجهت وجهها نحو الصحراء. كان لكل من أطفالها قصته المأساوية والمُثيرة للشفقة. كان من الأفضل لهم جميعاً أن ينسوا الماضي ويعيشوا للمُستقبل. "يا رب، أي طريق؟" أغلقت عينيها واستمعت.

في لحظة بدأوا في التحرك جنوباً إلى قرية جديدة لم يسبق لهم أن ذهبوا إليها من قبل. هل سيستقبلون مْامْا وحِمارها؟ بالطبع

سيفعلون ذلك. كان المُدير المصري قد اتصل بضابط شرطة القرية الذي سألته. لكن في هذا الصباح لم تكن لديها أي فكرة عن المكان الذي كانت ذاهبة إليه. شيء واحد كانت تعرفه بالتأكيد، رغم ذلك: يجب عليها، وهي امرأة أمريكية، أن تخرج اليوم وتتوسل - لا، لن تتسول، بل لتطلب الطعام للأطفال المصريين الجائعين. طلبت باسم ربها.

كانت الشمس قاسية اليوم. بدت أكثر حرارة من اليوم السابق عندما وصلت إلى ٤٨ درجة تحت الظل. أحرقت الحرارة جلدها، وبدا أنها يحترق شَعرها ايضاً، كانت درجة الحرارة شديدة جداً، حتى في الصباح الباكر. تمايل جسدها وتأرجح وتأرجح وتأرجح وتأرجح، تابعاً إيقاع حركة الحِمار الميكانيكي. وبعد فترة، ابتعد ذهنها عن حرارة الصحراء وعاد مُباشَرَةً إلى حضانة "الصغار" كما كانت توصِفها بحنان. وبدأت في التخطيط لبيت كانت تأمل أن تمتلكه لنفسها. سوف يكون مظللاً بشكل جميل يحميها من أشعة شمس الصحراء، مع صفوف أنيقة من أشجار الفاكهة. وربما سيكون هُناك فدان واحد حيث يُمكن أن تستريح وحيث يُمكن للأطفال الصغار الرُضع والأطفال الكبار اللعب في الهواء النقي. وضعت يدها على جبينها بتعب. في الآونة الأخيرة لم تستطع معرفة الفرق بين الذهاب إلى الفراش والاستيقاظ. كانت تعبانة في الصباح كما كانت في الليل. ربما يعني هذا البيت مثل الهروب من الهموم العظيمة - على الأقل في الليل، تنهدت. كانت الحضانة الصغيرة مملوءة دائماً بالأطفال الجُدد. ومع ذلك، بدأت تدريجياً في تدريب الفتيات الكبار على أن يصبحن أمهات للصغيرات.

كان لكل شابة من الفتيات ستة أطفال، وكان من اللافت للنظر مدى وعيهم في رعاية أطفالهن الصغار. كان لا بد من تجهيز تركيبات الحليب، اصلاح الملابس وتعقيم الزجاجات، وإعطائهم الفيتامينات، وتغيير الحفاضات التي لا مفر منها. كان من الرائع الاعتناء بالأطفال الصغار. أغمضت مُامْا عينيها للحظة، وهي تحلم بما قد يكون عليه الحال إذا لم يكن لديها ما تفعله سوى رعاية الأطفال في ذلك البيت. ومع ذلك، كانت لديها الكثير منهم وكانت دائماً مسؤولة عنهم. كانت تُفكر في شكل الأطفال عندما يكبرون من أجزاء ضعيفة من الجلد والعظام والروح، وغالباً ما كانوا يُعانون من مرض عندما جاءوا إلى دار الأيتام وأصبحوا الآن أطفالاً مُمتلئين وصحيين. وأدركت أن كل واحد منهم لديه شخصيته الفردية التي يجب أن تنمو، حتى لا يكون مُجرد رقم آخر في آلة حسابات كبيرة، بل فرداً حياً ورائعاً ومحبوباً. فكرت في المُساعدة العظيمة التي قدمها لها الأطباء والمُمرضات في المُستشفى المشيخية الأمريكية. كيف كانت لتُدبر أمورها بدونهم؟ كانت أطفال مُامْا حديثي الولادة ضعفاء ومرضى دائماً، ولم يكن من المُمكن أن يعيشوا بدون الحاضنات والعناية المُخصصة من قبل المُمرضات والأطباء. كان هذا ما تلقوه في المستشفى المشيخي الذي يُديره المُرسَلين الأمريكيين. هل كان من المُهم أنهم كانوا مُرسَلين مشيخيين، وأنها ليست كذلك؟

كم كانت هذه الأشياء غير مُهمة في الواقع.

فكرت مرة أخرى في سنواتها الأولى في مصر. ربما كان من الأفضل أن يكون التطور بطيئاً في البداية. ألم يكن لديها الوقت الكافي لتتعلم الكلام باللغة العربية الصعبة في تلك السنوات الخمس؟ كيف استطاعت إدارة المسؤولية التي جاءت لاحقاً مع

الزيادات الكبيرة من أعداد الأطفال؟ هل كان بإمكانها رعاية جميع الأطفال في تلك الأيام الأولى قبل أن تُدرب بناتها على رعايتهم أثناء غيابها؟ لقد كانت قادرة على تدريب هؤلاء الأطفال القلائل جيداً، عندما كان لديها أربعين أو خمسين فقط، بدلاً من مئة. الآن، مع تولي الفتيات الكبار المسؤولية، دربوا الفتيات الصغار على تولي المسؤولية عندما يتخرج الفتيات الكبار للزواج.

ماذا لو أُعطيت ألفاً لرعايتهم في العام الأول؟ عرفت الآن أنها يجب أن تكبر بنفسها مع هذه المسؤولية الجبارة. كم كانت شابة ومُتهورة! كيف يُمكن أن تعيش يوماً بيوم كما تفعل الآن، دون أن تعرف كيف ستجد طعاماً لجمهورها في اليوم التالي؟ لقد كان الأمر على هذا النحو دائماً. كان من الأفضل وبالتأكيد أن الله يعرف. شيء واحد كانت مُتأكدة منه: مُنذ البداية، كان يُلبي الله كل احتياجاتها. أخيراً عاد تفكيرها إلى مُتطلباتها الفورية لهذا اليوم. كانت ذاهبة إلى قرية جديدة في أطراف الصحراء. يجب أن تفكر، وتفكر، وتفكر. تنسى حرارة الصحراء التي كانت ٤٨ درجة مئوية تحت الظل وتفكر في أشياء مُهمة مثل - كيفية إطعام مئة طفل جائع في اليوم التالي.

كان ذلك في الثالث عشر من نوفمبر ١٩١٨. غادرت جيني إلى أمريكيا. احتاجت مُمتلكاتها المُستأجرة في لونج بيتش، كاليفورنيا إلى الاهتمام لفترة طويلة بحلول ذلك الوقت، وعندما سُمح لها بالسفر عبر المُحيطات، صعدت على سفينة إلى موطنها الأمريكي.

تنهدت مْامْا لِلِيَّان بارتياح عميق في اليوم السابق لسماعها بتوقيع هدنة لإنهاء الحرب العالمية الأولى. فقد انتهت الحرب التي

لم تكن مصر تُريدها والتي جرتها إليها إنجلترا، مَحميتها، فقد انتهت رسمياً. ولكن في مصر، تركت الحرب استياءً عميقاً. فقد تم القبض على الفلاحين المصريين التعساء في الطريق السريع وفي حقولهم دون إنذار مسبق وإرسالهم تحت الحراسة إلى الخدمة في الحرب. وكان مطلوباً من كل مُدير أن يُرسل شهرياً عدداً محدداً من الرجال القادرين على العمل من مُحافظته أو مواجهة العواقب. لذا، كان هُناك استياء مرير. والآن بعد هدنة الحرب، كان الشعور بسخط عميق داخل مصر. نفذ صبر المُدن. وكان الفلاحين غير راضين. ولم تكن الرواتب والأجور تواكب تكاليف المعيشة، وبدأ العامل وأسرته يُعانون من الجوع الشديد. ولجعل الأمور أسوأ، كانت طلبات التجنيد من الجيش قد اعفت النبلاء وأفراد عائلتهم.

وفي خضم هذا، تم صياغة قانون الأسلحة في عجل من قبل الإنجليز. وأعلن القانون أن كل المصريين لا بد أن يُسلموا أسلحتهم للشرطة. وأدى مُحاولة فرض القانون إلى انفصال مأساوي بين المصريين والسادة البريطانيين. ففي مصر لم يكن رب الأسرة المُحترم يتجول بلا دفاع خوفاً على سلامته.

ومع اقتراب الحرب من نهايتها، تشجعت مصر بكلمات الرئيس الأمريكي ودرو ويلسون للدول الصغيرة في العالم. كان الأمل هو أن تمنح إنجلترا مصر قدراً من الاستقلال مع عودة السلام موضوعاً شائعاً للمحادثات في البيوت المصرية. وفي تحدٌ للحكم الذي يحظر الاجتماعات العامة، بدأ المصريون في التجمع والتحدث خلف الأبواب المُغلقة حول كيفية الاستفادة من تشجيع الرئيس الأميركي للدول الصغيرة.

في ١٣ نوفمبر ١٩١٨، وصلت أخبار مأساوية أكثر إلى الجماهير. ففي هذا اليوم، طرق سعد زغلول باشا، الزعيم الثوري والشعبي في مصر، باب مقر الإقامة البريطانية في القاهرة. كان وطني وسيم أحد ثلاثة زعماء اختارهم بعض رجال مصر البارزين للاحتجاج على المُعاملة المُهينة التي كانت تتلقاها بلادهم تحت سيطرة الإنجليز.

كان موضوع حديثهم في ذلك اليوم هو استقلال مصر. تنازلات، نعم - حق إنجلترا في احتلال قناة السويس عندما تُهدد بالهجوم وقبول السيطرة الإنجليزية على الدين العام، ولكن الاستقلال!

كان هُناك الكثير من الاضطرابات، والكثير من المُساومات. وفي الوقت نفسه عاش المصريون تحت الأحكام العُرفية. أخيراً، تم القبض على الزعيم الوطني زغلول وثلاثة من أهم أتباعه في ٨ مارس ١٩١٩، وتم ترحيلهم إلى مالطا. كانت مصر مليئة الآن بالغضب الشديد والاستياء. كان التمرد أمراً لا مفر منه. ثم انفجرت الثورة الشعبية. في أوائل شهر مارس من عام ١٩١٩، بدأ التاريخ في نقش المأساة بالدم والنار على وجه مصر الحبيبة لمْامْا لِلِيَّان.

وفي السنوات اللاحقة، اعتبر العام أشبه بشبح مُخيف يمر في الليل. ولكن في الواقع، كان العام أكثر رُعباً واقعياً، وقسوة وحتمية في أُمة قديمة من قدم الزمان، ولكنها جديدة في أحلام الاستقلال. لسنوات، كانت إنجلترا تَعِدُ بالخروج من مصر وإعطاء الشعب المصري الاستقلال. شعر الكثيرون أن هذا هو الوقت المُناسب لانسحاب الإنجليز.

ثم أطلقت رصاصة على طيور الحمام لفلاح، فحركت الأُمة المصرية.

قرأت مْامْا لِلِيَّان عن ذلك في وقت مُبكر من صباح أحد الأيام في إحدى الصحف. وذكرت التقارير الإخبارية أن البريطانيين أطلقوا النار على ستة فلاحين أمام عائلاتهم انتقاماً لرجل إنجليزي طارده فلاح مصري وتوفي بنوبة قلبية نتيجة المُطاردة. لقد بدا الأمر وكأن الإنجليزي قد قتل بعض حَمَام الفلاح، وبما أن القانون في مصر لا يسمح بمُحاكمة الإنجليز بأي تُهمة، حتى جريمة القتل، فقد حاول الفلاح حماية مُمتلكاته الثمينة بالطريقة الوحيدة التي كان يعرفها. لقد طارد الأجنبي الذي لم يتمكن من محاكمته أو تقديمه للعدالة. لقد أمرت السلطات البريطانية بإعدام ستة فلاحين مصريين. وهذا في حد ذاته ظُلم صارخ للشعب المصري. وما جعل الأمر مأساوياً بشكل مُضاعف هو أن الرجال المصريين الستة أُطلق عليهم الرصاص أمام عائلاتهم. وقد أُشير إلى أن خمسة منهم لم يكن لهم أي صلة بموت الإنجليزي بأي شكل من الأشكال. لقد كان ذلك انتقاماً، ستة أضعاف.

لم تستطع مْامْا لِلِيَّان أن تُصدق الأخبار. فقد تألم قلبها لأصدقائها في كل أنحاء هذه الأرض التي تبنتها. لقد سمعت عن التمرُد المصري من كل جانب. وفكرت في البدايات الأولى لوطنها الأمريكي. مصر الحديثة الآن مُقارنة ببلدها في عام ١٧٧٦.

بدأت تسمع عن المزيد من التمرُدات. لقد اقتربت، ثم وصلت بقوة قاتلة ومُتفجرة في أسيوط. بدأت الأعمال الانتقامية

ضد الإنجليز الذين كانوا عائشون في أسيوط بشكل جدي. وصلت تقارير عن تدمير وحرق منازل بريطانية قريبة من دار الأيتام. دوى صوت المدافع بشكل يُنذر بالسوء. على سد النيل بالقرب منهم تم بناء القناطر، وهو أحد العديد من سدود نهر النيل، بطريق في الأعلى لتسهيل السفر عبر النهر. أصبح الطريق المفتوح الآن، حاملاً للخطر على مُامْا وأيتامها.

بدأت مُامْا تراشر فترة لم تكن هذه الأيام والليالي خالية من الخوف ولو للحظة. فجأة، أحاط بهم الرجال المُقاتلون، وبدون إنذار مسبق كان هُناك غرباء يحملون السكاكين والهراوات والبنادق داخل وخارج دار الأيتام، حتى أن بعضهم كان يبقى هُناك في الليل. ذات مرة، وجدت نفسها وأطفالها مُتجمعين في فُرن قديم للطوب بالقرب من دار الأيتام، في محاولة يائسة لمنع الأطفال من البكاء لكيلا يُكشف عن مكانهم. لن تنسى مُامْا أبداً، تلك الليلة من شهر مارس عام ١٩١٩.

في الظلام المُخيف، مع دوي إطلاق النار في الخلف ومن كل جانب من دار الأيتام، جمعوا الأطفال معاً في مكان واحد. أخبرتهم بإيجاز بأن يكونوا هادئين جداً، وأن يسرُعوا بأسرع ما يُمكن إلى فُرن الطوب القديم والذي كان على بُعد حوالي أكثر من نصف كيلو متر من أمام المباني الرئيسية. حملت الفتيات الكبار الرُضع والأطفال الصغار، واحدة تحت كل ذراع. ثم أغلقت مُامْا الباب، ولفَّت ذراعيها حول طفلين صغيرين. كانت بقرتهم الوحيدة في الفناء الداخلي، لذا كانت آمنة ما لم يتم أُقتحام الملجأ. ارتجفت مُامْا. كانت دار الأيتام مليئة بالموارد الغذائية الأساسية والفراش والأشياء الثمينة من كل نوع – تماماً ما يُريده اللصوص. أخذت

نقودها وكتابها المُقدس وبدأت في المشي وهي تحمل أطفالها الصغار بإحكام.

كانت أنفاس النيران المُشتعلة تحرق سماء أسيوط ليلاً. كان مصنع للتبن قد اضرمت فيه النار حالاً، واشتعلت النيران في عشرات المنازل الإنجليزية التي كانت تحترق على الطريق بينها وبين القسم الرئيسي من المدينة؛ وكانت مباني المتاجر تحترق أيضاً. كانت أسيوط الجميلة الآن شعلة واحدة كبيرة تتجشأ ضد السماء السوداء النفاثة. دوى صوت البنادق عبر النيل، واخترق الصراخ الليل. من حولهم، شعرت مْامْا بقدوم القتال. تعثروا، مُسرعين ولاهثين في الظلام، وذهبوا بصمت نحو الفُرن. ثم حدث ما حدث. شعرت مْامْا به قبل أن تسمعه.

انقبض قلبها عند صوت ارتطام خافت خلفها. ثم سمعت صرخة حادة. التفتت. لقد تعثرت إحدى الفتيات بشيء حاد وأسقطت طفلة. كانت عين الطفلة تنزف بغزارة. خاطرت مْامْا بتسليط الضوء على الوجه الصغير عندما شعرت بالدم ينزل من وجهها عليها. فحصت العين بسُرعة، وسقطت على الأرض حيث كانت الطفلة. وبرزت مؤخرة بندقية في الهواء. شعرت بجسم كبير بالقرب من البندقية - انكمشت عندما سلطت الضوء عليها للحظة. أنه كان جُندياً بريطانياً ميتاً مُلقى على الجانب الآخر من الطريق، والدم لا يزال ينزف من وجهه المُشوه. نظرت مرة أخرى إلى الطفلة المُصابة وقالت: "الحمد لله، لقد تفادت عينها"، ثم ضغطت بمنديل على الجرح. تجولوا حول الرجل الميت وجروا نحو الفُرن. بأعجوبة، لم تبكِ الطفلة.

استقرت لِلِيَّان بأمان في الفُرن القديم، حيث اعتادت عيناها على الظلام الدامس، وفي ضوء القمر تمكنت من عد الرؤوس. ورغم وجود أكثر من مئة شخص في دار الأيتام الآن، إلا أن مْامْا لِلِيَّان كانت تعرف الجميع. وفجأة شهقت. هل كان ذلك مُمكناً؟ أحصت الرؤوس الصغيرة مرة أخرى بسُرعة وتجمدت من الخوف للحظة، مُدركة أنها ستضطر إلى القيام برحلة أخرى عبر المنطقة المُظلمة والخطيرة. قالت للفتاة الأقرب إليها بهدوء: "سأعود إلى مَسكَن الأطفال. لا يزال هُناك طفلان!"

سمعت الفتاة تختنق بالبكاء، ثم شعرت بها تَمْسِك بذراعها. "مْامْا، ستُقتَلِين إذا خرجتِ إلى هُناك الآن. انظري!"

امتد القتال الآن بين المصريين والبريطانيين إلى مُقدمة المباني. مزق طلقات الرصاص الظلام بُعنفها وكانت هُناك أصوات رجال يهرولون بحثاً عن مأوى، ويقاتلون بالسكاكين، يقاتلون بالهراوات، ثم يهرعون بحثاً عن مأوى. صرخات الجرحى والمُحتضرين، وصيحات المُنتصرين اخترقت هواء الليل.

لكن مْامْا لِلِيَّان، التي كان عقلها مُركزاً على الطفلتين اللذين كانا في خطر هُناك في المبنى المهجور، انزلقت بهدوء إلى الليل، وهي تُعانق الأرض وهي تَجرِي. بدا أن لحظة تمر قبل أن تصل إلى المدخل الخلفي. في داخل المبنى، سارعت إلى الطابق العلوي إلى غُرف الأطفال الكبار وشعرت براحة كبيرة عندما وجدت الطفلين الصغيرين يئنّان في الظلام. همست لهما بارتياح، وأمسكت على عجل ببطانية، وغطتهم ووضعتهم بأمان بين ذراعيها. ثم، إلى الطابق الأسفل. سارت بسُرعة إلى المدخل

الرئيسي، واختبأت هُناك في الظلام لدقائق والتي كانت تمثل كأبدية طويلة. أخيراً، بدا أن إطلاق النار يتجه بعيداً إلى الجانبين الآخرين. ثم ركضت بالتناوب وزحفت نحو الفُرن، مُصلية ألا يجذب الأطفال الذين تحمِلُهم الانتباه بالبكاء.

قالت بهدوء: "مْامْا هنا، يا أطفالي". "أنتما الآن بخير. سيُساعدنا الله في الوصول إلى هُناك بأمان".

في مُنتصف الطريق، ترددت، وتذكرت الرجل الميت والبندقية الملتصقة في الطريق المُظلم. إذا تمكنت من تجنب تلك العقبات، فقد شعرت بالتأكيد أنها تستطيع إكمال بقية الطريق. لكن فجأة، سَمعَت صيحات خلفها، ثم دوى صوت طلقتين. أمسكت بالطفلين بإحكام أكثر في رُعب وبدأت في الجري مرة أخرى. لم يستطع الرجال المُقاتلون معرفة أنها مْامْا تراشر وتحمِل اثنين من أطفالها المصريين إلى بر الأمان. لم يتمكنوا من الظلام النافز التعرف من تحديد هويه الراكض، إذا أرادوا القيام بذلك. انفجرت الصيحات في هواء الليل مرة أخرى. أدركت على وجه اليقين، أنهم كانوا وراءها الآن.

بصمت، سقطت فيما بدا أنه خندق جانبياً، لمنع إيذاء أطفالها. بعد ذلك، أدركت أن كاحلها ألتوى بشكل مؤلم. لكنها استلقت هُناك وهي تصلي في صمت. بعد دقائق أدركت أنها سقطت في مُستنقع طفيف وكانت مُستلقية بجانب الجندي البريطاني المَيِتْ. أنه كان المكان الأكثر أماناً الذي كان يُمكن أن يسقطوا فيه. لقد كانت الجثة الميّتة هي الحماية الوحيدة التي كانت لديهم. بالكاد لاحظت مْامْا الألم الشديد الذي انتشر بعُنف من كاحلها الأيمن إلى رجلَيها. بدأ الكاحل ينبُض بلا رحمة، لكن لم

يكن هُناك وقت للتفكير في الأمر. بكى أحد الأطفال، وأجاب الآخر بأنين مثله.

"شششش..." قالت مْامْا لِلِيَّان. "الله يُحبكم يا أعزاءي. اصمتوا كثيراً وسترنم مْامْا لكم". ثم بدأت تغني بهدوء شديد، بنغمات هامسة، بينما كانت خطوات البحث تسحق الأرض الجافة من حولهم. وبد أقرب وأقرب حتى شعرت بأنهم يمشون عليها. ثم خطت قدم أحدهم على كتفَهَا. تقلصت من ألم الثقل لكنها لم تُصدر صوتاً. من الواضح أن صاحب القدم اعتقد أنه كان يمشى في الظلام على الجندي الميتْ. رفع قدمه وتحرك. انطلق صوت الطلقات من الجنوب وهرعت خطوات البحث بعيداً عنها. أن، أحد الأطفال مرة أخرى الآن.

"شششش..." قالت مْامْا. "يسوع يُحبني، هذا ما أعرفه"، ترنمت بصمت، وهي تصلي أثناء قيامها بذلك حتى يهدأ الطفل الخائف. "لأن الكتاب المُقدس يُخبرني بذلك". فجأة، انطلقت رصاصة من أعلى، وانفجرت بقوة بالقرب من وجهها، وخَنَقهاَ الغُبار. بيدها الحرة، قامت بتنظيف التراب من وجهها. أكملت ترنيمتُهاَ، "الصغار ينتمون إليه. إنهم ضعفاء، ولكنه هو قوي..."

أخيراً، تلاشى صوت الطلقات. كان هواء الليل المُظلم هادئاً. هل حان الوقت للهروب؟ "يا رب، هل حان الوقت؟" استمعت إلى إجابة. وجدتها في لحظة صمت آخر حولها. سُرعان ما أمسكت بطفليها بقوة، وفي نفس الوقت همست بصلاة طلباً للمُساعدة والإرشاد - وركضت. أخيراً، وهي تتنفس بصعوبة، تسللت إلى داخل غُرفة فُرن الطوب القديم وغرقت في الأرض

الترابية. كشفت عن الطفلين الذين كانا بين ذراعيها، وعانقتهما برفق قبل أن تُسَلِمُهم للفتيات الكبار.

"مْامْا" قال صوت خافت، "كُنا نُصلي إلى الله أن تعودي إلينا ولا تُصابى بطلقات الرصاص". ثم انكسر صوت بناتي. "لو حدث لكِ أي شيء... ضرر"

"نعم يا مْامْا"، قال صوت فتاة أخرى بهدوء. "لا نستطيع أن نعيش بدونكِ".

"شششش..." همست مْامْا. "كل واحدة تحاول أن تجعل أطفالها ينامون. إنها فُرصتنا الوحيدة لإبقاء كل شيء هادئاً". ثم، وهي تدلك كاحلها لتهدئ من الألم وتحاول أن تتجاهل سماع أصوات إطلاق النار المُستمرة ورؤيتها للنيران المُتفجرة التي تتضخم بشكل بشع في السماء المُظلمة فوق مدينتها الحبيبة أسيوط، بدأت تردد كلمات التعزية من المزمور الحادي والتسعين الذي قالته عدة مرات في صلوات العشاء.

"يسقط عن جانبك ألف وربوات عن يمينك؛ لكنه لن يقترب منك.

"بعينيكَ فقط تنظرون وترون مجازاة الأشرار.

"لأنك جعلتَ الرب ملجئي، والعلي مَسكَنكَ،

"لا يصيبك شر، ولا يقترب وباء من مَسكَنكَ".

وعندما انتهت، طلبت من إدوارد، أحد الأولاد الكبار، أن يكررها باللغة العربية. كانت مْامْا مُنهكة جداً بحيث لم تستطع أن تقول المزيد.

عند شروق الشمس، شعرت مْامْا أنه من الآمن لها أن تتسلل إلى الخارج. لقد ساد الهدوء. لا تزال النيران مُشتعلة في أسيوط وفي المناطق المُجاورة، لكن النيران تحولت بسُرعة إلى دخان أسود قبيح يتحرك بلا هدف عبر الأنقاض المُتفحمة مثل أعقاب كابوس بشع. سارت مْامْا بسُرعة إلى دار الأيتام، وفتحته، ثم عادت إلى أطفالها ورضيعها. بدا كل شيء ممتازا في تلك اللحظة. على الأقل يُمكنهم إعداد وجبة إفطار جيدة وإعطاء الأطفال الرُضع حليبهم.

بدا أن تلك الليلة آمنة للبقاء في دار الأيتام. على الأقل لم يكن هُناك قتال يدور حولهم. صعدت الفتيات إلى الطابق العلوي لوضع الأطفال في الفراش، وكان الأولاد يعملون في مَسكَنِهم. كانت مْامْا بمفردها في غُرفة المعيشة، عندما سَمعَت طَرَقَاً قوياً على الباب الأمامي.

أجابت، مُعتقدة أن شخصاً ما يحتاج إلى مُساعدة، كما كان الحال لآلاف المرات، ثم دوى طَرُقٌ مُماثل. عندما فتحت الباب، كتمت صرخة خوف. كان في مواجهتها رجال قساة الوجوه، شرسين المظهر، ومُسلحين بسكاكين طويلة وهراوات. كانوا يضغطون عليها ضد عُنقها، حتى شعرت أنها كانت تختنق. تراجعت إلى الوراء، وأدركت عندما رأت الرجال يقتربون منها بمفردها في هذا الجزء من دار الأيتام، حيث كانت الفتيات الكبار في الطابق العلوي مع الأطفال وكان الأولاد الصغار يدرسون في غُرفهم.

فجأة ظَهرَ وجه جديد بينهم. بدأت في الصراخ مُحذرةً عندما رأت أنه جارها، سعيد. لكنها فكرت بشكل أفضل. شق سعيد

طريقه إليها، ثم تقدم مُباشَرَةً أمامها، مواجهاً المُتسللين، ورفع ذراعيه عالياً.

صرخ فيهم: "الرجولة يا عرب. ماذا تفعلون؟ لقد وهبت هذه السيدة الأمريكية حياتها لرعاية أراملنا وأيتامنا - المصريين منا. "هل ستُدمر كل هذا؟" رداً على ذلك، اقترب الأشرار. رأت مْامْا تراشر سكاكينهم تلمع في الضوء. نظرت إليهم، عرفت أنهم يجب أن يكونوا من جزء بعيد من البلاد، وأنها غير معروفة لهم تماماً. تحرَكَ الأكبر منهم، زعيمهم، إلى الأمام. كانت لحيته السوداء الجامحة تفوح منها رائحة العرق وكانت عيناه حمراء وغاضبة. "إذا تحَركَت، فسوف تُقتل". كانت عيناه على سعيد. مثل إحدى سَكاكِينَهُم في حركة حادة، بدت العيون وكأنها تخترقه. تم الآن الضغط بشفرة سَكِينَة على بطن سعيد. لكن سعيد رفض التزحزح. على الرغم من أنه أصغر بكثير من الرجل الشرير، وغير مُسلح، فقد وقف مُنتصباً وواجههم بشجاعة.

"يا ربُ، ساعِدنأ" صلت مْامْا بصمت.

كان شخص ما يتحرك خلفهم. فجأة سحب الرجل الكبير السكينة بعيداً عن سعيد، وأشار للآخرين وساروا في الظلام بنفس السُرعة التي جاءوا بها.

التفتت مْامْا لتشكُر سعيد. لكنه ذهب أيضاً - عاد إلى منزله الصغير عبر الحقل.

أغلقت الباب وهي ترتجف وصعدت إلى غُرفتها. "هل هُناك شيء خاطئ ما يا سيدي؟" سألت بصمت. ركعت بجانب سريرها واستمعت.

قرب نهاية شهر مارس ١٩١٩، أصبح الوضع يائساً لدرجة أن السلطات البريطانية أمرت جميع الأجانب بالمُغادرة، للحفاظ على حياتهم وحمايتهم.

"لكنني لست أجنبية" احتجت مْامْا. "أنا أنتمي إلى مصر تماماً كما ينتمي أصدقائي المصريون إلى هُنا. ماذا ستفعل عائلتي الكبيرة من الأيتام والأرامل بدوني؟"

"أنا آسف يا سيدتي، ولكن لدينا أوامرنا" صوت مُقتضب كان عند بابها ذات الصباح. ثم قال بصوت أكثر رقة: "يُمكِنكِ الذهاب لمُقابلة الجنرال في السفارة البريطانية في الصباح. لكن إجابته ستكون نَفِسْ الشيء". غادرت مكتب الجنرال في الصباح التالي وهي حزينة وفى إحباط. كانت إجابته نَفِسْ الشيء. لم يبق شيء.

"هل هذا ما تُريدني أن أفعله يا رب؟" لقد قضت الليل في السفارة الأمريكية، مع كل أطفالها نائمين هُناك أو في المُستشفى الأمريكي. طوال الليل كانت تسمع تنهداتهم المكتومة بينما كان من المفروض أن يناموا، كانوا يبكون. لكن المُغادرة بدت وكأنها الشيء الوحيد الذي يجب فعله، رغم أنها اعتقدت أن قلبها سينفجر بداخلها عندما أدركت ذلك بالكامل. طوال الليل كانت تبكي طلباً للمُساعدة والقوة والمعرفة. ترك أطفالها بعد تسع سنوات من العمل المُضني والمُحبط عندما بدا أن كل شيء يتقدم بشكل أفضل، كان أمراً لا يُطاق. ماذا سيفعل أطفالها؟ حدقت في الضوء الساطع. كانت السماء المصرية، والقمر الهادئ المُكتمل، ثم أغمضت عينيها. سألت "ماذا عليَّ أن أفعل يا رب؟"

عند شروق الشمس عرفت الإجابة. مرة أخرى شعرت بالسلام يسكن داخلها. كانت ستجعل السيدة الكبيرة، إحدى أكبر أراملها المصريات كفاءة وإخلاصاً، والسيد ناشد، مُساعِدُها المصري المُخلص، يتوليان إدارة دار الأيتام وتُرسل إليهم الأموال اللازمة لتشغيل الدار من أمريكا. ثم عندما يشاء الرب، ستعود مْامْا إلى أرضها الحبيبة بالتبني.

كانت السُفن البريطانية، فيكتوريا وبوريتانية، تنتظر على النيل لنقل جميع الأجانب في صباح اليوم التالي. بهدوء، وببطء، وهي تُعانق عباءتها الصوفية الزرقاء الثمينة حول كتفيها، صعدت مْامْا على مُتن السفينة البوريتانية مع حقيبتها البنية البالية فقط كأمتعتها، ثم التفتت لتقول وداعاً. لن تنسى أبداً هذه اللحظة عندما التفتت إلى الشاطئ. كانت مئة من عيون أطفالها الجميلة تشخُص إليها. كان بإمكانها أن تشعر بتوهج تفانيهم يتسلل إليها عبر الماء بينما كانت السفينة تنطلق وتبدأ رحلتها على طول النيل إلى القاهرة. كان بعضهم، أغلبهم من الصغار، يبكون وينادون عليها. أما الكبار فكانوا يراقبونها بهدوء ويلوحون لها، كانت عيونهم الداكنة المُهيبة تُخبرها بأن تعود بسُرعة إلى الملجأ. كانت تعلم من المُحادثات التي سمعت أنهم اتفقوا على عدم البكاء إذا كان بوسعهم منع أنفسهم من ذلك، لأن "ذلك سيجعل مْامْا تشعر بحال أسوأ". وطالما كانت تستطيع رؤيتهم من على سطح الباخرة النيلية، كانوا يلوحون لها ويُرسلون لها القُبلات وينظرون إليها بعيون اعتقدت أنها أجمل عيون في العالم.

في ٢٧ مارس ١٩١٩، تعهدت وهي تغادرهم بالعودة عندما يحين الوقت المُناسب. كسرت الدموع التي حبستها حاجز التحفظ الذي كانت تحتفظ به أمام أطفالها. أسندت رأسها على سور السفينة

وبكت حتى خارت قواها تماماً. مهما حدث لها، فلا شيء يُمكن أن يكون مؤلماً مثل هذا الفراق. كانت مصر هي حياتها كلها. لقد أعطت لمصر كل حُبها. "مصر، مصر، كم أُحْبُكِ!" لقد بكت بهدوء عندما تلاشت آثار أسيوط وانزلقت الباخرة عبر مياه النيل.

عندما عادت إلى الولايات المتحدة شعرت وكأنها غريبة - بل شعرت أنها أجنبية في بلدها الأصلي. توقفت في مدينة نيويورك، ثم توقفت عدة مرات في مُدن أخرى قبل أن تذهب إلى منزل جيني في لونج بيتش، كاليفورنيا. لقد دُعيت في كل مكان للتحدث عن دار الأيتام في أسيوط وفي كل مكان أُعطيت المال بسخاء. أراد الناس مُساعدتها بمُجرد أن عرفوا ان هُناك احتياج. لقد تأثرت بشدة بشعب الطائفة الجديدة، الكنيسة الرسولية في أمريكا، التي رحبت بها كنائسها بأذرع مفتوحة. لقد شعرت الآن بالحاجة إلى الانتماء، والشعور بأن جماعة من المسيحيين المُصلين هم شعبها. بالطبع، كانت تعلم أن هذه الطائفة الشابة لا يُمكنها أن تبدأ في دعم مشروعها الكبير في مصر. لكن حماسة هؤلاء الأشخاص الرسوليين الذين أسسوا الكنيسة في عام ١٩١٤ كانت قريبة جداً من الحماس داخل قلبها لدرجة أنها كانت سعيدة بأن تصبح واحدة من أعضائهم. لقد أظهروا بسُرعة كبيرة استعدادهم للتبرع للإيتام بشكل فردي. ورغم أن الناس لم يكونوا عموماً أثرياء، إلا أنهم كانوا أكثر من سخاء بما لديهم. وكان أهم ما يهُم مُامْا لِلِيَّان صلواتهم الصادقة من أجلها. كانت صلواتهم مثل صلواتها - دافئة، ومُباشَرَةً، وصادقة، ومُستمرة. وعندما انضمت، شعرت بالاكتمال في توهج هادئ ودافئ.

ولكن على الرغم من أنها كانت في الولايات المتحدة، ولم تكن تُعاني بأي من مشاكل دار الأيتام، إلا أنه لم يكن لديها وقت

للتفكير في احتياجاتها الخاصة. في الواقع، فوجئت عندما وجدت أنها لا تملك أي احتياج شخصي. تغيير ملابس العمل، وفستان داكن للكنيسة، وعباءتها الزرقاء الثمينة للأُمسيات الباردة والحذاء الجميل من الأحذية الجلدية التي صَنَعها أولادها الكبار - كانت هذا كل ما تملكه. ماذا تُريد أكثر من ذلك؟ لماذا تحتاج أي امرأة أكثر من ذلك؟ لم يكن بإمكانها ارتداء سوى فستان واحد وحذاء واحد في كل مرة.

كانت تُقيم في منزل جيني في لونغ بيتش، بكالفورنيا عندما ذهبت أخيراً إلى المدينة للقيام ببعض التسوق الشخصي في أحد أيام الصيف في عام ١٩١٩. كانت تمشي بسُرعة على طول الشارع مُرتدية حذائها الجيد المصنوع يدوياً، ولاحظت النوافذ لأول مرة. فساتين للنساء - كم كانت قصيرة وواسعة ذات أنماط مُنخفضة الخصر تقريباً إلى الرُكبتين. كم كانت قبيحة مُقارنة بالعباءات السوداء الطويلة الفضفاضة التي تذكرت أن النساء المصريات الرشيقات اللواتي ترتدينها. مرت بمطعم. كان هُناك خلف النافذة العديد من الفطائر الكبيرة. توقفت مُامْا لِلِيَّان. آه، فطيرة محلية الصنع. اقتربت. كانت هُناك فطيرة تفاح، وهُناك فطيرة خوخ وآه، شرائح ليمون! شرائح رقيقة مُكدسة عالية. قشرة مُتقشرة. كم من مرة اشتاقت إلى الفطيرة خلال تلك السنوات التسع الطويلة في دار الأيتام في أسيوط! لكن كل ما كانت تتطلع إليه، كان البيسارا أو الأُرز أو الفاصوليا. البيسارا! كانت تكره طعام الحبوب بشدة. ولكنها كانت تأكله لمدة تسع سنوات، كما كانت تأكل الأُرز، والفاصوليا، والبصل، والخُبز. أياً كان ما يتناوله الآخرون، فقد كان هذا طعامها أيضاً. ولكن الآن...

فتحت باب المطعم، وابتسمت بتَرقُّب، وكان فمها يسيل لعُاباً. جلست على طاولة نظيفة مُغطاة بملابس بيضاء. وقفت النادلة بجانبها الآن. قالت: "هل يُمكنني أن أحصل على طلبك؟" نظرت مْامْا إلى الاعلى، مُندهشة قليلاً، وبدأت في الإجابة. ولكن دون إنذار مُسبق، انقبضت عضلات حلقها. شعرت بنفسها تختنق. شهقت بصوت أجش، وحاولت الاعتذار. نهضت بسُرعة وهرعت إلى الخارج، وعيناها مملوئه بالدموع التي كانت تلسع مثل ألف نار في الصحراء. لم تنظر إلى اليمين أو اليسار، سارعت إلى منزل جيني، وغسلت عينيها المُحترقتين بالماء البارد؛ جلست على مكتبها مع مُذكراتها. من جميع الاتجاهات، كان بإمكانها أن تشعر بالعينين، العيون الجميلة، والمسكونة، والغامضة لمصر. عيون أطفالها، وأذرعهم، تمتد عبر العالم إليها. "مصر، مصر، كم أحَبِكَ!" همست بجدية.

"لم أستطع أن أأكُل فطيرتك"، كتبت في مُذكراتها. "إني انتَمِى لكِ يا مصر".

الفصل العاشر

اختبار العناية الإلهية

كانت عودة مُامْا إلى مصر في ربيع عام ١٩٢٠ عودة مُنتصرة، حتى وإن لم تكن تبدو كذلك في ذلك الوقت. فقد رحل بعض أطفالها وتقلصت الإمدادات، مثل البطانيات والملابس، إلى حد كبير. لكن الأرملة الكبيرة والسيد ناشد، مُساعِدُها المصري المُخلص، أدارا أمور الملجأ جيداً واعتنيا بالأطفال بطريقة مُمتازة، وخاصة الأطفال الرُضع. كما تشجعت مُامْا كثيراً للعثور على مجموعة من الملابس والعديد من الطرود من أصدقائها الجُدد في أمريكا. أدركت بالطبع أن الطائفة الجديدة لم تتحمل مسؤولية دار الأيتام المصرية الكبيرة، لكن إدراكها أنها ليست وحدها في الدعم البشري أعطاها شعوراً دافئاً وحيوياً وشجاعة مُتجُددة. من جانبها، أرادت الاستمرار في إدارة دار أيتام بالإيمان. لقد كانت هذه هي الطريقة التي أرادها الله. لكنها كانت تقدر بعُمق شعب الكنيسة الرسولية في امريكا ورغبتهم الجادة في المُساعدة. كان هؤلاء المسيحيون المُتدينون والمُصلون يشكلوا سلسلة إيمان قوية لمُامْا على مر السنين.

بدأت الآن في تعديل الخيوط السائبة في جميع الجوانب. بحثت عن أصدقاء مصريين قدامى ساعدوها في الماضي، وتعززت شخصيتها الودودة والدافئة بالحماس الجديد الذي اكتسبته الآن وتشجيع أصدقائها الجُدد من الكنيسة الرسولية في الولايات المتحدة. بدأ الأطفال الجُدد يشقون طريقهم إلى دار الأيتام بأعداد كبيرة حتى بدا الأمر وكأنها تستطيع أن تنظر إلى أفق الصحراء البعيدة وترى الطابور الطويل الذي تخيلته في المرة

الأولى. أصبح الآن هذا الطابور حقيقة وواقع. ربما كانت السنوات الصعبة أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها هي التي هيأت الظروف التي جلبت الآن مثل هذه الأعداد المُتزايدة إلى البوابات الأمامية الكبيرة. بحلول عام ١٩٢٦ كان هُناك أكثر من خمسمائة شخص في البيت الكبير. ثم في العاشر من سبتمبر ١٩٢٦، دخل ضوء جديد إلى حياة مُامْا. فالواقع أن الفتاة الصغيرة التي طرقت البوابة في ذلك اليوم أثبتت أنها شُعاع ضوء حقيقي لسنوات قادمة.

كانت لطيفة بشاي هذه الطفلة الصغيرة في السابعة من عمرها، رقيقة الكلام، وحنونة، وذكية - وعمياء.

ولكن اكتشفت مُامْا أن لطيفة تستطيع أن ترى، في حين أن من حولها ممن يرون بأعيُنهم لا يستطيعون. وفي النهاية، أصبحت لطيفة مُعلمة موثوقة للغة الإنجليزية ولغة برايل في دار الأيتام. ولكن في سبتمبر ١٩٢٦، كانت الفتاة العمياء الأولى والوحيدة التي أصبحت مُوكباً طويلاً من البصر داخل دار الأيتام. ومن بين جميع أطفال مُامْا، كانت حساسة بشكل خاص ومُتجاوبة مع حُبها ورعايتها. كانت تُفكر بحُزن وكثيراً ما كانت تفكر في الظلام إذا كان الشخص أعمى في مصر. ابتسمت عندما تذكرت المساء الذي جاءت فيه بناتها "المبصرات" بمشكلتهما. أرادن أن تقضيا وقتاً خاصاً لقراءة الكتاب المُقدس في الفناء الريفي قبل أن تذهبن إلى الفراش.

"لكن يا مُامْا"، قالت، "لا نستطيع أن نرى لأن الظلام كان شديداً عندما ننتهي من عملنا".

بعد بضعة ليالٍ، تم حل هذه المُشكلة. رأت مُامْا مجموعة من الفتيات الكبار يجلسون في ضوء القمر، وسمعت شخصاً يقرأ

من بعيد من الكتاب المُقدس رغم الظلام الكاتم. اقتربت، وحدقت في دهشة. كانت لطيفة العمياء، التي شعرت بالرموز في كتابها المُقدس المكتوب بطريقة برايل، تقرأ لهم بصوتها الجميل الواضح. كانت قادرة على القراءة عندما لم يستطع الآخرون على الرؤية في الظلام!

كان هُناك أمل للأولاد العميان في مصر من خلال مدرسة حكومية للأولاد العميان. لكن لم يكن هُناك مكان للفتيات العمياء في كل مصر. لا مكان، إلا عند مْامْا. لقد تأثرت بشدة بعدد العُمي في جميع أنحاء مصر. كانت تعلم أن مُعظم المشاكل كانت بسبب ملايين من الذباب في أرض مصر. كان الذباب القذر في كل مكان. في مياه الصرف الصحي، وخنادق الصرف، وفي مياه الشرب، وعلى الطعام، وعلى أجساد الناس، وإلى الأبد على عيونهم وحولها في مجموعات كبيرة تُسبب أمراضاً تؤدي إلى العمى. بدون شاشات على النوافذ والأبواب، وبدون تطهير حديث للاستخدام ضد الحشرات، ما هي الفرصة التي كانت لدى المصريين الفقراء؟

كانت مْامْا الآن، أكثر حرصاً على تعليم أطفالها النظافة الصحية السليمة، وكان العدد الكبير من الأطفال الذين يأتون الآن إلى دار الأيتام يجعل من الضروري البدء في بناء جديد لتحسين الظروف، وكذلك لتوفير مساحة أكبر. وكعادتها، بدأت كل مبنى ببضعة قروش فقط، "وثلاث طوبات أمامها"، وصلاة حارة طلباً للمُساعدة، ثم، كما في الماضي، ركبت حِمارها (لقد اشترت حِمارها الخاص بها الآن) وخرجت لطلب التبرُعات. وكما في الماضي، طلبت التوجيه الإلهي. "أي طريق يا رب؟ أنا سامعهْ؟"

لكن يوماً جديداً كان قادماً لمْامْا. جاء في تسرُع. لو كانت قد تنبأت به، لكانت سعيدة للغاية، رغم أنها كانت لتحزن في الوقت الحالي بسبب التغيير الجذري الذي كان سيضرب حياتها. كانت جالسة في غُرفة الرسم الفاخرة في منزل مصري ثري عندما تغلب عليها اللوم والعار. لقد أتت إلى هُنا في وقت مُبكر من هذا الصباح، وكانت في حاجة إلى المال لشراء الدقيق والكيروسين للطهي والصابون وغير ذلك من الإمدادات والمُحتاجة إليها للغاية. كانت أيضاً في حاجة ماسة إلى المال لدفع أجور العُمال لصنع الطوب لبناء مبنى آخر جديد. كانت هُناك حاجة إلى المال على الفور لدفع رواتب المُعلمين. وكان اثنان من أبنائها الكبار بحاجة إلى المال لإجراء الامتحانات الحكومية. كانت يوم أكثر يئساً من المُعتاد، وكانت احتياجات أطفالها كبيرة جداً. لقد قيل لها أن رب المنزل لم يستيقظ بعد عندما أتت في وقت مُبكر من هذا الصباح. عندما عادت في الظهيرة، أخبَرُتُها الخادمة أنه خرج. عندما عادت في فترة ما بعد الظهر مرة ثالثة، بالرغم من أنه كان في البيت، قالت الخادمة أنه لن يتمكن من رؤيتها في الوقت الحالي.

"شُكراً لكَ" قالت مْامْا بحزم. "سأنتظر". لذا أجلستها الخادمة في غُرفة الرسم ووقفت للحظة طوال الوقت الذي انتظرت فيه مْامْا. أخيراً، هزت رأسها بحُزن. "إذا كان لدي المال، فسأُعطيك ما تحتاجينه بنفسي". ثم التفتت وهرعت للخارج وهي تبكي. عندما غادرت الخادمة أدركت مْامْا تماماً أنها غير مرغوب فيها في هذا المنزل. اجتاحتها موجة كبيرة من الوحدة والتعب. أخيراً، بدأت تبكي بمرارة. شعرت أن روحها قد تحطمت، وأنها لم تعد قادرة على الاستمرار.

"لا أستطيع أن أفعل هذا فيما بعد الآن يا رب" توقفت بهدوء. "لا أستطيع ببساطة!" توقفت بهدوء لعدة دقائق، ثم ركعت بسُرعة بجانب كُرسيها. "سأعتني بالأطفال يا ربُ. وأنت توفر المال. لا يُمكنني الخروج على حِمِاري والسؤال بعد الآن. لا يُمكنني القيام بذلك ولدي القوة لرعاية الأطفال". توقفت بعد ذلك. حتى الآن بدا لها من غير المُصدق أن أعداد الأيتام ازداد بشكل كبير. لأنه في هذا الأسبوع فقط تم قبول أربعين طفلاً جديداً. تذكرت كلمات المُرسَلين المُحبطة عندما بدأت في بناء أول دار للأيتام، قالوا: "سيأتون إليكِ بأعداد كبيرة". بالنسبة لمْامْا، كان قدومهم بأعداد كبيرة مُعجزة، ومُعجزة مُرحب بها. ورحبت بكل طفل مريض وجائع، وكل فتاة عمياء، وكل أرملة مُتعبة، وكل طفل مُمزق وجائع بذراعين مُفتوحتين، وقلبها يشعر بالحب للجميع. ولكن المئات من الوافدين الجُدد كانوا سبباً في الاحتياجات الجديدة العاجلة للطعام والإمدادات التي بدت مْامْا عاجزة في التعامل معها مُؤخراً. فقالت بهدوء وسكينة: "يا ربُ، هل يُمكنك أن تُرسل لي خمسة وسبعون جنيهاً! اليوم؟ حينئذ سأعرف أنك موافق على هذه الترتيبات، وأنني أتبع إرادتك". ثم نهضت وغادرت بيت الغني المصري.

في دار الأيتام وجدت أن صديقاً مصرياً كان هُناك في غيابها. سلمتها السيدة وهي مُبتسمة علبة بها رسالة من هذا الصديق. إن ابنته كانت قد خُطبت، وكانت الأسرة تُريد أن تُشارك مْامْا بسعادتها. وعندما نظرت في العلبة، لم تجد خمسة وسبعين جنيهاً، بل مائتي جنيهاً.

تنهدت بعُمق وأغمضت عينيها. "شُكراً لك يا رب"، همست. "الآن عرفتُ. الآن عرفتُ. لقد قمت بآخر رحلة لطلب المال على حِمِاري. الآن عرفتُ بالتأكيد!"

وبعد فترة وجيزة، في شهر أكتوبر، جمعت صديقات مْامْا المصريات والأغنياء أموالهن وقدمن لها سيارة جديدة. وعندما تعلمت مْامْا قيادة السيارة، أصبحت قادرة على جلب الإمدادات ومواصلة أعمال دار الأيتام بكفاءة أكبر جداً مما كانت عليه في الماضي. من المُؤكد أنه لم يعد من الضروري أن تركب حِمارها في حرارة الصحراء وأن تتحمل مشاق جسدية تفوق قوتها. وما زالت تدير دار الأيتام على أساس "اليد مُقابل اليد" ـ "من يد الله إلى فم الأيتام"، كما كانت تقول في كثير من الأحيان. كانت لا تزال هذه الأوقات صعبة، نعم. ولكن كانت أوقات رائعة.

في الحادي عشر من أكتوبر١٩٢٧، كتبت في مُذكراتها: "جاءتنا امرأة فقيرة للغاية اليوم. إنها مريضة وعمياء وحامل. ولديها ثلاثة أطفال آخرين، وكان زوجها عاطلاً عن العمل لمدة ثمانية أشهر. وأطفالها ليس لديهم أي شيء يأكلونه على الإطلاق. سارت طوال الطريق إلى دار الأيتام، حوالي سبعة كيلو مترات. "لقد نفدت أموالنا، لكنني اعتقدُ أن حالة السيدة كانت في أسوأ من الحالة المالية لدار الأيتام، لذلك أعطيتها خمس جنيهات، وذودتها بأرغفة من الخُبز، وبعض الأُرز والسكر، وستة ألواح من الصابون. ثم أخذتُها إلى المدينة بالسيارة واشتريتُ لها بعض الطماطم والبطاطس وزبدة الطهي وعدة أرطال من اللحم. أخبَرُتُها أنها تستطيع المجيء والبقاء معنا بعد أن تضع.

"قالت فهيمة إننا بحاجة إلى بعض الأُرز والسكر، لذلك بعدما أخذت لِلِيَّان هذه السيدة إلى بيتها، ذهبت إلى بقالة بَديِرْ للشراء. سألني أحد الموظفين عما إذا كُنتُ أرغب في شراء كيس كبير من أفضل أنواع الأُرز. أخبَرتُهُ أنني أُريد فقط سلة من الأُرز متوسط الجودة وعلبة سكر. خرج السيد بَديِرْ وأخبر الرجل أن يُحضر لي كيساً من الأُرز الجيد وعلبة كبيرة من السكر مئة رطل من الصابون. قلت: "لا، لا يُمكنني شراء الكثير من الأُرز، ولست بحاجة حقاً إلى أي صابون في هذا اليوم". قال: "خوديها واحتفظي بها عندما تكون لكِ حاجة إليها". ملأ سيارتي بصناديق من الصبغة الزرقاء والأُرز وما إلى ذلك، واضطررتُ إلى إرسال حبيب مع عربة بالحِمار لإحضار الأُرز والأشياء الأخرى!

"في المساء جاء الدكتور عزيز وأَحضَرْ لي خمسين جنيهاً أعطاه إياه السيد ألبرت خياط كعطية شُكر للملجأ. لقد كانت خطوبته اليوم. كما قدم الدكتور عزيز خمس جنيهات من ماله الخاص.

"لقد أَعطينَا السيدة توفا خمس جنيهات فأرسل الله لنا خمسة وخمسين جنيهاً. لقد أعطيناها بضعة أرطال من الأُرز، وأعطانا الله كيساً كاملاً، بقيمة تقريباً اثني عشر جنيهاً. لقد أَعطينَا السيدة الفقيرة ستة قطع من الصابون وأعطانا الرب مئة رطل. لقد تلقت بضعة أرطال من السكر وأعطانا الرب صندوقاً كاملاً ممتلئاً. لم يُعطنا السيد بَديِرْ أي شيء من قبل بالمجان".

في التاسع من نوفمبر، "تمت خطبة هيلين وويصا اليوم... وأرسلت ليون لي دعوة لحضور حفل الاستقبال. أرفقت والدتها شيكاً بقيمة مائتان وخمسون دولاراً، لذا فقد دفعت جميع ديوني.

كما جلب لنا البريد الأمريكي يوم الاثنين مئة دولار، "يعلم أبوكم السماوي أنكم في احتياج إلى كل هذه الأشياء".

١٢ نوفمبر، "لقد نفدت كل أموالنا مرة أخرى. لقد اقتَرضتُ أثني عشر جنيهْ من فهيمة، وثمانية ونصف جنيه من فردوس، وجنيهْ واحد من بطرس لدفع أجور العُمال. "ليس لدينا أي قرش".

١٧ نوفمبر: "مُنشغِلهْ طوال اليوم بصنع الزي الرسمي للعائلة. سمَعتُ من القاهرة أن جميع سُياح النيل التابعين لشركة توماس كوك قد حجزوا تذاكرهم لزيارة دار الأيتام. أحاول الانتهاء من الزي الرسمي حتى يكونوا الأطفال في حالة جيدة".

١٩ نوفمبر: "كان يوم مُزدحم. نحاول أن يكون كل شيء لطيفاً حيث نتوقع وصول السُياح بين الساعة الرابعة أو الخامسة مساءاً. أنا تعبانة. أتمنى أن يقدموا لي شيئاً للأطفال... جاء جميع السُياح، حشوداً وحشوداً منهم. دخل البعض؛ وبقي آخرون في المُقدمة في العربات. وزع أولادنا الصغار كُتيبات ونُبَذْ عن دار الأيتام، وخرجت عائلة الأطفال بأكملها لرؤية السائحين. بدوا لطيفين للغاية. كُنت فخورة بهم. تأثر كثيراً كل مَن ذهبَ إلى الحضانة عندما رأوا صفوف السرائر الصغيرة والأطفال الصغار فيها، بعضهم وهم يشربون من زجاجاتهم والبعض الآخر يجلسون على السجادة ويلعبون.

"بينما كُنتُ أشرح المكان للسُياح، نزل رجل مصري عجوز فقير المظهر نحو المبنى الرئيسي. توَقفت وتحدثت معه وطلبت منه الدخول. قال: "لا، ليس الآن". سلم مْامْا بعض السُياح ثلاثة عشر جنيهاً لدار الأيتام. بعد أن غادر الجميع، رأيت الرجل العجوز يمشي بمفرده فطَلَبتُ منه مرة أخرى الدخول. عندما دخل

غُرفة الرسم، سلمني ورقة نقدية. كانت قيمتها خمسين جنيهاً. كُدتُ أن أضحك بصوت عالٍ. لقد كان هذا درساً جيداً لي. كُنت أعمل طوال الأسبوع لإصلاح زي الأطفال والمكان للسُياح الاغنياء وأعطوني ثلاثة عشر جنيهاً، وسلمني رجل مصري عجوز فقير بالكاد كان يُلاحظه أحداً ورقة نقدية بقيمة خمسين جنيها! "طرق الله ليست كطرقنا".

"ذهبت إلى مكتب البريد ووجدت ثلاثة وثلاثون دولاراً من أمريكا من رسائل مُختلفة. قطعنا الملابس حتى مُنتصف الليل. توقفنا لأنه كان صباح الأحد. إنه لأمر رائع أن يمنحنا الله القوة للانتقال من يوم لآخر. "يقوم الأولاد بعمل رائع في التبشير بالإنجيل في القُرى المُختلفة كل يوم أحد. وتتزايد الحشود طوال الوقت. وأنا سعيدة لأنهم مُهتمون جداً بعمل القُرى".

٢٠ نوفمبر: "ذهبتُ لزيارة سيدة نصيف ويصا والبقاء معها لتناول العشاء. كان هُناك حبيب باشا دوس والسيد ألبرت خياط وأمينة باي وآخرون. أخبرنا حبيب باشا... أن أفضل شيء يُمكن فعله هو إعطاء بعض المال للفقراء في كل عام. لذلك ذهب إلى القاهرة واستعان بمحامٍ لإصدار الأوراق القانونية، وتحديد الجمعيات الخيرية المُختلفة والمبلغ الذي يجب أن يتلقاه كل منهم في كل عام. قرر أن يُعطي دار الأيتام الخاصة بنا ألف جنيه سنوياً، لكن المُحامي، أثناء كتابته، ارتبك لأنه كان هُناك الكثير من العناصر، كتب لنا مئة خمسة وعشرون جنيهاً بدلاً من ألف جنيه. لاحظ الشخص بذلك، لكنه لم يعتقد أنه من المُفيد له أن يغير المبلغ الخطأ.

"سألني حبيب باشا إن كان الوقت قد حان لأضع حداً لعدد الأطفال الذين سأقبَلُهُم في دار الأيتام. أخبَرُتُه أنه يكاد أن يكون من المُستحيل لي ألا أقبل أطفالاً جُدداً، حيث يستمر الناس في الموت وترك الأيتام بلا عائلٍ. حسناً، قال حبيب، عليكِ أن تتوقفي في وقت ما. "نعم"، قالت لِلِيَّان. "عندما يتوقف الله عن إرسال أموال كافية لدعمهم، سأتوقف عن استقبال أطفال جُدد".

"أثناء وجودي هُناك مع السيدة ويصا، اتصلت بي سكرتيرتي قائلة إن الدكتور زكيْ قد أحضر الآن خروفان لعشاء الأطفال... عندما وصلت إلى الملجأ، جاءت الفتاة المُسؤولة عن الحضانة وقالت إن الخَروفَان لم يكونوا كافيّن للأطفال، وأنه لا يوجد لحم كافٍ لعمل أي شربة للأطفال. قالت لِلِيَّان، "اذهبي إلى مطبخ دار الأيتام وقولي للطاهية أن تُعطيك بعضاً للحضانة". عادت وقالت إنه لم يتبق شيء. ثم طلبت مْامْا منها أن تطبخ بعض الأُرز.

"خرجت وجلست على الجسر أمام بيتها. كان الظلام حالكاً عندما اقتربت سيارة وتوقفت. سمعت رجُلاً يقول: "حسناً، اخرج ولا تبقَ طويلاً". قال آخر: "ساعدني في رفعها من هذا الجانب". قلت لإحدى الفتيات التي كانت تجلس معي: "يبدو الأمر وكأننا سنحصل على شيء ما". نهضت لِلِيَّان وخرجت لمُقابلة الرجُل. رغم الظلام الدامس، رأيت رجُلين يحملان نصف بقرة. وبينما كانا يضعانها على طاولتهما، قالت إحدى الفتيات الصغيرات: "لقد طلبتُ من الأطفال أن يتوسلوا إلى الله ليُرسل لهم بعض اللحوم". اتصلت بالطباخة وقالت: "اذهبِ وأشعلِ الموقد واطبخِ اللحم. غداً، يُمكن للأطفال تناول الشربة في الإفطار!"

٢١ نوفمبر: "جلب البريد الأمريكي حوالي مئة خمسة وسبعون دولاراً. ذهبت إلى المدينة وأنفقت أكثر من مئة جنيه على الطعام، والبطانيات، والملابس، والفراش. تقترب الساعة الآن من مُنتصف الليل. يُمكننا أن نقول بقلب مُمتن: "إلى هُنا قد أعاننا الرب".

٢٢ نوفمبر: "بدأت الكتابة عند شروق الشمس، تناولتُ الإفطار والعشاء على مكتبي؛ توقفتُ فقط لفترة كافية للذهاب ومُقابلة السيد ف. في العمل".

٢٦ نوفمبر: "اشتريتُ ملابس بقيمة أربعين جنيه اليوم ولم يتبق لدينا سوى خمسة وعشرون جنيه. الفتيات يشعرن بالبرد حيث بدأ الشتاء ولم أتمكن من شراء أي ملابس شتوية بعد. أخرجنا بالأمس كل ما كان لدينا في المخزن وأعطيناه لبعض الفتيات؛ كان من المروع أن نضطر إلى دفع العشرات منهن بعيداً ونقول لهن أنه لم يتبق شيء، بينما كن جميعنا ينادين: "وأنا يا مْامْا"، "وأنا يا مْامْا".

٢٨ نوفمبر: "جلب البريد الأمريكي أربعون دولاراً وثلاثة طرود من الملابس".

٢٩ نوفمبر: "أحضرت لي السيدة هـ. طفلاً جديداً مريضاً وقد لا يعيش".

٣٠ نوفمبر: "لقد نفد كل مالنا مرة أخرى. السيدة نصيف ويصا اتصلت هاتفيا لتقول إنها سترسل خمسين أردب قمح (ما يكفينا لمدة خمسة أسابيع وقيمته حوالي أربعمائة جنيه). حصلت من البريد الأمريكي على ثماني دولارات.

١ ديسمبر: "ذهبتُ إلى المدينة ثلاث مرات. أرسلت السيدة أمينة ثلاثة قطع من القماش للأولاد. وصل خمسة وعشرون دولاراً. كان السيد ناشد مريض؛ درجة حرارته ٣٩,٤ درجات. هو عامل رئيسي ومُحاسب؛ كما كان مُتزوج من إحدى فتياتي".

٢ ديسمبر: "بدأنا اليوم في حرق الطوب لبناء مبنى البنات الجديد".

٣ ديسمبر: "ليس لدي أي قرش. أشعُر بالمرض، لكنني لا أستطيع الذهاب إلى الفراش لأن السيد ناشد كان مريض ويجب أن أرى الأولاد الذين يحملون الطوب. يا له من أمر فظيع أن تكون مريضاً وليس لديك ما يكفي من المال ولديك الكثير من الاحتياجات. ذهبتُ إلى مكتب البريد لمعرفة ما إذا كان قد وصل أي مال. كانت هُناك رسالة تطلب مني أن أخُذ أرملة فقيرة وطفلها".

٧ ديسمبر: "أرسلت لي إدنا ويصا مئة جنيه وأرسل فهيم أفندي خمسة وعشرين جنيه. دفعتُ لِحَنّا وويصا مئة جنيه لدفع فاتورة الدهان والمسامير. لقد أنفقتُ كل المال ثم جاء أحد الأولاد الكبار وقال إن سبعة أولاد يتقدمون لامتحان المدارس الحكومية ويجب أن يكون لدى كل منهم عشرة جنيهات ليدفعها! حسناً، ليس لدي أي شيء، لذا ذهبتُ إلى أسيوط لأرى ما يُمكن أن أفعله. سُرعان ما حصلتُ على تسعين جنيهاً، لذا أعطيت الأولاد السبعين وبقي لدي القليل".

١٥ ديسمبر: "أعطتني السيدة ويصا مئة وعشرين جنيهاً. اشتريتُ قماشاً للملابس الداخلية للنساء وقماشاً لصنع معاطف للأطفال. لم يتبق في المنزل قرش واحد".

٢٤ ديسمبر: "لقد زوَّدنا الرب بعيد ميلاد مجيد. قضينا وقتاً مُمتعاً مع الأطفال. صنعنا أكياساً وملأناها بالمكسرات والحلوى. يا لها من مُتعة للأطفال! لقد وزعنا الألعاب الأسبوع الماضي؛ حصل كل شخص على شيء لطيف. ارتدت النساء الملابس الداخلية. آه، كُنت تعبانة عندما انتهى كل شيء، لكن الأطفال عملوا لي العديد من هدايا عيد الميلاد الرائعة حتى أنني نَسَيتُ مدى التعب الذي كُنت أشعُر به.

٢٥ ديسمبر: "تناولتُ عشاء عيد الميلاد مع السيد نصيف ويصا".

في عام ١٩٢٨، كتبت مْامْا:

٥ يناير: "أخذتني زوجة السيد نصيف معها إلى القاهرة لبضعة أيام لأن أُختها لم تكن على ما يُرام بعد ولادة طفلها".

١٠ يناير: "غادرتُ القاهرة اليوم. وديعة (السيدة التي كانت مريضة) هي بخير. أعطتني مئة جنيه وأعطاني زوجها مئة أخرى. "أعطتني جدة الطفل خمسين جنيه وخمسة أردب قمح (ما يساوي حوالي أربعمائة جنيه) وأرسلت لي كميلة شيك بخمسين دولاراً، جاء الكثير من أمريكا، لذا فنحن مُرتاحون مرة أخرى".

٣١ يناير: "لقد جاءنا ثلاثة أطفال حديثي الولادة هذا الشهر؛ ماتت أُمتاهم عندما ولدوا - أمينة، وأوبجي، ومريم".

١٣ فبراير: "لم يكن لدينا سوى سبع جنيهات اليوم. آه، أنا تعبانة جداً. كان لدينا شراكة طوال الصباح. يُريد الجميع رؤية المكان بالكامل وهذا يجعلني أصعد السلالم طوال اليوم. لقد سَئَمتُ من قول نَفْس الشيء للجميع مراراً وتكراراً. أشعُر أحياناً أنه

يُمكنني اصطحاب الزوار في نومي وقول الأشياء الصحيحة في الوقت المُناسب! "هُناك غُرف النوم. لا، الأطفال في المبنى الآخر؛ لا، لا نُرسل الفتيات كخادمات؛ تعالَ فقط إلى هذا الطريق وسأُريكَ غُرف الأولاد الصغار؛ نعم، نصنع جميع الطوب بأنفسنا؛ نعم، هذه أبقارنا؛ لا، نحن نصنعها بأيدينا". "إنني لا أمتلك كل تلك الأرض، لان مُلاكها لم يبيعوها لنا؛ إلخ، إلخ." يبدو أن عقول الناس تعمل بنفس الطريقة، لأن جميعهم يبدو أنهم يسألوا نَفْس الأسئلة. آه، إنه لأمر رائع أن يكونوا مُهتمين للغاية وأنا أُحب أن أُريهم المكان، ولكن آه، أنا مرهقة جداً!"

١٤ فبراير: "غادرت كاتي اليوم لتتزوج؛ كم سأفتقدها. اتصلت شركة التليفون هاتفياً وطلبوا ثلاثون جنيه للاشتراك السنوي. قلت: "حسناً، سأُرسل لكم المال على الفور". لم يكن لدي سوى أثني عشر جنيها وخمسون قرش، وبدأت في دفع جزءاً للرجُل! زرت أولاً صديقة وكان أحد أبناء عمومتها هُناك لتناول الشاي. قالت: "لِلِيَّان، لماذا لا تذهبين للحصول على المال من صندوق التبرعات في نادي النيلْ. لقد رفعتْه اليوم الآخر وبدا ثقيلاً جداً". ذهبت على الفور ووجدت فيه اثنين وستون جنيهاً وستون قرشاً. ذهبتُ بالطبع ودفعتُ فاتورة اشترك الهاتف كما وعدتُ أن أفعل بذلك.

١٧ فبراير: "ذهبتُ ووعظتُ في العنبر الذي كان قريباً من المبنى الرئيسي لمْامْا. كان هُناك روح طيبة من الاهتمام بينهم وهم يقومون بعمل تبشيري أفضل في القُرى".

١٨ فبراير: "ليس لدينا سوى أثني عشرة جنيهاً وهذا لن يكفي لدفع أجرة العُمال ..."

٢٣ فبراير: "توفي السيد دوس غولتر اليوم وقامت عائلته بذبح عجِلَيَّن عند بوابة بيته حيث تم إخراج جثته من أجل خير روحه وأرسلوا لنا اللحم. لقد تناولنا اللحم ثلاث مرات هذا الأسبوع".

في عام ١٩٣٠ كتبت:

يوم عيد الشُكر: "في كثير من الأحيان لم يُرسل الله المُساعدة فحسب، بل يُرسل أيضاً الشيء المُحدد الذي نحتاج إليه. قبل أسبوعين، جاءتني المرأة المسؤولة عن حضانة الأطفال الصغار قائلة إن فراش الأطفال مُمزق ومُهترئ جداً لدرجة أن بعضهم كاد ينام على السرير بدون مرتبة. أخبَرُتُها أنني آسفة للغاية، لكن ليس لدي أي أموال على الإطلاق وأنني أعتقد أن كل قطن العام الماضي قد استُنفذ. أخبَرُتُها أنه يتعين عليهم أن يُصَلوا إلى الله ليُرسل المُساعدة. أرسلت في طلب للمرأة المسؤولة عن الفراش. بينما كنا نتحدث جميعاً عن هذا الأمر، وبينما كانت تُخبِرهم أنه لم يتبق أي جزء من القطن من العام الماضي، نظرتُ من النافذة، ورأيت شاحنة كبيرة تسير، مُكدسة بأكياس ضخمة من القطن (بقيمة حوالي خمسين جنيه)، كان هذا تبرُع لدار الأيتام.

"بعد ثلاثة أيام، جاءت بعض الفتيات إلى المرأة المسؤولة عن الصابون طالبات مصروفهن. قالت، ليس لدينا أي شيء... في نفس اليوم... أرسلت مُامْا هذه المرأة، التي كانت مريضة، في طلب بعض الأُرز. كان مخزن الأُرز قد انخفض إلى بضع حفنات فقط.

"في حوالي الساعة الخامسة، وصلت سيارة تحمل جميع أنواع العطايا المُكدسة فيها، كبيرة وصغيرة. كان هُناك ست علب

كبيرة تسع عشرون لتر من الزبدة، وست علب من الجبن، وكيس كبير من الصابون، وكيس من الأُرز، وصندوقان ونصف من السكر، والعديد من الأشياء الصغيرة، ربما تزيد قيمتها الإجمالية عن مئة جنيه. توفت امرأة قبل أربعة أشهر، وقبل وفاتها، طلبت من أقربائها أن يُرسلوا الأشياء الموجودة في مخزنها إلى دار الأيتام".

الجمعة: "أننا مُحتاجون إلى ستمائة جنيه؛ إنه آخر الشهر وغداً سيتعين علينا دفع ثلاثمائة جنيه كرواتب لمُعلمينا وعُمالنا. جاء البريد الأمريكي حاملاً أربع دولارات فقط. قال الرجل الذي كُنا نشتري منه الخُبز إنه لن يسمح لنا بأخذ أي خُبز غداً، لأننا مدينون له بمائة وخمسين جنيه. إنه رجل فقير ويحتاج إلى المال. "إن مئات الأطفال والأرامل ينتظرون مني للطعام..."

"قبل الأحد الماضي، ذهبتُ لزيارة إحدى صديقاتي المصريات المريضة. قضيتُ اليوم معها وسألتني عن عدد أطفالي. فأخبَرُتُها وأن لدي أقل من خمس جنيهات وأنني اقترضتُ مئتين وخمسين جنيه من إحدى صديقاتي. ثم سألتني عن مبانينا الجديدة قائلة: "بالطبع لا تبدأ في بناء المبنى إلا إذا كان لديكِ بعض المال الإضافي في متناول اليد". قلت: "آه، نحن لا ننتظر المال. عندما نكون مُتأكدين تماماً من أننا بحاجة إلى المبنى الجديد، نبدأ ولو بخمسة قروش، وبحلول وقت الانتهاء من البناء، يكون قد تم دفع ثمنه أيضاً". أخبَرُتُها عن المبنى الكبير المكون من طابقين، والذي بنيناه العام الماضي للفتيات - وكيف لم نكن مديونين بأي قرش. بعد أن تحدثت لفترة طويلة، وأخبَرُتُها كيف يُلبي الله الاحتياجات، قالت: "حسناً، لِلَيَّان، إذا لم أكُن أعرف أن هذا صحيح، لقُلتُ إنه كله أكاذيب!" "وعندما غادرت في ذلك المساء،

أعطاني زوجها خمسة وعشرين جنيه. وفي صباح اليوم التالي، وصلني خمسة وخمسون دولاراً من أمريكا. سددتُ جزءاً من المائتين وخمسين جنيه التي كُنتُ مديونة بها".

في الثاني من أكتوبر ١٩٣٢، كتبت مُامْا: "لم أرى مثل هذه الأيام من قبل... هذه الأيام هي أيام اختبار عظيم، وفي الوقت نفسه، أيام نعمة رائعة. لقد كان الله قريباً مني ولم أشعُر أبداً من قبل بحضوره الحقيقي والقريب كمثل تلك الأيام".

"هل أذهب إلى المدينة أم لا؛ هل أنزل في هذا الشارع أم ذاك؛ هل أكتب رسالة مُعينة أم لا؟ إن خطوات الرجل الصالح يأمر بها الرب". إذا أمَرُنا الرب بخطواتنا، فكم ينبغي لنا أن نكون حذرين للغاية حتى نذهب إلى حيث ما أمَرُنا به... لقد وعد الله بأن يقودنا.

"في أحد أيام الشهر الماضي، قررنا أن نُصَلي صلاة خاصة لتلبية الاحتياجات... جاء بعد الظهر ولم يكن لدينا قرش واحد. لم يكن لدينا طعام إفطار ولا خُبز للغد. (يجب أن نحصل على الدقيق في اليوم السابق لأننا نحتاج إلى الخُبز ولأننا نخبزُ في الليل). رَكَبتُ سيارتي وذهبتُ إلى المدينة من مكان إلى آخر، لكنني وجدت أن الناس إما كانوا بالخارج أو لم يفكروا قَطْ في إعطاء أي تبرُع لدار الأيتام. حل الظلام، لكنني لم أتمكن من الحصول على أي قرش".

وضعت مُامْا قلمها على المكتب، ثم سارت إلى النافذة المُطلة على النيل. رجعت ذكرياتها عبر الأيام...

لقد أوقفتُ السيارة في تلك الليلة، وأحنت رأسها على عجلة القيادة. كانت الدموع تنهمر من على خديها. هل سيكون غداً هو اليوم الذي لا يوجد فيه خُبز لأطفالها؟ هل ستُستجاب صلواتهم؟ ماذا سيُصدق الأطفال إذا لم تأت المُساعدة؟ هل ستفشل صلواتهم؟ هل سيفشل الله؟

"آه، لا، لا!" صرخت مْامْا. "يا أطفال، الله لن يفشل أبداً!" حدقت في الطريق الترابي أمامها. لم تستطع التفكير في أي مكان آخر للذهاب إليه.

في ذلك المساء، التقت بالسيد ناشد، أحد عُمالها المصريين، وذهبوا معاً إلى منزل لم يسمحوا لمْامْا بالدخول إليه من قبل. شعرت أنها يجب أن تحاول مرة أخرى. بعد ذلك لم يعد هُناك ما يُمكنها فعله.

طرقت وابتسمت عندما فُتح الباب. عندما غادرت كان لديها كمية صغيرة، تكفي لوجبة الإفطار والكيروسين لطهيها بقليل وليس أكثر من ذلك. ولكن ليس لديها شيء للخُبز.

ثم ذهبوا إلى رجل مُدان لهم بالمال، لكنه أخبرهم أن يأتوا في أول الشهر. سأل السيد ناشد: "إلى أين سأقودكم؟" "سيكون على الرب أن يوجهُنا، لأنني لا أعرف مكاناً آخر في المدينة"، قالت لِليَّان.

"مْامْا"، قال ناشد: "إن السيد برلين لم يُعطنا بعد الدقيق الذي يُعطينا إياه في كل عام".

"بالطبع!" لقد نسيت هذا تماماً. ذهبنا إلى منزله وطلبنا منه الدقيق. كان على استعداد تام للمُساعدة. كانت هُناك عشرة أكياس

- كافية لتدوم حوالي أربعة أيام. عادت مُلمًا إلى مكتبها، وبدأت في الكتابة مرة أخرى:

"لا توجد كلمات يُمكن أن تُعبر عن فرحتي"، كتبت. "ان الله أمين ..."

"كل يوم يجب أن نثق به في كل شيء نحتاج اليه في بيتنا. "يعلم أبوكم السماوي أنكم بحاجة إلى كل هذه الأشياء".

في الثالث من نوفمبر ١٩٣٢، كتبت إلى صديقتها في أمريكا: "أشكُر الله أن كل شيء يسير على ما يُرام، يوماً بعد يوم؛ لكننا غير قادرين على مواكبة الرواتب (التي تبلغ حوالي مائتان جنيه شهرياً). لقد فصلنا جميع العُمال الذين يُمكننا الاستغناء عنهم دون أن يتسبب هذا الامر في عمل الملجأ، لذا فليس هُناك أي طريقة أخرى يُمكن عملها لخفض العدد إلى أدنى مستوى من العُمال..."

"لقد بدأنا بعض دروس الخياطة الجديدة. يتم الآن تعليم جميع الفتيات الصغيرات كيفية صُنع الملابس لكل من الأولاد والبنات. إنهم مسرورون للغاية عندما ينتهون من تفصيلها. أشعُر بسعادة غامرة عندما أُشاهدهم. لدي شجرة كبيرة أمام غُرفتي وأضع كُرسي هزاز وطاولة في الحديقة وأسمح للفتيات الصغيرات بأخذ سترة والعمل فيها. ساعدتني الفتيات الكبار، على الرغم من أنني استمتعتُ بالقيام بذلك بنفسي. في بعض الأحيان يكون لدي أشياء أخرى لأفعلها ولا أستطيع الاهتمام بها بنفسي كل يوم؛ لذلك تقوم بها الفتيات الكبار. بينما أكتب هذا، فإنهم جميعاً مشغولون بصُنع سترات قمامة للأولاد الصغار. إنهم يشكلون أيضاً اقتباساً لطيفاً جداً".

٥ يناير ١٩٣٣: "أدركتُ أن هذه هي الأيام، وهذا هو الوقت الذي يُريدنا فيه الرب أن "تكُفوا واعملوا أنى أنا الله". كما يُخبِرنا الكتاب المُقدس أيضاً، "إن ارتخيت في يوم الضيق، ضاقت قوتك".

"إنه ليست درساً لي وللأطفال فحسب، بل إن جميع سُكان أسيوط يراقبون بدهشة كيف يتم إطعام دار الأيتام والعناية بهم، بينما كان آخرون في احتياج شديد. إنهم لا ينظرون ويتساءلون فحسب، بل يحاولون جميعاً المُساعدة بكل عطية صغيرة يُمكن تقديمها. لقد أظهرت المدارس هُنا روحاً جميلة. لقد قاموا بإخراج فتيات كل فصل لزيارة دار الأيتام؛ كل واحدة منهن تحضرن بعض الأُرز، أو السكرْ، أو البرتقالْ، أو القماشْ، أو المال. كما أظهر المُرسَلين روحاً عظيمة من الحُب والتضحية تجاهُنا، وخاصة الكنيسة المشيخية. لقد ساعدنا العديد منهم هذا العام بإرسال الأموال والملابس. لقد كان هذا عاماً صعباً للغاية بإرسال الأموال والملابس. لقد كان هذا عاماً صعباً جداً بالنسبة لهم أيضاً؛ لذلك فإن هذا يجعلنا نقدر عطياهم أكثر بأكثر.

"لقد اشترينا ثلاث دراجات جديدة للأولاد الكبار لاستخدامها في القُرى التي لا توجد بها كنائس". أحد الأولاد الذي يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً كان مسؤول عن أعمال القُريَ (المكونة من خدمة الوعظ ومدارس الأحد). إنه صبي لطيف، وأعتقد أنه سيكون نعمة كبيرة لهؤلاء الناس الأعزاء".

"لم نتمكن من الحصول على ما يكفي من الملابس للأطفال، ولكن من الرائع حقاً كيف يبدو أن الرب يحافظ عليهم بصحة جيدة. في الكنيسة نادراً ما كنا نسمع أي منهم مريضاً بالسعال..."

١٣ مارس ١٩٣٣: "أحضر لنا شخص ما توأماً صغيرين هذا الصباح. مساكين هؤلاء الصغار. ماتت أمَهُم عندما ولدوا... أخشى ألا يعيشوا. على أي حال، سنُبذل قصارى جهدنا. لدينا ثمانية أطفال صغار، بعضهم يبلغ من العمر بضعة أيام. ثم بالطبع، لدينا العشرات من الأطفال متوسطي الحجم: بعضهم يتعلم المشي الآن، والبعض الآخر يُعرف باسم "الأطفال الكبار".

٢٧ أبريل ١٩٣٣: "أحياناً أشعُر بالتعب لدرجة أن أشعُر باني لا أستطيع أن احتمل أشياء أخرى؛ "ثم أطلب من الله أن يمنحني راحة لبضعة أيام وأن يُرسل لنا المال في الوقت المُحدد، ليوفر عليَّ من كل هذا الجهد. هذه هي أيام "راحتي". تأتي أيام وأسابيع حيث يبدو الأمر وكأن كل قرش يأتي بالقوة، ولا تأتي راحتي إلا بعد أن أُختبرَ إلى أقصى حد. لكنها تأتي دائماً!"

في أحد الأيام في أوائل الصيف، عام ١٩٣٣، ذهبت مْامْا إلى قرية لم تكن قد ذهبت إليها من قبل. كان أحد الأولاد يذهب إلى هُناك للتبشير وأراد فتح هيئة مدرسية. كانت القرية، التي تسمى الشيخ صوفي، على حافة الصحراء.

وجدوا الجدران الأربعة لكنيسة بنوع من السقف كان مصنوعاً من سيقان الذرة مع بعض العوارض لحملها.

"لمن كانت هذه الكنيسة؟" سألتُ. هز الناس رؤوسهم. قالوا مُنذ زمن طويل، كان رجل ثري قد بناها ككنيسة. لكن الرجل مات مُنذ سنوات. ليس لديهم أي واعظ.

كان عندهم واعظ ذات يوم - طالب من الكلية المشيخية الأمريكية حيث كان يأتي في كل صباح أحد. لكنهم توقفوا عن

إرساله. لقد وافقوا على دفع حوالي خمسة قروش كل يوم أحد ثمن اجرة الحِمار الذي كان يأتي به. لكنهم في النهاية لم يتمكنوا من دفعها. كان ذلك مُنذ سبعة عشر عاماً.

في مُذكراتها، كتبت مْامْا بصلاة: "نأمل أن نضع سقفاً جديداً للكنيسة القديمة ونفتح مدرسة وهيئة هُناك هذا الصيف. كيف نأمل أن يحصل الأولاد والبنات الصغار اليوم على ما حصل عليه أباءهم مُنذ فترة طويلة".

"في طريقنا إلى المنزل"، كتبت، "ذهبنا إلى دير بُصِرْهْ، حيث نبني الآن كنيسة جديدة ومدرسة جديدة. وجدت أن الحجارة كانت بالفعل والطوب يُحرق. نأمل أن نفتح مدرسة هُناك في الخريف. "كان الأولاد يعظون هُناك كل يوم أحد".

١٢ ديسمبر ١٩٣٣: "لقد حلت الأيام الباردة والأطفال في احتياج شديد لمزيد من الملابس. بدأ وصول خطاب بأموال إضافية وتمكنا من البدء في شراء بعض الملابس. لكن هذه ليست سوى البداية، فما زال هُناك الكثير مما نحتاج إليه".

"لقد تحَسَنتُ تماماً مرة أخرى. لقد عانيت من المرض لأكثر من شهرين ولم أتمكن من القيام بأي شيء. كان هذا المرض درساً رائعاً لي. في كثير من الأحيان، قبل أن كُنت مُريضة، كُنت أشتكي عندما يتعين عليَّ القيام بعمل لا أُحبه، ولكن الآن بغض النظر عن مدى كراهيتي للقيام بشيء ما، أو مدى تعبي، أشكُر الله لأنه أعطاني القوة لأتمكن من القيام به".

"كان هذان الشهران صعبين جداً بالنسبة لي، حيث كنت أرى العمل يتراكم ويحتاج إلى وقت كبير للقيام به، لكنني لم أتمكن من فعل أي شيء. أعد الله أنه إذا شفاني، فلن أشتكي مرة أخرى".

في الثالث عشر من ديسمبر ١٩٣٣، كتب لأحد رسالة عاجلة إلى أصدقائي في أمريكا: "أتمنى أن أشعُر بأنني قوية لبدء العام الجديد. هُناك الكثير مما أودُ القيام به وأخشى أنني لست قوية بما يكفي للقيام به. قلبي ليس قوياً، ويجب أن أكون الآن حذرة للغاية. صَلُوا لكي يمنحني الرب القوة للقيام بالعمل الذي يُريدني أن أقُوم به".

"... ماذا عن هذا، أعظم عبء في حياتي كلها، ألا تصلي لكي يستجيب الرب لصلواتنا، ويُرسل المال اللازم للطعام قبل يوم واحد على الأقل. لا أعتقد أن أي شخص يُمكنه أن يتخيل الفَرِقُ الرائع الذي قد يعني ذلك بالنسبة لي. جسدي مُرهق بسبب كل هموم دار الأيتام، وبريدي الضخم الذي يتعين عليَّ أن أراه، وكل الزوار الذين يتعين عليَّ رؤيتهم والعناية الشخصية بالصغار، مع عدم وجود عطلة حقيقية أبداً. لم أكُن أنوي كتابة هذا ..."

أطفال كثيرون تعلموا من مْامْا

يلعب الأطفال الابتدائي مع ماما لِلِيَّان أمام مُستشفى جيني بينيتون الجديدة في عام ١٩٥٢

الفصل الحادي عشر

اختبار تدبير وقوة الله

في صباح أحد أيام مُنتصف شتاء عام ١٩٣٣، استيقظت مْامْا عند شروق الشمس، وجثت على ركبتيها بجوار سريرها، وبكت لفترة طويلة. وعندما استنفدت قواها تماماً، بدأت تبكي بهدوء. بدا لها أن احتمالات الحصول على أي أموال لا أمل فيه. كان هذا العام صعباً - قاسياً بلا رحمة، في الآونة الأخيرة. اجتاحت المجاعة البلاد مثل حصار الجراد سيئ السمعة. كان الأصدقاء في أمريكا يُعانون بشدة من الكساد العالمي ولم يتمكنوا من تقديم سوى القليل من المُساعدة. كان دار الأيتام غارقاً في الديون - عميقاً لدرجة أن الأشياء التي كانت مْامْا تخشى حدوثها مُنذ فترة طويلة كانت على وشك أن تصبح حقيقة. لأول مرة الآن، واجهت حقيقة مَفادِها أنه يجب أن تبحث كثيراً عن طريقة أخرى لإطعام أطفالها وأمهاتهم والأرامل. بطريقة أو بأخرى، جاءتها فكرة كانت لا بد وأن تتجاهلها مرات عديدة، وهي الآن في كامل قواها. جاءتها من قبل هذه الفكرة القاسية جداً لدرجة أنها رفضتها تماماً. وجدت مْامْا الآن، أنها تقبل هذه الفكرة بهدوء تقريباً. نهضت من على رُكبتيها، وهرعت إلى مَسكَن الفتيات الكُبار.

قالت للفتاة المسؤولة: "علياء، هل يُمكنك استدعاء جميع الأطفال في الفناء بعد الإفطار؟ ثم طلبت من السيدات أن تأتي بعد بضع دقائق". بدت الفتاة مُندهشة. قالت: "نعم، مْامْا". سارت مْامْا ببطء إلى غُرفتها أنذاك. يجب أن تقرأ الكتاب المُقدس وتصلي. الشيء الوحيد الذي عرفته هو أنها لا تستطيع تناول وجبة الإفطار. بعد ساعة، وقفت أمام أطفالها - الأكثر من ألف نَفْس في ذات

الوقت. كم كانت تخشى أن تبدأ بالكلمات التي كان عليها أن تقولها! بطريقة ما، شدت نفسها، وأخذت نَفَساً عميقاً وبدأت:

"يا إلهي، نحن في موقف صعب". أصبحت وجوه الأطفال أمامها ومن حولها مُتوترة وغير قادرة على الحركة. لقد شعروا على الفور بمظالم نبرة مْامْا. تابعت: "يا أطفال، لم يكن هُناك ما يكفي من المال مؤخراً. وهُناك الكثير منا والذي يجب إطعامهم. "لذلك، وبقدر ما أحَبَكُم، يجب أن... يجب أن أُرسلكم بعيداً إلى مكان آخر. إلى الأصدقاء، إذا لم يكن لديك أقارب إذا لم يكن لديك أصدقاء..." انفجر صوتها بتَنُهد عندما أدركت أن العديد من أفراد عائلتها ليس لديهم أصدقاء باستثنائها - "مْامْا". كافحت في السيطرة على عواطفها. "إذا لم يكن لديك أصدقاء... حسناً، سنُوجد لكم أصدقاء".

ترددت، عندما رأت النظرات المُندهشة والألم على وجوه أطفالها. "أطفالي الأعزاء، سأوعدكم بالرجوع مرة أخرى عندما يُلبي الله احتياجاتنا". نظرت إلى أسفل أرض الفناء، التي أصبحت ناعمة بعد آلاف مرات اللعب، وآلاف مرات الصلاة التي شاركوها معاً في المساء. كان لا بد أن تنظر بعيداً عن عيون أطفالها. لم تستطع مواجهتهم. "أعدكم..." تلاشى صوتها في البكاء.

فجأة أدركت أنه لا يُمكن لأحد أن يسمعها. كان أطفالها يبكون، بهدوء في البداية، ثم نشيج قوي. لم يصل إليها، وغير مرغوب فيه، لكنه تضخمَ إلى الأذن. كان احتمال الاضطرار إلى مُغادرة الملجأ الوحيدْ، والأُم الوحيدة، والأمان الوحيد الذي عرفوه، أكثر مما يُمكنهم تحَمِله. بدت الصدمة، التي تأخرت لهم

في البداية، بعد دقيقة أو دقيقتين من نطق الكلمات. تحدثت مْامْا مرة أخرى، وحاولت إقناعهم. لكن صوتها كان مخنوقاً ومتقطعاً وهي تحاول في الكلام، ولم تستطع أن تجعل نفسها تسمع. فجأة، ركع صبي صغير في مؤخرة الفناء كان مشغولاً برمي كرات الورق من قبل لحظة، وصاح بصوت عالٍ، ويداه البنيتان الصغيرتان مطويتان بشكل ملائكي تحت ذقنه، "يا ربُ. يا ربُ"، نادى. خائفاً، لألا يسمعه الرب، وسط الارتباك، نادى بصوت أعلى: يا ربُ، يا ربُ! يا ربُ! بدا راضياً ليجعل الرب يسمعه، وشرع في قول نَذَرهُ، نذر لا بد أنه كان يعني التضحية وحقيقة لهُ. "يا ربُ، لن أفعل أي شيء سيئ بعد الآن. من فَضلِك، من فَضلِك، من فَضلِك، من فَضلِك..." تدفقت الدموع على وجهه المتألم. سقط طفل آخر على ركبتيه. ثم آخر. وآخر. حتى ركع الجميع في الفناء وصلوا بحرارة.

وبعُمق كبير علمت مْامْا أن مئات من الأطفال كانوا يفعلون فقط ما رأوا مْامْا كانت تفعله من قبل، سواء في أوقات الوفرة أو في أوقات التوتر. كانوا يعرفون أنها تصلي بلا انقطاع. ثم أدركت أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يعرف أطفالها القيام به في مثل هذه الأوقات العصيبة والطارئة. هذه هي الأشياء الأعظم التي يُمكنهم القيام بها؟ نظرت بعيداً عنهم في ألم. هل يُمكنها أن تقف في وسط هذا الإيمان الذي علَمَتَهُم إياه بنفسها، وترى أنهم خائبون؟ بالتأكيد كان الله يسمع صلواتهم الصادقة. أصبحوا أكثر جدية بسبب حاجتهم الماسة.

"يا رب، يا ربي، ماذا الآن؟" سألت بجدية، راكعة بهدوء مع الآخرين. أخيراً وقفت، رافعة ذراعيها للانتباه. هدأ الفناء

تدريجياً مرة أخرى عندما أعطتهم الوقت - أشارت تدريجياً رأت كل شخص ويداه الاثنين مرفوعتين وجميع أذرعهم للسماء.

"لا أستطيع إبعادكم، قالت ببساطة". لا أستطيع. "إذا استغنينا عن بعضنا البعض، فسوف نستغني عن بعضنا البعض معاً. وسوف نستمر جميعاً في الصلاة من أجل تلبية احتياجاتنا. ولعل من الأفضل أن تَعَلَموا أيضاً أننا نعيش بالإيمان ــ وهو ما يجب أن يمنحنا إياه الله. إن هذا هو كل ما لدينا الآن".

ثم مسحت الدموع من على وجهها وذهبت إلى مطبخ دار الأيتام الكبير. كيف تستطيع أن تمد هذا القليل المُتبقي من الأُرز لآلاف الأفواه الجائعة؟ قالت للأرملة الشابة المسؤولة عن المطبخ: "أضيفي المزيد من الماء، يا مِاري. الكثير من الماء. وقسِّمِي شرائح الخُبز هذه إلى أرباع أقسام. سنُعطي كل طفل ربع شريحة وسيكون ذلك أفضل من عدم تناول أي شريحة من الخُبز على الإطلاق. والأبقار التي لدينا في الخَلفْ ستُعطينا كل الحليب الذي يُمكننا شربه، الحمد لله".

"وأنت يا مْامْا" قالت الأرملة. "لا بد أنكِ جائعة أيضاً. لم تأكلي مُنذ ظُهر الأمس، ثم بالكاد تأكلين".

كانت الصلوات في الفناء في ذلك المساء جادة. وكالعادة، قرأت مْامْا الكتاب المُقدس. وعندما انتهوا، صعدت إلى غُرفتها، وكتبت بعض الرسائل، وأجرت مُحادثة طويلة مع اثنتين من بناتها كانتا تخططان للزواج، لكنهما شعرتا أنه لا ينبغي لهما ترك مْامْا حتى تمر بهذه الأزمة. ثم في مُنتصف الليل، جرت مْامْا نفسها إلى الفراش بتعبٌ، وقالت صلاة مُتعجلة، لكنها وجدت نفسها تنام حتى

قبل أن تنتهي من صلاتها. شيء واحد كانت تعرفه: مُنذ البداية وعد الله بأن يرعاها. ألم يفي دائماً بكلمته؟ أليس كذلك؟

بتعبٌ، ارتدت ملابسها في الصباح التالي ونزلت إلى المطبخ. كانت هُناك ثلاث بقرات جاهزة. سيكون هُناك حليب للإفطار. لقد نفذ كل الخُبز. وكذلك المواد الغذائية الأساسية. في وقت لاحق من الصباح، عندما حان وقت وصول البريد، أرسلت أحد الاولاد إلى مكتب البريد في أسيوط.

حتى أصغر الأطفال كانوا ينتظرون عودته. هل يُمكن أن يكون هُناك أي شيء في البريد من أمريكا؟ كانت تعلم أن مُساعديها المُخلصين لم يكونوا يعتمدون على ذلك. لم تصل أي أموال لأيام. لم يصل سوى مبالغ صغيرة جداً لأسابيع طويلة.

هل نسوهم الناس في وطنها بأمريكا؟ ارتجفت داخلياً وخارجياً من خوف غير مدعو، بدا وكأنه يُسيطر على كيانها. هل نَسَانَا الله؟

جاء الولد من مكتب البريد. ركضَ بسُرعة إلى مُامْا وسلمها البريد. كان هُناك خطاب من أمريكا. فتحته مْامْا بأصابع مُرتجفة. صاحت فرحاً عندما نظرت إليه.

كان شيكاً بألف دولار! درست العنوان الذي كان على الظرف: الآنسة لِلِيَّان تراشر، أسيوط، الهند. الهند! نظرت إلى الظرف الذي كان يحوي الشيك، ثم ابتسمت بصدق. هذا الخطاب لها، حسناً. الشيك أيضاً. لقد ارتكب رجل كريم من كانساس بأمريكا خطأً شائعاً في توجيه الظرف. والرسالة التي كُتب عليها

اسمها فقط وأسيوط، الهند، وصلت إليها مُباشَرَةً في أسيوط، مصر، دون أي تأخير.

سُرعان ما ألقت عباءتها الزرقاء القديمة حول كتفيها وهرعت خارج البوابة باتجاه أسيوط. قمح! فاصوليا! بصل! أُرزْ! كانت خطواتها تضرب بالإيقاع الذي يدور في كيانها. قمح. فاصوليا. بصل. أُرز. كيف سيأكل أطفالها الجائعون وأراملها في هذه الليلة.

لوحت مْامْا لسعيد - جارها المُزارع الذي كان يعمل في حقله. كانت خَطوَاتها سريعة وواثقة وهي تَعبُر الجسر إلى أسيوط. كانت الشمس تشرق على مياه النيل أدناه. وعلى ضفة النهر انتشرت الأخبار الطيبة للمرأة الأمريكية بسُرعة. لقد أثبت إيمان مْامْا بإلهها مرة أخرى. اشترت الطعام الذي يحتاجون إليه، ثم ذهبت إلى متجر البضائع الجافة واشترت كمية كبيرة من القماش القطني. ثم توقفت مرة أخرى لطلب ثور كبير. (كان الأمر يتطلب ثوراً كبيراً الآن لإطعام أسرتها وجبة واحدة فقط إذا تناول الكل حتى جزء صغيرة من اللحم): ثم عادت إلى الملجأ، لتبدأ في قص الفساتين للعديد من الفتيات اللواتي ليس لديهن ملابس. كم ستبدو الفتيات الصغيرات ذوات العيون الداكنة جميلات في فساتينهن الجديدة! "أحضِرهن"، نادت بسعادة. وفي ذلك الوقت، كانت الفتيات الصغيرات يَبلُغنَ من العمر عشر سنوات، وجاءت بالترتيب الصحيح من حيث الحجم، كل واحدة أطول بمقدار بوصتين من الفتاة التي أمامها. وبهذه الطريقة، تمكنت مْامْا من قص الفساتين لجميع الفتيات من نفس الحجم في دار الأيتام. كانت مْامْا تستقر في عملها بجدية. كانت لا تزال تَقُصُ الفساتين إلى مُنتصف الليل.

كانت هُناك صلوات شُكر طويلة جادة في تلك الليلة في وقت الصلاة في الفناء. في مُنتصف الليل، وضعت مْامْا المقص، وطوت آخر فُستِان في صناديق الخياطة الكبيرة، وغيرت ملابسها بتعب، وذهبت إلى السرير. ذهبت للنوم على الفور. كان دار الأيتام الآن، كبيراً جداً لدرجة أن الألف دولار ستُنفَق كلها في ثلاثة أيام، أو ربما أسبوع، إذا مددتها بما يكفي. إذا كانوا يتقدمون في الإمدادات، فقد يكون هذا المبلغ كافياً لشراء البقالة لأسابيع. ولكن ليس في حالتهم المُستنفدة الحالية. كان الأمر يتطلب الكثير من القمح والأُرز والفاصوليا، حتى لو لم يكن هُناك لحوم، لإطعام ألف شخص ليوم واحد. وفي كل يوم، طوال الوقت، كان لا بد أن تكون الكميات هائلة وكافية من القمح. لقد مرت الأزمة، وانتهت. عندما كان لديها وفرة كريمة، حتى الطعام والإمدادات ليوم واحد، أعطتها راحة البال التي كانت في أَمس الحاجة إليها.

بعد أسبوع ذهبت مْامْا إلى البنك لصرف شيك صغير وصلها بالبريد من مُمرضة في أفريقيا، كانت قد زارت دار الأيتام ذات يوم. كان الشيك يأتي بانتظام من راتبها الصغير. كانت مْامْا في حاجة ماسة إليه، فقد نفذت الآن ألف دولار حيث أنفقتها بعناية على الطعام والموارد. كما نفذت مُعظم الموارد الغذائية التي أحضرتها. يحتاجون الآن إلى جنيهين آخرين إذا كان هُناك ما يكفي لشراء الدقيق لخُبز اليوم التالي. وقفت مْامْا ساكنة في بنك أسيوط، تنتظر التعليمات. أغمضت عينيها واستمرت في انتظار التعليمات. رأت العديد من الرجال الأثرياء يدخلون. سألت: "يا رب، هل أطلب منهم المُساعدة؟" جاءها الجواب بوضوح. كانت الإجابة "لا". كانوا يعودون إليها الآن، ونظروا إليها بإيجاز، ثم

ساروا عبر الباب. توقفت عن الابتسام. قالت: "يا ربُ. يجب أن يكون لدي نقود للدقيق!"

وفي الجهة المُقابلة من الشارع، زارت سيدة مُسنة كانت طريحة الفراش لأكثر من عام. كانت بناتها هُناك وقامتا بزيارة بعضهما البعض لبعض الوقت، كما كانت تفعل مع الصديقات القدامى. انحنت إحدى الابنتين نحو مْامْا. نظرت إليها لدقيقة، ثم تحولت نبرة صوتها إلى نغمة قاتمة. "مْامْا، لِلِيَّان ليست على ما يُرام". نظرت السيدة العجوز إلى لِلِيَّان. ثم ضحكت برفق: "أعتقد أنني أعرف ما هي مُشكلة لِلِيَّان. أظن أنها لا تملك المال للأيام القادمة!"

في اليوم التالي، لم يكن هُناك ما يكفي من المال لشراء الدقيق مرة أخرى. دخلت مْامْا إلى متجر في أسيوط لشراء فستانان لإحدى فتياتها. توقفت عند مُنضدة السلع المقطوعة للحصول على ياردة من القماش لإنهاء البطانية واللحاف. عندما كانت تُغادر أوقفها البائع. "شيء لكِ يا مْامْا"، ابتسم الرجل. نظرت إلى أسفل لترى أنه يضع جنيهاً في راحة يدها. بما كان لديها بالفعل، كان هذا كافياً لشراء ما تحتاج إليه من الخُبز للغد.

في يوم آخر، وجدت أنه ينقصهم ربع كيلو من الدقيق، لذا ذهبت مْامْا في أسيوط، هذه المرة إلى أحد صناديق الصدقات التي وضَعهَا لها أحد الأصدقاء. كان صندوق الصدقات هذا أمام نادي النيل، ويرتاد إليه رجال الأعمال الأثرياء وغيرهم. نظرت مْامْا إلى الصندوق الذي كانت تجد فيه غالباً أموالاً للمُساعدة هُنا، لكنه كان فارغاً. سمعت لِلِيَّان صوت من الخَلفْ. صوت ودود تعرفت عليه في الماضي. كان صديقاً مصرياً ممتازاً وهو يبتسم لها.

"يبدو أن الصندوق فارغاً، أليس كذلك؟" قال، ووضع يَدهُ في جيبه وأخرج بعض النقود الفضية. ثم أعاد الباقي وأخرج ورقة نقدية من فئة جنيه. ثم أعادها ضاحكاً، "لِلَيَّان، أعلم أن هذا ليس كافياً". نظرت إلى أسفل لترى صديقها ناولها أربع جنيهات. أربع جنيهات! هذا يكفي للدقيق لمدة ثلاثة أو أربعة أيام مع المال المُتبقي. وبينما كانا يتحدثان، توقف شابان، صديقان لكل منهما، وأعطى كل منهما بيده حُفنة من القروش.

"ربما عندما تقرأون بعضاً من رسالتي"، كما كتبت في رسالة إلى أمريكا، "قد يخطر بِبْالِكَ فكرة مُفادها أن المال يسقط عليَّ فجأة بينما أذهبُ إلى أسيوط! لا، بعض الأيام مُظلمة وكئيبة، صعبة للغاية، صعبة جداً. مع ذلك، يرى الله، في وقته الخاص، أن كل شيء على ما يُرام".

في نوفمبر ١٩٣٥، كتبت إلى أصدقائها في أمريكا: "أشعُر بالامتنان الشديد للحياة الصغيرة التي أأتمنا الله برعايتها باسمه. في صباح الأحد، بينما كُنت جالسة على منصة كنيستنا الكبيرة الجميلة التي منحنا إياها رجل طيب من فيلادلفيا، رأيت مئات الوجوه الصغيرة البريئة تتطلع إليَّ طلباً للخُبز والحُب وخُبز الحياة، ويداً مُرشدة من مْامْا على المكان الصعب. أغمضتُ عيني وانحنيت برأسي وصَلِتُ: "يا ربُ، سَاعِدني!"

مرة أخرى، كتبت: "كم أحتاج إلى صلواتكم". إن هؤلاء الأطفال أنهم كمثل أي طفل آخر. بعضهم مريض، وبعضهم طيب، وبعضهم سهل التعامل معه، وبعضهم يسبب لي الكثير من المتاعب والآلام. ولكن يجب تعليمهم والعناية بهم جميعاً. تعتقد الأمهات الصالحات في أمريكا أن أيديهن مليئة إذا كان لديهن

أربعة أو خمسة أطفال صغار للعناية بهم. مع الأب الذي يتولى أمر المال؛ ولكن لدي ما يقرب من ألف طفل ويجب أن أقُومُ بعمل الأم والأب لكل هؤلاء. ويجب أن أكتبُ مئات الرسائل كل أسبوع. ثم يجب أن أشرِفُ على كل العمل أو أقُومُ به. كم أُحب عملي وأشكُر الله لأنه اختارني وليس شخصاً آخر، لكنني متعبة جداً ..."

كانت مُامْا تتمنى أن يتمكن لأصدقاها في جميع أنحاء أمريكا، إذا كانوا هُنا أيضاً، في الحضور وسماع طفل صغير وهو يقرأ دروس الكتاب المُقدس. كان بعضهم صغيراً جداً لدرجة أنهم لم يتمكنوا من فهم ما يقرأُنه. ومع ذلك، كانوا قادرين على قول الصلاة الربانية باللغة الإنجليزية والعربية والمزمور الثالث والعشرين والعديد من أجزاء الكتاب المُقدس الأخرى. قال يسوع: "دعوا الأولاد الصغار يأتون إليَّ..."

"أحيانًا أشعُر بالإحباط"، كتبت في مُذكراتها ذات ليلة". لكن بعد ذلك أتذكر أنه لو لم تكن أبواب دار الأيتام مفتوحة، لما تمكن هؤلاء الأطفال من الالتحاق بالمدرسة أبداً، حيث لا توجد مدارس مجانية على بُعد مئات الكيلومترات. حيث يتم قبول عدد قليل جداً في كل مدرسة، ولم يكن بإمكان أطفالنا حتى الحصول على هذه الفرصة، حيث لن يكون لديهم ما يَطعمهُم أو يكسوهم أو يشتري لهم كُتبهم.

"عندما أنظر إلى أطفالي، أشعُر أنهم عطية الله لي، وبالطبع، يشعرون بنفس الشعور: أن الرب أرسل لهم أُماً من بعيد عبر البحر ... نحن لا نرفض أي طفل أبداً، لأننا لا نملك المال. أو لأننا لا نملك سريراً لهُ. إذا شعرنا أن الطفل يحتاج إلى بيت، فإننا نقبله".

مرة أخرى في مُذكراتها: "أعطانا شخص ما جرامافوناً جميلاً وبعض التسجيلات الجميلة للترانيم - "إلى الأمام، أيها الجندي المسيحي"، و"هذا هو اليوم السعيد"، و"ليلة الميلاد"، وغيرها. شغلت إحدى الفتيات أسطوانة، بينما نقوم بالقص والخياطة. أنا مُتأكدة من أنهن لن ينسين أبداً هذه الأيام الرائعة التي قضيناها معاً. إنها ساعات سعيدة للغاية - الموسيقى المُقدسة، والحُب الذي يُحيط بنا، والعمل المُفيد... بالتأكيد ستتذكر فتياتي هذه الساعات بعد فترة طويلة من مُغادرتهن لنا وامتلاكهن منازل خاصة بهن.

"يقوم الأولاد بعملٌ حسناً في صناعة الكراسي. نتلقى طلبات كثيرة لصناعة الكراسي مما لا نستطيع تلبيتها. بالطبع، لأنهم هم مشغولين بالمدرسة والدراسة".

"يا له من أمر مُحزن حدث لأحدى فتياتنا، التي تزوجت مُنذ حوالي عشر سنوات ولديها أربعة أطفال صغار، عادت إلينا قائلة إن زوجها أصبح أعمى وأن أسرته لن تُريد أن تهتم بها أو بالأطفال. بالطبع أخذناها معنا في البيت".

على الرغم من مرحها المُستمر ورفضها إبطاء سرعتها عندما تحتاجها أسرتها الكبيرة، بدأت مُامْا تلاحظ تغييراً خَفيِاً في نفسها لا يُبشر بالخير. الطريقة التي تصعد بها السلالم ببطء، أو لا تصعد إلى السلالم على الإطلاق. الطريقة التي تتصرف بها بدون طعام عندما تكون جائعة ولم تأكل لأن الموارد كانت قليلة. كانت تشعر بالتعب طوال الوقت – حتى في الصباح عندما تستيقظ لأول مرة. كانت الآلام الحادة تسري حول قلبها عندما تكون

مُنهكة. كانت تتنفس بصعوبة. كانت عضلات حلقها تنقبض من التوتر حتى اضطرت إلى الاستلقاء على السرير لتخفيفها.

كانت بناتها الكُبار يقمن بمزيد من العمل الشاق. كان أحد أولادها الكُبار يُساعدها بشكل كبير من خلال القيام بالكثير من الأعمال الكتابية والمُحاسبة وتَحَمُل الكثير والمزيد من العبء الإداري. كانت تُحب هذا الصبي، مينا جرجسْ. أنه كان حقاً ابناً محبوباً.

لقد جاء إليها وهو صبي صغير في عام ١٩٢٠، خجول، ولكنه محبوب وذكي. لفترة طويلة كان مُجرد واحد من أكثر من ألف شخص. ثم في يوم رائع رأته مْامْا فجأة. لقد كان حُباً من النظرة الأولى. كان يقف بجانب مكتبها بهدوء بينما كانت مْامْا تعمل. بدأ يُساعد بطرق صغيرة - ثم أكثر فأكثر. لاحقاً، تزوج إحدى فتيات مْامْا الصغيرات - مِاري. (أصبح مدير أعمال دار الأيتام عندما كان شاباً جيداً).

كانت بناتها الكبار يقمن الآن بمزيد من الأعمال الشاقة. كانت الأرامل أكثر مُساعدة بقدر ما يعرفن كيف يكُن. ولكن في كثير من الأحيان لم يكن هُناك أحد عندما كان لا بد من القيام بعمل شاق. غالباً لم يكن أحد، سوى مْامْا، قادراً على تحمل المسؤوليات الهائلة التي ينطوي عليها قرار واحد فقط.

ولكن الآن، كان هُناك أكثر من ألف ومائة في دار الأيتام ومن الضروري أن تقع مُعظم المسؤوليات الثقيلة على أكتاف وقلب مْامْا المُتعَبينَ. إنها تعلم أن أصدقاءها في أسيوط كانوا قلقين وعرفت أنهم كانوا يحاولون مُساعدتها أكثر مما فعلوا في الماضي. لكن كانت الأوقات صعبة للغاية لدرجة أنه كان من

الصعب على أي شخص أن يُعطي الكثير. لقد أحبت هؤلاء الأصدقاء المصريين الأعزاء. غالباً ما كانت تفكر: "كان على أن أقطع كل هذه المسافة إلى مصر لأدعوكم أصدقائي!"

ومع ذلك، كانت تشعُر بالتعب أكثر فأكثر. في بعض الأحيان كانت بالكاد تستطيع صعود السلالم. كان يوم بارداً وكئيباً بشكل خاص، في أواخر فبراير من عام ١٩٣٧. كانت روحها الكئيبة تتناسب مع اليوم. كانت مرهقة جداً، مُتعبة لدرجة أنها شعرت أنها إذا جلست فإنها بالتأكيد ستبقى كذلك للأبد. ثم سمعت صوت حاد من شاب. كان صبي توصيل التلغراف عند الباب. "مْامْا! مْامْا!" كانت نبرته مُتحمسة وسعيدة، وهو يُنادي، ثم بدأ في نطق سلسلة من الكلمات العربية في فرح. وأعطاها مظروف. كانت برقية أُرسلت من باخرة قبالة الساحل الغربي لأفريقيا. عندما قرأتها، غرقت مْامْا في كُرسي هزاز قريب وأغمضت عينيها. امتزجت دموع التعب ودموع الامتنان بحُرية على وجهها. كانت البرقية من اللورد ماكلاي، وهو رجُل نبيل أسكتلندي. ولكن أكثر من مكانته البارزة ولقبه، كان صديقاً طيباً وعزيزاً لمْامْا الذي جاء لحياتها عندما كانت في أمس الحاجة إلى صديق. أغمضت عينيها، وابتسمت شفتيها، وعاد عقل مْامْا لعبر السنين.

في يوم من الأيام دعت امرأة مصرية - صديقة مْامْا - إلى منزلها لتناول العشاء، ورغم أن مْامْا نادراً ما تقبل دعوة لترك أطفالها، لكنها كانت تفعل ذلك عادةً، فقد زادت همومها في دار الأيتام بسبب نقص المال لشراء الطعام لليوم التالي. بطريقة ما، بدا حصولها على الدقيق اليومي، وهو طعام ضروري آخر، صعباً للغاية مؤخراً.

لقد انتهى العشاء تقريباً عندما سمعت صفارة الباخرة النيلية الفاخرة التي شقت طريقها من القاهرة بحمولتها من السائحين. اعتذرت مُامْا بسُرعة. يجب أن أذهب إلى دار الأيتام للحصول على الكتيبات والنُبَذْ، ثم أسرع إلى الباخرة التي كانت تعلم أنها ستتوقف في أسيوط للتزويد بالوقود ولإتاحة الوقت للركاب لشراء الشال الأسود الذي يُمكنهم أخذه كتذكارات. بالطبع، توقفت مُعظم النساء المصريات عن ارتداء الشال. لم يكن مُريحاً في ارتداء الحجاب، حتى بالنسبة للسائحين لفترة قصيرة. لكن يجب أن يكون لديهن شيء يأخذنه إلى بيوتهم لإظهار أنهن كُن في مكان ما. لذلك، توقفت السفينة، التي كانت بحاجة إلى وقت للتزويد بالوقود على أي حال، في أسيوط.

ودعت مُضيفيها بسُرعة، الذين كانوا الآن يهزون رُأسَهُم لصديقتهم الأمريكية، "أولادك يأتون دائماً في المقام الأول، أليس كذلك؟" قطعت مُامْا خطوات طويلة في الشارع نحو القناطر الذي يُشكل الجسر المؤدي إلى دار الأيتام. كان بإمكانها رؤية الباخرة ترسو على الشاطئ. وسارعت في الصعود على ممر المشاة، لتحكي عن أخبار دار الأيتام الضخمة التي تُديرها "بالإيمان". توقفت للحظة على سطح السفينة وهي قلقة من مشيتها السريعة، تحاول أن تعرف أي مجموعة من السائحين الضاحكين المُتحدثين ستقترب منهم أولاً. قالت: "يا رب، أنا سامعه"، لكنها لم تشعر بأي إجابة. ربما كانت مُستعجلة أكثر مما ينبغي عليه. تحركت نحو الطاولات حيث كان الرُكاب يشربون الشاي، ثم توقفت عند إحدى الطاولات. "هل يرغب أي منكم في القراءة عن دار الأيتام المسيحية في أسيوط التي تديرها بالإيمان حيث يوجد ما يقرب من ألف طفل؟" درست وجوههم. كم بدت عيون الشباب فارغة. كان

الشباب جالسون بقسوة ووجوههم شاحبة. ظنت أنهم لم يسمعوها، فبدأت مرة أخرى: "هل يهتم أي منكم...؟" استدار الآن، الشاب الأقرب إليها فجأة، ودخان السجائر المتساقطة يتصاعد مُباشَرَةً في وجهها بتأن حاد. من خلال الدخان، كان بإمكانها رؤية: خطوط قاسية حول الفم، وهالات سوداء عميقة تحت عينيه، ونظرة ساخرة. "لا! لن أهتم..." نظر لها بوقاحة، ثم استدار بعيداً. لكن مْامْا أدركت أنه كان يقول الحقيقة، فهو "لم يهتم حقاً".

ابتعدت، وقد شعرت قليلاً بالضيقْ من هذه المُعاملة. عادةً ما كانت تُقبل عندما "تطلب" لأطفالها. حتى عندما لم يكن لدى الشعب المصري ما يُقدمه لها من المال، فقد عاملوها بلطف وبأدب. كانت على بُعد خطوات قليلة من الشاب الذي وبخها عندما سَمَعَت صوتاً ناعماً وهادئاً. بدا أن صوتها الدافئ قد أذاب المُعاملة الجليدية التي تلقتها للتو. "لحظة واحدة فقط ..." اقترب الصوت. "أودُ بشدة أن أرى أحد كُتَبِكِ". التفتت مْامْا لترى إطار وجه جميل بشَعر أشقر ناعم مُحمر. كانت الشفاه تبتسم بلطف. لكن مْامْا رأت عيونهم أكثر من أي شيء آخر. كانت لطيفة. سلمت الشابة الكتيب، مُمتنة لأنها جاءت إليها عندما فعلت ذلك. كانت صديقتها الجديدة تتعرف على مجموعة قصص وصور لدار الأيتام. ذهبت مْامْا بهدوء إلى الجانب الآخر من السطح وانتظرت لفترة، ورأت الشابة قادمةْ إليها. سلمت مْامْا خمس دولارات. "أنا السيدة إنسكيب من اسكتلندا"، قالت وهي تبتسم مرة أخرى. "هل يُمكنني المجيء هذا المساء لزيارة دار الأيتام الخاصة بكِ؟"

ابتسمت مْامْا ابتسامة عريضة، مُندهشة. توجهت إلى الملجأ لتُجهز كل شيء لضيفتها الجميلة.

في الساعة السابعة، كان المطبخ متألقاً، وكان المكان نظيف بأكمله. تم استحمام الأطفال الصغار ووضعهم في الفراش.

في تمام الساعة الثامنة، طَرُقْ الباب، وفتحته مْامْا ورحبت بالشابة الجميلة التي التقت بها. كان هُناك أسكتلندي طويل القامة ذو شعر رملي يبدو أنه في الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمره، أكبر جزءاً من السيدة إنسكيب. حسناً، قَبَالتها وقالت: "السيدة تراشر - والدي، اللورد ماكلاي". بالكاد كانت مْامْا تعرف ماذا تفعل. أو ماذا تقول أيضاً. لم تكن من قبل في حضرة النبلاء، وأخبرت ضيوفها بذلك.

ضحكت الشابة. وكذلك فَعَلَ والدها. ثم نظر مُباشَرَةً في عيني مْامْا. "سيّدة تراشر، أياً كان اللقب الذي قد أحمله، فإنه لا يساوي شيئاً مُقارنة بشخصيتكِ ونُبلكِ".

أخذتهم مْامْا في جولة في دار الأيتام. كانت فخورة بأطفالها. كانت سعيدة لأن كل شيء كان في مكانه، أنيقاً ونظيفاً.

عندما جاء موعد مُغادرة اللورد ماكلاي، سَلَمَ مْامْا عشرين جنيهاً. بعد ذلك، كان النبيل الأسكتلندي الكريم وعائلته يُرسلون لها المال في كل عيد ميلاد، وأحياناً خمسين جنيهاً.

نهضت مْامْا من على الكُرسي الهزاز، وقرأت البرقية التي تلقتها منه مرة أخرى. كان اللورد ماكلاي قادماً عبر القاهرة في مُهمة عمل، لكن جدول أعماله كان مُزدحماً جداً، ولم يكن لديه الوقت للمجيء إلى أسيوط. إذا كان بإمكان مْامْا مُقابلته في القاهرة في صباح اليوم التالي وبينما كانت سفينته تُزود بالوقود وتحميلها، لأنه يُريد التحدث معها.

أنني أستطيع مُقابلته!

جهزت مْامْا نفسها للرحلة. قررت أن تقود السيارة ووافقت جيني، التي كانت هُنا في دار الأيتام مرة أخرى، في الذهاب معها.

عندما قابلت النبيل الأسكتلندي على سطح السفينة في القاهرة، أرته صور أطفالها. كان هُناك طفل حديث الولادة، وآخر من الأطفال الإعدادي، واحد الأطفال الصغار، وآخر من الأطفال الجُدد، وأحد الأولاد الكُبار يمارسون الجِرَفْ الجلدية. وهُنا كانت الفتيات الصغار يخيطن بجوار مْامْا في كرسيها الهزاز تحت الشجرة الكبيرة في مُقدمةْ منزلها.

لقد اعتقد أنها صور جميلة وقال ذلك. "لكن ما أردتُ معرفته" قال، "هل هُناك أي شيء تحتاجين إليه بشكل خاص؟"

حسناً كان الأطفال في حاجة ماسة إلى الملابس. والدقيق - كان من العبء الكبير من يوم لآخر في العثور على المال لشراء الدقيق لخُبزه. كما شعرت أيضاً أن أطفالها يحتاجون إلى المزيد من اللحوم أكثر مما يحصلون عليه الآن.

"وماذا عنكِ؟" كان صديقها ينظر الآن إليها بفضول، مُبتسماً وابتسامة غير مُصدقة لم تَفهَمهَا. "وماذا عنكِ؟" سأل مرة أخرى. "ألا تحتاجين إلى أي شيء لنفسكِ؟"

كان السؤال غير مُتوقع لدرجة أنه فاجأ مْامْا تماماً. ابتسمت قليلاً، مُدركة أنها فكرت في أطفالها وأراملها لفترة طويلة لدرجة أنها لم تستطع التفكير في أي شيء تحتاجه لنفسها. قالت: "لا، أنا على ما يُرام. لكن أطفالي..." تدفقت عليها سيل من الأُمنيات عندما فكرت في أطفالها واحتياجاتهم الكبيرة. تحطم صوتها. توقفت بعد

ذلك ومسحت عينيها بمنديل أبيض نظيف سلمته لها جيني عندما غادرت السيارة، قبل لحظات.

"آنسة تراشر، سأعطيكِ ألف جنيه - خمسة آلاف دولار بالعملة الأمريكية".

أغمضت مُامْا عينيها بينما تحدث صديقها الأسكتلندي. سمعت فجأة أجراساً تدق. من خلال الأجراس سمعت صوته كصوت بعيد عذب. خمسة آلاف دولار! كانت خائفة من فتح عينيها للحظة خوفاً من أنها كانت تحلم. لكنه كان يواصل بشكل واقعي للغاية بكتابة شيك. وبينما كان يكتبه، فكرت: آه الأبقار، والملابس، والأُرز، والبصل، والفاصوليا، ولحم البقر والدقيق التي ستشتريها بخمسة ألاف دولار! سيزدهر أطفالها. حاولت فتح عينيها، لتشكُر المُحسن المُتبرع، لكنها وجدت أنها لا تستطيع السيطرة على دموعها عندما فعلت ذلك.

"لكن..." كان صوته صارماً الآن. وبدهشة، نظرت إليه جالساً هُناك مُستقيماً وصارماً على كُرسيه، وأشعة الشمس الساطعة تلتقط اللمعان الأحمر والذهبي في شَعره الرمادي. "أُريدكِ أن تستخدمي جزءاً من هذا لنفسكِ - نصفه. أطلب منكِ، من فَضلِك. لمرة واحدة فقط، استخدمي هذا المبلغ لنفسكِ".

ماذا تحتاج مُامْا لنفسها؟ ابتسمت قليلاً، تحاول جاهدة التفكير في أي شيء تُريده لنفسها. لم يكن بوسعها أن تفكر في أي شيء، حسناً، لا شيء باستثناء - من السخف أن عقلها عاد إلى نافذة المطعم في لونج بيتش، كاليفورنيا - إلى فطيرة الليمون ذو الشهية العطرة.

"شُكراً لك، يا صديقي العزيز" قالت. صفّرت الباخرة. وقَفَا وتصافحا. ثم كانت تسرُع إلى ممر الصعود وكانت تسير نحو السيارة حيث كانت جيني تنتظرها. أظهرت لجيني بسعادة الشيك وقالت، دعنا نمُرُ بالمدينة في أسيوط ونشتري ثوراً حتى يتمكن جميع الأطفال من تناول اللحوم هذه الليلة. ثم نحتاج إلى موارد لِلِحَاَف. يُمكننا التوقف..." "ليل"، قاطعتها جيني بهدوء. ليل، هل تعتقدين أننا يُمكننا أن ننفق بضعة قروش من مبلغ الخمسة ألاف دولار على... من أجل..."

"من أجل ما، جين؟ هيا". رأت أختها ذات الصوت الناعم تتردد، ثم ضحكت بثبات في عينيها.

"هل تعتقدين أنه يُمكننا شراء صندوق من الشوكولاتة لأقوم بتوزيعه على الصغار؟"

عانقت مُامْا أختها بسُرعة وقالت: "هل دللَتيهُم؟" "وكم أُحِبُكِ لهذا السبب!" استيقظت مُبكراً في الصباح التالي، وشعرت بإحساس جيد بالرفاهية والرضا. بل وحتى بالنشوة. بعد الإفطار، ردت على طَرِقٌ على الباب. كان نَفْس الصبي الذي أحضر لها البرقية في الصباح السابق. بدا أكثر حماساً هذه المرة، إذا كان هذا مُمكناً. سلمها مظروفًا مرة أخرى، ثم تركه بإيقاع مُتقطع وغير مُنتظم. فتحتهُ وهي ترتجف، وقرأته ثم أعادت تتبع الكلمات التي كانت بداخلها مرة أخرى بعينيها. يا للأسف، لا بد أنها قرأتها بشكل خاطئ في المرة الأولى. لكن، لا. وقعت على الأرض في صلاة. أخيراً، أسندت جسدها على الكُرسي الهزاز القديم الذي يبقى دائماً بجوار الباب الأمامي، وأراحت رأسها على ذراعه وبكت لفترة طويلة.

لم تكن لديها أي فكرة عن المُدة التي بقيت فيها هُناك على هذا النحو. سَمَعَت بعض فتياتها يدخلن، وشعرت بهم يُساعدنها في صعود السلالم إلى غُرفتها ويضعُنها برفق في سريرها. بعد فترة، لم تكن تعرف كم من الوقت، استيقظت باهتة. كان الطبيب من المُستشفى الأمريكي يفحص شفتها وفتحت عينيها وابتسمت له. ماذا فعلتُ لأستحق مثل هذا العلاج اللطيف؟ حاولت فتح فمها للتحدث، لتشكُره، لمُساعدته على فهم أنها بخير حقاً. لكنه هز رأسه برفق تَجاهُها، ووضع إصبعه على شفتيه ورتب على كتفيها. كانت على وشك الراحة لبضعة أيام وكان مُتأكداً من أنها ستكون بخير. ثم غادر. نامت الفتيات أيضاً.

حدقت في يدها اليمنى، التي كانت لا تزال مشدودة بإحكام. كانت تحتوي على برقية. فتحت يديها بعناية، ومشطت البرقية وقرأتها بصمت مرة أخرى. ثم أطلقت تَنَهُدْ عميقة وأغمضت عينيها بسعادة مُحاولة مُلاحظة حجم الكلمات الموجودة فيها.

لقد قرر اللورد ماكلاي إرسال أربعة ألاف جنيه أخرى. كان مبلغ المال في طريقه إليها. إن هذا يعني خمسة ألاف جنيه في تلك الأيام كانت تُعادل خمسة وعشرون ألف دولار.

هذا يعني راحة لجسدها المُتعب وقلبها المؤلم.

كانت الأخبار أفضل مما كانت قادرة على تَحَمُلهَ. أغمضت عينيها.

انزلقت الآن الشمس من الجانب، وضرب الليل بسُرعة كما يحدث دائماً هُنا في بلد الصحراء. ارتفع القمر المصري الجميل، مُهيباً، ومُشرقاً، ولكنه لطيف.

أدارت مْامْا وجهها النائم وتبعت ضوء القمر القديم الغامض لمصر على النيل وبدأت تحلم. بدا المُستقبل مُشرقاً وأسهل كثيراً. ثم عبست فجأة. في المسافة ظهرت سحابة مُظلمة في أفق الصحراء. كان هذا غريباً حقاً. كانت سماء مصر صافية، باستثناء عندما جاءت رياح الخماسين في الربيع حاملة معها غُبار الصحراء. كانت تقترب هذه السحابة. كان شيئاً حقيراً في حلمها. زحفت الآن ببطء عبر السماء مثل وحش عظيم بذيل مُتناثر، صرخت، ثم أزاحت الحلم بفارغ الصبر بإشارة حادة. لقد كان كل شيء يسير على ما يُرام في دار الأيتام مُنذ عطية اللورد ماكلاي المُهمة. ستكون السنوات القادمة مُشرقة ورائعة. كيف يُمكن أن تكون غير ذلك؟

يستمتع الأطفال بالسباحة مع مُامْا في حرارة صيف ١٩٥٤

يرحب الأطفال بعودة مُامْا من أمريكا في عام ١٩٥٥

الفصل الثاني عشر

اختبار شفاء الله

كان خريف عام ١٩٤٧، وقت الرُعب والموت، قد حل على مصر.

لقد واجهت مْامْا الربيع بفرح، كالمُعتاد، وهي لا تعرف ماذا سيحدث. لقد جلبت الحرب العالمية الثانية شُحنة من إمدادات الصليب الأحمر كانت مُخصص تسليمها في الأصل إلى اليونان. ولكن تلك البلاد سقطت في أيدي العدو، وأعطى السفير الأمريكي شُحنة الملابس إلى مْامْا مع شيك بقيمة مئة وخمسة وعشرين دولاراً لدفع تكاليف الشحن من القاهرة. لقد كانت مْامْا مُمتنة، لأن أطفالها كانوا في حاجة إلى تلك الشُحنة. كيف يُمكن أن تُعبر عن شُكرها؟ ألفان وستمائة فستان، وتسعمائة سترة صوفية من جميع الأحجام، وبطانيات، ومواد غذائية، والعديد من الملابس الأخرى. بالإضافة إلى ذلك، بدأت الحكومة الأمريكية في إرسال فائض من الأطعمة لمُساعدة مْامْا وعائلتها المصرية والكبيرة التي تضاعفت الآن حتى بلغ عددها أكثر من ألف ومائتي. كما أرسل مجلس المُرسَلين النسائي للكنائس الرسولية في أمريكا كمية غير عادية من الملابس لكل من الأرامل والأطفال. كما أرسل الأفراد المسيحين من تلك الكنيسة هداياهم بإخلاص أيضاً.

ولكن كانت مْامْا قادرة على توفير الطعام، وفي مُنتصف الصيف بدأت في الحفاظ على الإمدادات بعناية أكبر. بحلول أواخر الصيف، وجدت أن أموالها وإمدادات الطعام التي كانت لديها قد انخفضت مرة أخرى بشكل خطير. كانت تحاول جاهدة تلبية احتياجاتها، عند ظهر في أحد الأيام حدث شيء ما، والذي

كان يشغل تفكيرها بشكل كبير. حدث ذلك الشيء في سبتمبر. كان رُعباً جاء دون إنذار مُسبق. وكان هذا الرُعب الذي طاردَ مصر الآن أكثر فظاعة من نقص الغذاء والملابس. كان رُعباً عظيماً، حتى أن مْامْا كانت تعيش في خوف دائم منهُ. كان ينتشر عبر مصر مثل وحش له ألف أنياب قاتلة وذيل للموت. كُلما توقف الوحش عند البيت، كان الجنود ينشرون دائرة من الدهان الأبيض على الباب الأمامي، ثم يتولون حراسته عن بُعد. كانت دائرة الموت البيضاء تضرب الرُعب في قلوب المارة وتجعلهم يُسارعون في الاتجاه الآخر خوفاً على حياتهم. لأن الباب المطلي باللون الأبيض يعني، حينها، موتاً فظيعاً ونتناً في الداخل. موت للحي، كما أنه لا يزال موت صامت. أنه الموت بالكوليرا!

بشكل عام، كان أهل الضحية يتخلصون من الكوليرا، في غضون ساعات قليلة. وفي وقت قصير لم يتبق سوى لطخة الدهان البيضاء على الباب الأمامي كتذكار بأن عائلة كانت تعيش هُناك ذات يوم.

بدأ حصار الكوليرا الرهيب في مصر في سبتمبر ١٩٤٧ وسرعان ما مات المئات منهُ بحلول نوفمبر، ثم الآلاف. في البداية، تجنبت الكوليرا أسيوط حيث كانت تعيش مْامْا مع عائلتها الكبيرة. ولكن بعد ذلك بدأت تقترب منها. نظرت مْامْا إلى جموع الأطفال المُكدسين في دار الأيتام عن كثب لدرجة أن أي مرض مُعدٍ سينتشر مثل النار في حريق الغابات. ارتجفت من الخوف عندما فكرت في الأمر. كانت تصلي دائماً، ليس فقط ألا يتجاوز الكوليرا بوابات الملجأ، ولكن أن يزول خوفها أيضاً. كم كانت تتوق إلى جيني في أوقات الخوف مثل هذه، لكن جيني عادت إلى أمريكا. لقد مر ما يقرب من تسع سنوات الآن مُنذ أن زارت أختها

الكبيرة والحبيبة لمصر. لقد كان وقتاً وحيداً من الشوق السري إلى مْامْا. لو لم تكن مشغولة بهذا القدر لكانت أكثر وحدة وخوفاً. كما وعدت جيني بالعودة في عيد الميلاد القادم. ولم يكن ذلك بعيداً جداً. فقد حل شهر نوفمبر بالفعل. ابتسمت لنفسها على الرغم من مخاوفها.

في الرابع عشر من نوفمبر ١٩٤٧ كتبت مْامْا إلى أصدقائها في الكنائس الرسولية في أمريكا: "... كان هُناك القليل جداً من المال القادم، لكن مثل هذه الأشياء ليست بنفس الأهمية للأشياء الكبيرة الأخرى. من المُرجح أن تكُونوا قد سمعتم عن وباء الكوليرا الذي ضرب مصر في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٤٧. مات الآلاف بسببها... لقد فَتَحنَا مدرستنا في أوائل شهر أكتوبر، ولكنني أتوقع أننا المدرسة الوحيدة المفتوحة في كل مصر. لقد اضِطَرت الحكومة إلى إغلاق جميع المدارس بسبب وباء الكوليرا المُروع... يموت المئات كل يوم. لم نغلق مدرستنا، لأن أطفالنا الأيتام بالطبع، ليس لديهم مكان أخر يذهبون إليه... الأطباء مشغولون جداً بمُحاولة حقن أطفال المدارس".

في اليوم التالي، كانت مْامْا وعلياء تفرزان بقايا الفساتين في صناديق الخياطة في غُرفة عمل مْامْا. نظرت مْامْا إلى الأعلى بتمعُن وقالت: "ربما لا ينبغي أن أقبل أي أطفال جُدد في دار الأيتام حتى يمُر خطر الكوليرا". عبست قليلاً بقلق. "لكنني لم أرفض قَطْ أي شخص مُحتاج. سينكسر قلبي ان اضِطَرتُ إلى قول "لا" لطفل جائع ومريض".

لم تُجيب علياء. لم يكن هُناك أي إجابة. كان صباحاً مُشرقاً ومُشمساً في دار الأيتام. ألقى الضوء القادم من النوافذ العريضة

بأشعة قَزحية الألوان على شعر علياء الأسود الطويل. أشرقت العيون الداكنة بدفء وجمال نساء مصر الجميلات الجذابات من جميع الأعمار. كم ذكّرت هذه الفتاة المصرية الجميلة مْامْا بفريدة التي كانت طفلتها الأولى! كانت تلك العيون الداكنة تُشبه إلى حد كبير عيون فَريدة. فريدة! فكرت مرة أخرى في كيف أن ذهبوا معاً إلى المنزل الكبير المُستأجر لبدء حياتهم من جديد. ابتسمت مْامْا من ذكريَتها لفريدة. لقد كانت جريئة جداً للخروج في تلك المُغامرة العظيمة مع الرضيعة الصغيرة والجائعة. طفلتها الأولى. فكرت مرة أخرى في فرحتها العظيمة عندما احتاجت فريدة لأول مرة إلى المزيد من الحليب أكثر مما يُمكنها الحصول عليه من قطارة العين. لقد كان من المُثير أن ترى نموها إلى طفلة مُمتلئة الجسم وصحيّة، ثم إلى فتاة صغيرة جميلة بعينين داكنتين ومرحتين تتلألآن في وجه مُحسنها. مسحت مْامْا الدموع من عينيها الآن، عندما تذكرت فريدة. نظرت إلى علياء للحظة. بدا أنها تستطيع رؤية عيني فريدة الداكنتين في هذه الفتاة الجميلة التي جاءت بعد طفلتها الأولى. أصبحت علياء مثل ابنة لمْامْا وكانتا قريبتين جداً. قصاصات اللحاف على سبيل المثال، جاءت مْامْا من الإفطار لتجد علياء تقوم بفرزها لأنها رأت أنها بحاجة إلى ذلك. غالباً ما كانت تحضر لمْامْا عباءتها الزرقاء القديمة في أوقات الصلاة الليلية في الفناء، حتى قبل أن تُدرك مْامْا أنها أصبحت باردة للغاية.

نهضت مْامْا الآن، وذهبت إلى مكتبها وبدأت في كتابة رسالة لتُخبر أصدقائها في الكنيسة الرسولية بأمريكا. أرادت أن تُخبر أصدقائها عن علياء، وأنها تْذَكِرِهَا بفريدة. بدلاً من ذلك

وايضاً، يجب أن تُخبرهم عن مشاكلها المالية. لأول مرة، ترددت مْامْا ووضعت قلمها.

قالت بلطف: "علياء، كيف سأُدبر أمري بدونك يا عزيزتي؟"

ابتسمت علياء، واستمرت في العمل. أخيراً نظرت لأعلى. كان هُناك أثر للدموع في عينيها. "مْامْا، لقد أحببت كل دقيقة من حياتي معكِ. أُريدكِ أن تعلمي أنني أُحِبَكِ كأمي".

شعرت مْامْا أن عينيها تمتلئان بالدموع. مسحتهما بضربة سريعة ونفذ صبرها، ولكن ليس بالسرعة الكافية لعلياء الحساسة.

"مْامْا، هل جعلتكِ تبكي؟" كانت العيون الداكنة الجميلة، المُحاطة برموشها السوداء الطويلة والمُتعرجة، نصف مُبتسمة ونصف جادة. هزت مْامْا رأسها.

"أنا سعيدة لأنكِ أخبرتِني يا عزيزتي. كُنت أعرف بالطبع. لكنني سعيدة جداً لأنكِ قُلتِ ذلك. إنه يعوض عن الأيام الصعبة التي يجب أن تأتي والآن حسناً، بسبب الكثير من الأشياء الجميلة مثلكِ". تنهدت مْامْا. "اليوم، حتى..." عادت إلى كتابة رسالة لأمريكا لتلبية احتياجاتها المالية.

"أصدقائي الأعزاء"، كتبت. "شُكراً لمُساعدتكم. لم أشعُر من قبل بحضور الله الحقيقي ..." وعندما انتهت، وقعت على الرسالة: "أنا أُختكم، لِلِيَّان تراشر". ثم سارعت إلى أسيوط لشراء بعض الطلبات.

في طريق عودتها، لاحظت جندياً يقف بالقرب من باب كوخ صغير من طريق القناطر. بالنظر إلى الماضي، رأت سبب وجود الحارس. كانت دائرة بيضاء قبيحة من الدهان مُلطخة على الباب! عانقت مْامْا حزمتها الثقيلة، وحدقت فيها. كل مخاوفها نزلت عليها في لحظة حمل قوية. كانت دائرة الطلاء الأبيض تعني شيئاً واحداً فقط! بدأت تسير بشكل أسرع إلى دار الأيتام. أسرع! أسِرع! أسِرع! لقد وصلت الكوليرا إلى أسيوط! ركضت إلى داخل الملجأ، وأغلقت الباب الرئيسي وأغلقته بإحكام. "لن يقترب أي وباء من مسكَنك".

ثم ذهبت إلى غُرفتها وجمعت أفكارها وأخيراً ركعت بجانبْ سريرها للصلاة. بدا المال الذي تحتاجه لإدارة دار الأيتام غير مُهم نسبياً مُقارنة بهذه العلامة القاتمة التي رأتها الآن في أسيوط. ومع ذلك، يجب أن تستمر الحياة. ركعت وصلّت مرة أخرى في فجر اليوم التالي.

"لن يقترب وباء من مسكنك". عندما استيقظت، هدّأت نفسها وبدأت في ارتداء ملابسها للذهاب إلى الكنيسة، مُتسائلة كيف ستُدبر أمر طعام الغد. كانت مُشكلة الطعام تظهر دائماً في المُقدمة عندما تكون احتياجاتها مُلحة جداً ودائماً ما كانت ضرورية للغاية.

بعد خدمة الأحد، دخل رجل مصري إلى الكنيسة: وهو يبتسم ابتسامة عريضة. "لقد خرجت مْامْا في جولة لتُرُيه الملجأ"، تسأل الرجل المصري، "كيف تسير الأمور معكِ". رأته مْامْا يمد يده إلى جيبه ويسلمها عدة جنيهات. أغمضت عينيها في صلاة شُكر سريعة. الطعام! سيكون هُناك طعام على الطاولات غداً!

في يوم الاثنين التالي نزلت إلى الطابق السفلي للقيام بعملها الصباحي. كانت الرسالة التي كتبتها يوم السبت جاهزة للطبع مع بعض الإضافات التي أضافتها قبل الإفطار، وفي مُنتصف الليل لن يكون لديها وقت لإنهاء الرسالة.

مر اليوم بنشاط، بلا أحداث. ثم المساء وأوائل الليل. ثم مُنتصف الليل.

لقد أنهت من كتابة الرسالة، وارسلتها، وركعت للصلاة، ثم استراحت على سريرها في نعاس عندما أدركت ضوءاً غريباً بالخارج. كان ضوءاً غريباً وغير مُنتظم، يختفي ويعود. تدريجياً نمت أكثر اشراقاً، في البداية اعتقدت أنها تحلُم. بالتأكيد كانت قد نامت وكان الوهج الغريب الساطع مُجرد كابوس. استيقظت عندما سمعت صراخاً، ثم جرس المدرسة "صاحت بغضب. في الضوء الساطع الخشن، سارعت إلى النوافذ المصبوبة وصرخت مما رأته".

انطلقت جبال ضخمة من ألسنة اللهب إلى السماء من عنبر الأولاد. بدا الأمر وكأن كل نافذة كانت مليئة بالوهج المُخيف للنيران المُندفعة إلى الليل. بصرخة حادة، انزلقت مُامْا في حذائها وردائها، واتصلت بقسم الإطفاء وركضت إلى أسفل السلم وعبرت الفناء. كانت تعلم أن أربعين طفلاً صغيراً كانوا نائمين في الجناح العلوي حيث يبدو أن الحريق هو الأسوأ. أين كانوا؟ ركضت نحو أحد أولادها الكبار.

"مينا"، صاحت في الضوضاء واللهب، "يجب أن ندخل ونأخذهم!" مع الخوف الذي يمسك بكل أليافها، بدأت تركض نحو ألسنة اللهب، بحثاً عن المكان الأكثر منطقياً للتسلل إلى الداخل.

أضاءت عيناها على باب لا يوجد فيه نار. كانت على وشك الوصول إليه عندما شعرت بذراع قوية تمسُك بيديها.

"مْامْا"، شهق صوت أجش. "لقد خرجوا جميعاً. صدقيني، لقد أخرجناهم جميعاً". التفتت لتجد مينا، وجهه الوسيم مُغطى بالسخام وملابسه مُبللة بالعرق.

هل أنتَ مُتأكد؟ هل أنتَ مُتأكد تماماً يا مينا؟" بكت مْامْا.

"نعم يا مْامْا، نعم. كان هُناك أربعون طفلاً. وقد أخرجنا أربعين منهم. إنهم آمنون في الفناء. "انظري؟" وسارع مينا. نظرت مْامْا عبر الفناء لترى أولادها الصغار، وكانت أعيُنهم واسعه من الإثارة وهم يلوحون لها. وبهدوء يائس، على الرغم من عجلتها، بدأت تسير نحوهم، تمشي وتعُد رؤوس الاطفال.

لقد ألقى الأولاد الكبار بكل المراتب المُحترقة في الخارج. بحثت عينا مْامْا المُنهجية اليائسة في طريق أسيوط عن عربة الإطفاء مرة أخرى. لم يكن هُناك أي علامة لمجيئها حتى الآن. "ما هو الشيء الذي يُمكن أن يستغرق كل هذا الوقت؟" تنهدت بضجر. لا بد أن الرجل الذي تلقى المُكالمة قد عاد إلى النوم دون تشغيل مُنبه رجال المطافئ.

هرعت إلى الأولاد الكبار الذين كانوا يضربون المراتب المُشتعلة بالعصي والمَكانس. "افتحوا المخزن واحصلوا على تلك الدلائل الجديدة"، سكبوا الماء فوق ضجيج النار المُشتعلة وصراخ الأولاد المُجتهدين. "هُناك مئة وخمسون دلواً جديداً. احصلُوا عليها بسُرعة! "وشكلوا فريق يعمل معاً!"

سمَعتْ مجموعة من الأولاد الكبار صوتها الآمر، فاستجابوا لها بسُرعة. وفي لحظات، كانوا كفرقة بدلاء المياه يعمل بدقة وكفاءة لدرجة أنه كان أشبه بتيار ثابت من الماء يتدفق إلى المناطق المُحترقة في المبنى. تنهدت مْامْا. بدا الأمر وكأن كل شيء سيكون تحت السيطرة في غضون دقائق ثم تومض قطعة ضالة من اللهب على الجانب البعيد من المطبخ. في لحظة كان هُناك كُتلة من ألسنة اللهب تنتشر بعُنف.

"إلى المطبخ!" صرخت مْامْا. "اذهبوا إلى المطبخ بالدلاء!" تحول صف الدلاء إلى المطبخ. مرة أخرى استرحتْ مْامْا للحظة. مسحت العرق المُتدفق على وجهها وأدركت أن وجهها أيضاً كان مُغطى بالسخام، وكذلك ملابسها. نظرت إلى نفسها في الوهج. غطتها الأوساخ والدخان بالكامل. أغلقت عينيها وبكت تنهُداً لم يسمع به أحداً. كانت تَتُوق إلى الراحة الهادئة لجيني في مثل هذه اللحظة القاتمة. لكن جيني ستعود، فقد كتبت أنها قادمة. لقد عادت جيني إلى مصر مرة أخرى من منزلها في لونج بيتش، كاليفورنيا، وستصل في وقت عيد الميلاد. مررت مْامْا يدها على وجهها المُتسخ. على أي حال، كانت تعتقد أنه سيكون هناك الكثير من الماء الساخن عندما ينتهي هذا وسيبدؤون في التنظيف على الفور.

لحسن الحظ، كانت خزانات الكيروسين التي توفر التدفئة لمياههم الساخنة مُمتلئة جيداً! كانت أفكار مْامْا تحترق الآن بداخلها. كانت خزانات الكيروسين على حافة المطبخ البعيدة. إذا وصلت النيران إلى هُناك، فستحدُثُ انفجارات رهيبة، وستنتشر ألسنة النيران إلى مبانٍ أخرى، والأسوأ من ذلك، قد يُقتَلْ بعض أولادها الذين يكافحون الحريق أو يصابون بجروح خطيرة. بحثت

عيناها في الجدار البعيد عن أثر النيران المُنتشرة هُناك. مرة أخرى، بحثت بشكل يائس في طريق أسيوط عن سيارة الإطفاء، لَكَنْ لم يكن هُناك أي علامة على مجيئهم. "أسِرع، أسِرع" صرخت على أنفاسها، مُنهكة لأن أولادها كانوا يتحركون بأسرع ما يُمكن وبكفاءة إنسانية. كانوا يعملون بجنون لإنقاذ بيتهم. كان الماء يتدفق بشكل منهجي على كل منطقة مُشتعلة مع التركيز الأكبر على منطقة المطبخ الأقرب إلى خزانات الكيروسين.

"ماذا أفعل؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟" ولت صرخة مُامًا من اليأس الشديد، وضاعت في الارتباك. سقطتّ على ركبتيها، مُندهشة من أنها كانت مُشغولة جداً بالعناية باللهب المُنتشر حتى أنها نست أن تُصلي. ومع ذلك، كانت ضعيفة جداً بسبب الإجهاد، حتى أنها لم تستطع أن تصلي بشكل كافٍ. أغمضت عينيها. جاءت الكلمات أخيراً:

"افعل شيئاً يا رب"، توسلت. "افعل شيئاً، لِخَزَانَات الكيروسين. افعل شيئاً يا رب!"

بعد لحظات أدركت أن درجة الحريق كانت تقل. أخيراً لم تتمكن من رؤية أية ألسنة من اللهب، ولا حتى أي شرارة. لَكَن الأولاد المُرهقين استمروا في مُراقبة أي اندلاع جديد. عندما وصلت سيارة الإطفاء بعد بُضع دقائق، كان الحريق قد انطفئ تماماً. بعد وقت قصير من الفجر وصلت سيارة الإسعاف من أسيوط، واخذت في نقل المُصابين إلى المُستشفى. تدفقت الدموع السوداء السخمة من على وجه مُامًا. نظرت بثبات إلى سائقي سيارة الإسعاف.

"لم يصب أحد، ولا حتى شخص واحد" قالت، بصوت مُختنق بالعاطفة.

عندما أصبح الضوء كافياً لتتمكن من رؤية المكان، فحصت الجدار بجوار صهاريج تخزين الكيروسين. كانت نافذة في الحائط مفتوحة وقد حُشرت فيها بعض الصحف القديمة مُنذ فترة. نظرت في النافذة: قد أكلت النيران الصحف الجافة بالكامل، ثم توقفت! خلف النافذة مُباشَرَةً حيث كانت الخزانات مملوءة بالكيروسين القاتل والمُتفجر.

"شُكراً لك يا رب" همست. ثم ذهبت إلى غُرفتها للاستحمام وارتداء ملابس نظيفة. بعد أن جلست على مكتبها، بدأت مُباشَرَةً في كتابة رسالة أخرى إلى أصدقائها من الكنيسة الرسولية بأمريكا. سيتطلب الأمر مُساعدة، والكثير من المُساعدة، لإعادة البناء. كما كان عليها أن تعرف كيف سيأكلون حتى يُمكن إعادة بناء المطبخ بعد دماره بالنيران. بعد ساعة، ذهبت إلى المطبخ الكبير، لا زال المكان يرتجف ويدخن من المحنة. كان كل شيء هُنا هادئاً الآن. عاد الجميع إلى النوم بعد أن بدا أن الخطر قد انتهى: نظرت إلى الموقد. رُبما كان لا يزال صالحاً للاستخدام. كذلك اثنان من طاولات العمل على ما يُرام، أو سيكونان هكذا مع القليل من العمل على الأرجل المُحترقة.

جلست مْامْا على طاولة عمل مُحترقة ووضعت يديها على عينيها وكأنها تحاول أن تحجب رؤية الأنقاض. يجب عليها بطريقة ما أن تحدد ما يُمكن استخدامه من كومة الأنقاض المُتفحمة، ثم بطريقة ما، يجب عليها أن تجد وسائل لاستبدال ما قد فُقدَ وإعادة بناء المبنى. لم يكن الأمر ليبدو صعباً عندما كانت

صغيرة. لكنها نهضت الآن وحاولت السير عبر المطبخ المليء بالحِطام، وتعثرت وكادت أن تسقط فوق كومة من الأنقاض. لأول مرة أدركت أنها مُرهَقة للغاية بحيث أنها لا تستطيع التفكير بجدية. نظرت إلى الأعلى من خلال الثقوب الكبيرة في السقف والدموع تملأ عيناها. صاحت بهدوء، "سأحتاج بالتأكيد إلى مُساعدتك يا رب".

بعد بضعة أيام، استيقظت مْامْا على صوت طَرُقٌ على البوابة الرئيسية. كان صوتاً كئيباً، مُستمراً، يتلاشى، ثم يعود مثل حلم سيئ. سمعت علياء تُجيب، ثم بدت خطواتها أعلى صوتاً عندما عادت نحو غُرفة مْامْا. "إنه رجل فقير وولداه الصغيران"، قالت لها علياء: "إنهم مُمزقون وجائعون ومُرهقين. أخبرتهم أننا لا نستطيع أن نستقبل أي شخص في الوقت الحالي بسبب وباء الكوليرا، لكنهم ساروا لمدة أربعة أيام عبر الصحراء و..."

تنهدت مْامْا بضجر. لم يسبق لها أنها رفضت أي شخص مُحتاج، ولكن مع انتشار الكوليرا القاتلة الآن في كل منطقة، ومع هذا القدر من العدوى، شعرت أنه ليس من صالح الأطفال أن تأخذ أي شخص جديد. رُبما يكون الطفل الجديد قد أُصيب بعدوى. لذلك فقد قررت قبل بضعة أيام بان هذا القرار سيكون سارياً طوال مدة وباء الكوليرا في مصر. ألا تقبل أي شخص!

كانت تلك كلمات باردة وقاسية، كلمات مؤسسية ومُطهره. ولكن ماذا كان بوسعها أن تفعل غير ذلك في أعقاب قاتل وحشي مثل الكوليرا؟ رفعت رأسها الآن، ونظرت بثبات إلى علياء في غضب تقريباً بسبب قرار مثل هذا يجب أن يُفرضْ عليها. كان صوتها قاسياً. "قولي لهم لا. لا بالتأكيد!" نظرت الفتاة بدهشة إلى

صوت نبرة مْامْا، ثم التفتت وسارت في طريقها. سَمَعَت مْامْا خطواتها على السلالم. لا. لا بالتأكيد! لا مكان لكم لأنكم قد تكُونوا مرضى. أنتم بحاجة إلينا. أنتم بحاجة إلى الله. أنتم بحاجة إلى الحُب والطعام واللطف، ولكن "لا"، لا يُمكنكم الدخول". تكرار هذا الكلام مثل سِجِل به إبرة عالقةٌ في اسطوانة المُوسيقى، تردد كلمات جوفاء: "لا يمكنك الدخول. لا يمكنك الدخول. لا مكان لكم لأنكم قد تكُونوا مرضى. أنتم بحاجة إلينا. أنتم بحاجة إلى الله. أنتم بحاجة إلى الحُب والطعام واللطف، ولكن "لا"، لا يُمكنكم الدخول".

فجأة، بدأت مْامْا تركض في الصالة، ثم تنزل السلالم، إلى الباب، إلى البوابة. "علياء! "انتظري، علياء!" عند البوابة الرئيسية، أوقفت نفسها وحدقت. وقَفَ أمامها رجل مُرهق في حالة من اليأس يرتدي ملابس مُمزقة ومُتسخة. بجانبه، نظَرَ إليها طفلين صغيران في بؤس. لم يكن عمرهما أكثر من خمس أو ست سنوات، لكن في عيونهما يكمن بهم حُزن لأيام طويلة. لقد ماتت أمهُما، لم يكن هُناك طعام، وضاع الأمل.

"دعيهم يدخلان"، قالت مْامْا بصوت أجش. تنهدت بتعب. "أأمل أن أكون قد تصرفتُ بحكمة".

قادت علياء الطفلين المُرهقين إلى الداخل للاستحمام والطعام. أرسلت مْامْا الأب إلى المطبخ حتى يتمكن من تناول الطعام قبل بدء رحلة طويلة إلى منزله. تم إطعام الصبي الصغير، والاستحمام ووضعه في الفراش للحصول على بعض الراحة التي كان يحتاج إليها بشدة. كان كلاهما مُنهَكِين وناموا في الحال. ولكن بعد مُنتصف الليل بقليل، سمعت مْامْا ضجة كبيرة في مَسكَن

الأولاد الصغار. في حالة ذهول، رأت علياء تركض نحوها وهي تبدو مُتوترة وقلقة. موسى الطفل الصغير، الصبي الأصغر، كان مريضاً بشدة. إسهال، وقيء، وحُمى مُرتفعة. نظرت مُامْا إلي علياء، التي كانت لا تزال نصف نائمة. أعراض الكوليرا! "يا إلهي، يا إلهي، ماذا فعلتُ؟" صرخت مُامْا. "ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟" همست بصوت مبحوح. ارتدت ملابسها بسُرعة، وطلبت من علياء أن تتصل بالطبيب على الفور. في طريقها إلى مبنى الأولاد، قالت صلاة سريعة. عندما وصلت، وجدت أن موسى الصغير قد تقيأ على الفراش وعلى اثنتين من الفتيات اللواتي كُنا يعتنان بهِ. لقد انتشرت الجراثيم المُخيفة، إذا كانوا قد أصيبوا بالكوليرا، من خلالهم إلى مئات الأطفال الآخرين الذين لا حصر لهم.

"إذا كُنتُ قد أخطأتُ، فأنا آسفة يا رب"، صلت مُامْا بيأس. "سَاعِدني الآن. سَاعِدني. "لم أستطع ببساطة أن أصرِفَهُم".

بعد وقت قصير، قام الطبيب من المُستشفى الأمريكي بتشخيص مرض موسى الصغير. كان صوته جاداً، وكانت عيناه تُعبران عن قلق شديد. الكوليرا! على الرغم من أنها كانت تتوقع هذا التشخيص، إلا أن مُامْا ارتجفت عندما سمعت.

مات الصبي الصغير في نفس اليوم وجاء قسم الصحة وطهر المبنى بالكامل. تم رش كل شبر بمُطهر قوي. تم تطعيم كل طفل. تم وضع حُراس على بوابات دار الأيتام حتى لا يتمكن أحد من الدخول أو الخروج. قرب مُنتصف الليل، جرت مُامْا نفسها إلى الفراش، لقد كانت مُرهَقة لدرجة أنها بالكاد كانت تعرف ماذا تفعل. "يا رب، من فَضلِك. من فَضلِك، لا تدع حتى واحداً من

أحبائي يُصاب بالكوليرا." لقد فات الأوان لإنقاذ موسى الصغير، ولكن الآن أصبحت حياة ألف شخص آخر في خطر. نامت مْامْا نوم مُضطرب.

لقد صلت مْامْا في اليوم التالي بشكل شبه مُستمر. كيف كانت تعمل! على يديها وركبتيها قامت بتنظيف الأرضيات والطاولات الخشبية بمُطهر قوي. جنباً إلى جنب، قامت مْامْا والأرامل والفتيات الكبار بتنظيفها. وبينما كانت تنظف كانت تصلي: "يا رب سَاعِدنِي". ادفع، اسحب. "يا رب سَاعِدنِي". ادفع، اسحب. "يا رب سَاعِدنِي". ادفع، اسحب. ساعة بعد ساعة من العمل المُرهِق.

عندما استيقظت مُبكراً في صباح اليوم التالي، فشلت في سماع علياء وعندما اجتمعوا لتناول الإفطار لم تكن الفتاة هُناك. بمُجرد أن وزعت مْامْا المهام الصباحية وفحصت إمدادات الطعام، ذهبت إلى الغُرفة الصغيرة حيث كانت علياء نائمة. كانت الستائر مسدله مما جعل غُرفتها مُظلمة جداً، ولكن عندما اعتادت عين مْامْا على الظلام، رأت شكل الفتاة تحت الملاءة والشَعر الداكن يتدفق عبر الوسادة. ذهبت إليها بسُرعة ووضعت يدها على جَبينْ علياء. قالت بهدوء: "علياء". "علياء!" صاحت بإلحاح أكبر. "علياء!" كان وجه الفتاة ساخناً جداً حتى أن يد مْامْا شعرت وكأنها احترقت بلمسها. "علياء!" كانت أقدام مْامْا تَجرِى داخل القاعة إلى الهاتف. عندما تم استدعاء الطبيب، ركضت إلى المطبخ لإحضار ماء بارد وقماشة نظيفة لتبريد الحُمى. ماذا يُمكنها أن تفعل غير ذلك؟ قامت بتقويم الملاءة والوسادة وضغطت على يدها التي كانت مُتراخية ومُمتدة على السرير. في هذيان، عاد عقل مْامْا إلى تلك الليلة الأولى التي رأت فيها فريدة الطفلة،

كانت يدها مُمدودة هكذا في تخلي واضح عن حياتها... تماماً مثل يد علياء.

بكت بصمت، "علياء. آه، علياء. ماذا فعلتُ لكِ؟" ألم يكن هُناك أي شيء يُمكنها أن تفعله لهذه التي كانت أعز شيء لها من الحياة نفسها؟ ألم يكن هُناك شيء صغير؟ نعم. ذهن مُامْا كان في ذُعر لأنها نسيت الشيء الوحيد الذي يُمكنها أن تفعله. لقد نسيت أن تصلي. وسُرعان ما سقطت على ركبتيها بجوار السرير، مُمسكة بيد الفتاة المُحترقة. ولكن عندما حاولت التحدث، انقبضت عضلات حلقها حتى شعرت أنها ستُختنق. انتشر في جسدها شعور كبير بالضعف من خلالها، وأمتلكها تماماً. سقطت على الأرض فاقدة للوعي.

كانت الشمس تتدفق عبر نافذة غُرفة نومها عندما استيقظت. كم عدد الساعات أو الأيام التي نامت فيها؟ شعرت بثلاثة أيام على الأقل. ألم يكن هُناك أوقات للنهار؟ وثلاث ليال؟ استرحت للحظة سليمة وهادئة. ثم، مثل رصاصة وحشية مشلولة، أرسلت الذاكرة رصاصة مُخيفة إلى وعيها. جمعت مُامْا قوتها وفي جهد كبير نادت: "علياء! علياء!" لَكَن لم يكن هُناك رد.

نادت مرة أخرى، وأجبرت بأكثر على صوتها. ثم، صوت. أو هل تخيلت هذا الصوت؟ نعم، لقد كان صوتاً. أدركت حينها أن مَقبض الباب كان يدور ببطء. ببطء شديد. رأت يداً، نحيلة ورشيقة، تمسُك بالمَقبض وتبعت عيناها خطاً صاعداً لترى شخصية شاحبة ورفيعة ذات عيون جميلة وحزينة. لَكَنْ كانت هُناك دوائر عميقة تحتها. بالكاد تحرك الشكل أمامها، وانزلق بقدم

واحدة أمام الأخرى بشكل غير مُستقر أثناء سيرها. شهقت مْامْا. هل كانت ترى شبحاً؟ هل يُمكن أن يكون هذا ...؟

" علياء! "علياء!" كانت صرخة فرح. التفتت الذراعان النحيلة حول مْامْا برفق. وقبلتها الشفاه الرقيقة المُشدودة. بدأت مْامْا تبكي بهدوء. "علياء، كُنت خائفة. اعتقدتُ أنكِ شبح. هل هذا... هل أنتِ حقاً؟"

أومأت الفتاة برأسها وابتسمت لأول مرة. لكن عقل مْامْا أصر على فكرة قبيحة: "الكوليرا... هل فعلت ذلك... هل كانت الكوليرا؟ بالطبع لم تكن الكوليرا، وإلا لما كنت هُنا، على قيد الحياة".

لم تجيب الفتاة.

فجأة شعرت مْامْا أنها تزداد خوفاً وغير مُتأكدة ومليئة بالشكوك المُخيفة. هل كانت واعية؟ هل كان هذا مُجرد حُلم؟ هل كان هذا شبحاً. جلست على السرير وصرخت بشكل هستيري. ماتت علياء! ماتت! لقد قَتَلْتُها!

هزت تنهدات كثيرة جسم مْامْا. لماذا، آه، لماذا سمحت للطفلين الصغيرين بالدخول إلى دار الأيتام؟ لماذا لم تتبع القرار بمنع دخول أطفال جُدد أثناء وباء الكوليرا؟ لقد قررت هي بنفسها بهذا القرار وهذا كان أول مُشكلة لأنها سمحت للأطفال الجُدد بدخول البيت. لقد فقدت أعز شخص كان لديها. كيف يمكنني أن أستمر الآن؟ ماذا بقي؟ "عندما هدأت تَنَهُدْاتُها، مسحت وجهها المُبلل بمنشفة وجدتها مطوية على طاولة بجانبْ سريرها. ثم مدت يدها للحصول على كوب من الماء في الجانب البعيد من الطاولة،

وشعرت بالعطش والتعب الشديدين. وفي مُحاولتها المُحرجة للوصول إلى كوب الزجاج، طَرَقته قليلاً وفجأة، ولسعادتها الكبيرة، رأت نَفْس اليد النحيلة تمد كوب الزجاج بسُرعة وثبات. ثم أعطت هذه اليد الكوبْ، وساعدتها في حمل الكوبْ إلى شفتيها حتى تتمكن من شرب محتوياته.

نظرت عيون مْامْا إلى أعلى وهي تشرب وفجأة غادرها كل الخوف. ابتسمت لها علياء وتحدثت لأول مرة:

"لا تخافي يا مْامْا. أنا هُنا".

ابتسمت مْامْا وأغمضت عينيها لترتاح. شعرت بالتعب الرهيب. أخيراً غفت. جاء المساء بهدوء. كان هواء الليل البارد مُنعشاً.

"لا تخافي يا مْامْا. أنا هُنا". رأت مْامْا الآن إشراقاً عظيماً. أدركت بدهشة أن الشخصية التي أمامها هو ربها. نظرت عن كثب. كانت الشفاه تبتسم بشكل مُريح. شعرت مْامْا بهالة من السلام والخير في الغُرفة. تنهدت برضا. كل شيء سيكون على ما يُرام الآن بعد أن كان الرب قريباً. ألقت لِلِيَّان نظرة سريعة إلى المُستقبل.

قد انتهى المطبخ الذي كان الأولاد الكُبار يعملون في إعادة بنائه. كانت المخازن مليئة بالمواد الغذائية الأساسية. كانت رائحة شربة لحم الضأن في الهواء. قدر الحساء هذا كان يكفي لحوالي ألف وثلاثمئة شخص. في الطابق العلوي في مَسكَن الأولاد الصغار، تم استبدال جميع المراتب المحروقة بأخرى جديدة ونظيفة.

ولكي يكون كل شيء ممتازاً، كانت هُناك معرفة بأن جيني الحبيبة في طريقها إلى الملجأ. كان من الرائع أن نتأمل الراحة الهادئة والمحبة التي ستجلبها أختها الكبيرة. هذه المرة كانت جيني قادِمة لتستقر. وقد حان وقت وصولها. تنهدت مْامْا بترقب وابتسمت لنفسها. كان كل شيء على ما يُرام. وكما هي العادة، صلت واستمعت.

حولت لِلِيَّان تراشر وجهها النائم في ضوء القمر المصري الغامض على النيل، ثم ابتسمت لما رأته في حلم سري. في لحظة، كانت بعيدة جداً عن مصر. عادت بذاكرتها مرة أخرى وهي في العاشرة من عمرها إلى بلدة برونزويك الساحلية الصغيرة في اقصى الجنوب، لجورجيا في أمريكا. كانت تركب ديزي، الحصان العجوز الطيب بدون سرج عبر الحقول إلى منزل جيردي. تباطأ الحصان العجوز إلى هرولة سهلة وقفزت جيردي، صديقتها الحمّيمة، بسُرعة وانزلقت خلفها. "دعونا نذهب للسباحة" قالتا كلتاهما معاً، بالطريقة التي كان يُكَمّل دائما كلام إحداهن الأخرى. انطلقت الفتاتان إلى النهر وسحابة سريعة من الغُبار تبعتهم. بعد ساعة قصيرة، انتَعَشَتا، وحرصتا على المزيد من اللعب، صعدتا على ديزي العجوز مرة أخرى. صاحت لِلِيَّان "دعونا نلتقط المُكسرات". "ييي-يي - هووو!" ردت جيردي في فرح، وبدأت تقفز بسعادة صعوداً وهبوطاً مع مشية ديزي المتثاقلة، وتوجهوا إلى بُستان سري من الأشجار على حافة المدينة.

لقد كان ذاك هو العام الذي لن تنساه لِلِيَّان أبداً.

رئيس وزراء مصر السابق، محمد نجيب يوزع الحلوى في مارس ١٩٥٣

مُامْا لِلِيَّان في مكتبها ١٩٥٤ حيث تدير أعمال دار الأيتام وتُرسل رسائل شُكر للمتبرعين

ملاحظات ختامية:

استمرار الحياة بالإيمان

يوجد اليوم كوخ أبيض أنيق مُحاط بأشجار الكروم المُتسلقة والزهور حول الباب بجوار دار الأيتام في أسيوط. هُناك، وسط أشجار الفاكهة المُظللة، كانت تعيش مُامْا. الكوخ وأشجار الفاكهة وفدانان وصالة إضافية - اعطتها جيني كلها لمُامْا. أختها التي لم تكُن تشعر بأنها كانت مدعو لتكون مُرسلة، بل سافرت حول العالم لأنها تحب أختها. في عام ١٩٥٧، اشترت جيني فيلا لمُامْا ولنفسها في الإسكندرية الجميلة. في كل صيف عندما يكون الجو حاراً للغاية (غالباً ٤٨ درجة تحت ظل أشجار النخيل) يذهب الاختان معاً إلى هُناك لمُدة ستة أسابيع، مُصطحبتان معهما بعض الأطفال الذين لم يروا البحر أبداً. وذلك للاسترخاء في النسمات الباردة التي يُرسلها البحر الأبيض المتوسط الكبير عبر "ميناء العودة الآمنة" الدائري المُتدرج الذي بناه الإسكندر الأكبر قبل وقت طويل من ولادة المسيح. تعيش الآن جيني، التي كانت تذهب ذهاباً وإياباً لزيارة لِلِيَّان على مر السنين، في مصر مع أختها.

يوجد الآن ثلاثة عشر مبنى من الطوب المُغطى بالجص، تم بناء آخر اثنين منها بأموال تم جمعها من قِبَّل شعب الكنيسة الرسولية في أمريكا ومن عمل فيلم عن مُامْا. يوجد مدرسة للبَنين في الملجأ الريفي الذي يقع على مساحة نصف فدان (تم بناء أول وحدة منه في عام ١٩١٦)، ويضم حمام سباحة كبير قدمته عائلة موريس بيه دوس من مصر، المزرعة التي تأوي الأبقار الحلوب، وكنيسة جميلة شيدتها عائلة سخية من فيلادلفيا بأمريكا، وحضانة للأطفال. ويقع منزل الحضانة الريفي بالقرب من منزل مُامْا.

يُمكن القول إن المنزليّن الريفيين توأمان. استقبلت مْامْا أطفالها في منزل قريب منها حتى تتمكن من الاعتناء بهم بشكل شخصي أكثر، وحتى يتمكنوا من اللعب على الأرض الطيبة وفي ضوء الشمس. ويوجد هاتف في منزل مْامْا، بالإضافة إلى الهاتف الموجود في المنزل الريفي الرئيسي، حتى تتمكن من النوم طوال الليل دون انقطاع ما لم تتصل بها الفتيات المسؤولات عن الأطفال طلباً للمُساعدة. أو تحدُث حالة طوارئ لأحد الأطفال والأرامل البالغ عددهم ١٢٧٥ والذين يعتبرون هذا المكان الآن بيتهم، أو ما لم يطرق طفل مُرهَق بلا مأوى الباب طالباً الإذن بالدخول في الليل.

لقد انتهى الكفاح اليومِي من أجل الدقيق. على مر السنين، ساعد أصدقاء مْامْا كل فرد منهم على حدة، وفي كثير من الأحيان بتضحيات شخصية كبيرة. كما أرسل مجلس التبشير النسائي في الكنيسة الرسولية بأمريكا براميل من الملابس، والفراش، ومواد الخياطة والهدايا المالية كلما أمكن ذلك. والآن، تأتي الطرود من منظمة كير، وتأتي الأموال من أصدقاء مْامْا في جميع أنحاء مصر والعالم. في كل عام، في المقاطعة التي يقع فيها دار الأيتام التي تعيش فيها مْامْا، يُعلن المحافظ عن يوماً للاشتراكات العامة للمُساعدة في تمويل دار الأيتام. ومهما وصلت المُساعدة إليها، أو لم تصل، تستمر مْامْا في تقديم خدَماتها. كانت إحدى المُساعدات الهائلة التي بدأت تتجه نحو أوقات أسهل لمْامْا هي شُحنة الصليب الأحمر الضخمة التي كانت مُتجهة إلى اليونان في الحرب العالمية الثانية، والتي سلمها السفير الأمريكي إلى مْامْا بشيك شخصي لتغطية تكاليف الشحن من القاهرة إلى أسيوط.

عندما وردت أنباء عن دخول الجيش الألماني إلى الإسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية، اضطر أصدقاء مْامْا الأمريكيين والإنجليز في المُغادرة بسبب الخطر الوشيك. شعرت مْامْا أنها ببساطة لا تستطيع المُغادرة بسبب عائلتها الكبيرة. لذلك بقيت وصلت ألا تقترب الحرب من أسيوط. لم يتجاوز الجيش الألماني الإسكندرية، ولم تقاطع مْامْا أي مُهمة في دار الأيتام.

عندما عادت إلى مصر من أمريكا في سبتمبر ١٩٥٥، استقبلها الأطفال بحفاوة بالغة. فقد كانت تجوب الولايات المتحدة لعدة أشهر تتحدث في الكنائس نيابة عن دار الأيتام التي تعمل فيها. لذا فقد كانت مُرهَقة، رغم أنها كانت سعيدة للغاية عندما وصلت إلى أسيوط. "حاولتُ المشي، لكنني بالكاد كُنت أستطيع التحرك"، كما كتبت في مُذكراتها. كان ألف طفل يحاولون احتضانها في نفس الوقت. "مْامْا، مْامْا"، كانوا يهتفون من فرحتهم حتى تحولت إلى أغنية جميلة. "مْامْا جْيت، مْامْا جْيت"، ضحكوا وهم يركضون. "مْامْا جيت، مْامْا قد أتت!"

أخيراً، وصلت إلى غُرفتها وأغلقت البابْ. من نافذة الشباك الكبير في الطابق العلوي، كان بإمكانها أن تنظر إلى أسرتها الضخمة المليئة بالسعادة من عودتها.

كتبت: "لقد أُعجِبتُ حقاً بينما كُنتُ أتجول في جميع الغُرف الجديدة التي عملها الأخ كراوتش ومينا مُنذ أن غادرت الملجأ". "إن الطفل الجديد الذي أنجبته عائلة كراوتش، كان جميلاً جداً لدرجة لا يُمكن وصفه بالكلمات! فمُعظم أطفالي الخمسة والثلاثين الذين أخبَرتُكم أنهم لا يستطيعون المشي، أنهم لا يمشون فحسب، بل يركضون في كل مكان! وقد ملأ الأطفال الجُدد سرائرهم

الفارغة! تعلمون أنني كُنت أقول لكم "الأمريكيين" دائماً، إن المُشكلة عندكم هي "أنكم لا تملكون ما يكفي من الأطفال لجعل الأمر رائعاً حقاً!"... أتساءل عما إذا كان الأمر يكون كذلك في السماء. ففي بعض الأحيان لا يجعلنا الله ننتظر إلى أن نموت قبل أن ندخل إلى السماء".

ومع مرور خمسينيات القرن العشرين، شكل تدفق رسائل مُلمّا إلى أصدقائها ورجال الكنيسة الذين أرسلوا لها هدايا من المال والملابس مُذكرات بسيطة وكاشفة عن كفاحها. وفي الخامس من يوليو ١٩٥٦، كتبت:

"إن مُهمة تعليم وتدريب هذا العدد الكبير من الأطفال مُرهق للغاية؛ فهُناك العديد من الأطفال الجُدد الذين يأتون من كل الأعمار، ولم يسبق لأي منهم أن التحق بمدرسة من قبل؛ وعلينا أن نبدأ من الصفر. لقد وجدنا أنه ليس من الجيد أن نضع فتاة جديدة، تبلغ من العمر أحد عشر أو اثني عشر عاماً، مع أطفالنا الصغار الذين يتعلمون الآن الحروف الأبجدية. لذا فقد أنشأنا فصلاً خاصاً للفتيات والفتيان الجُدد. يتمتع البعض منهم بالذكاء الشديد والرغبة الشديدة في التعلم، وسُرعان ما يتمكنون من التقدم بسُرعة واللحاق بالعديد من الفصول الأعلى. ولكن... بعض الأطفال مملون جداً وغير قادرين على مواكبة الفصول الدراسية. ومع ذلك فإن قانون المدارس المصرية هو أنه يجب نجاح جميع الطلاب في السنوات الثلاثة الأولى دون امتحان. ثم في نهاية السنة الرابعة يُطلب منهم اجتياز امتحان حكومي صعب. لا يَقدَرْ العديد من الأطفال أن يجتازوا بعض الصفوف الأولى، وبالتالي بحلول الوقت الذي يصلون فيه إلى السنة الرابعة، لا يكونون مُستعدين على الإطلاق لامتحان صعب. وهذا يعني أن هؤلاء الأطفال

المُتخلفين [الساقطين] يحتاجون إلى تعليم خاص إذا كنا نُريدهم أن ينجحوا. "ومع وجود مائتي طفل رضيع يجب الاعتناء بهم، وكل أعمال الخياطة والتنظيف والعناية بالمرضى، فليس لدينا ما يكفي من الفتيات الكبار للقيام بكل هذا. ليس لديكم أي فكرة عن مقدار الرعاية والوقت الذي يجبْ أن نقضيهِ في الحفاظ على صحة وسعادة مائتي طفل رضيع. وعندما ننجح في تدريب بعض أفضل فتياتنا، يتزوجن ويتركنا...

"هل يُمكنك أن تتخيلوا مدى عظمة العمل الذي نقوم به لتعليم رسالة الخلاص لمئات الأطفال الذين أتوا إلينا وهم لا يعرفون على الإطلاق، أي شيء عن الإنجيل؟ تعليمهم حتى يفهموا معاييرنا للصواب والخطأ والمبادئ التي يقوم عليها إيماننا المسيحي؟ إنه حقاً عمل عظيم حيث يجب على المرء أن يتأكد من أنه يُعلِّم الطفل كل شيء وليس شيئاً واحداً فقط... ويفهم ما علمناه له جيداً بما يكفي ليُعَلِم شخص أخر... أحاول أن أبذل قصارى جهدي حتى يكون كل يوم يمر كنقطة انطلاق، خطوة أعلى في حياة بعض الأيتام الصغار".

كتبت مْامْا في الرابع عشر من أغسطس عام ١٩٥٦: "نحن نُعاني من نقص شديد من المُرسَلين... لدينا الآن فقط الآنسة مابل دين وأنا والآنسة شيرلي نيوتن، التي كانت تُساعِدِني أثناء سفر القس والسيدة فيليب كراوتش لأمريكا. لم نتمكن من تجديد تأشيرتها مرة أخرى، لذلك كان عليها أن تتركنا. لقد قامت بعمل جيداً... علَمَت عدداً كبيراً من الأطفال الكتابة، بالإضافة إلى وعظها وتعليمها. إن هُناك الكثير مما يمكنها أن تُساعِدِني فيه لو سُمح لها بالبقاء في مصر. لم يكن هُناك شيء يُمكننا فعله حيال ذلك. وصل القس والسيدة جوزيف براون للتو إلى أمريكا حيث

سيحظيان براحة مُستحقة. لقد سمعنا حالاً أن السيدة فيليب كراوتش قررت عدم العودة إلى مصر في هذا الوقت مع أطفالهما... لقد كانوا معي في دار الأيتام مُنذ عام ١٩٤٨. كانوا في مصر قبل ذلك بسنوات عديدة.

نظراً لأننا في حاجة ماسة إلى رئيس لهذا المنصب المُهم للغاية في بورسعيد، فقد طلب القس جورج كارمايكل من الأخ فيليب "كراوتش بأن يتولى إدارة مدرسة الكتاب المُقدس. إنه... كان مُهتماً دائماً بالتدريب الروحي للأولاد الصغار، لذا فقد وافق على تولي إدارة مدرسة الكتاب المُقدس لمدة عام عندما يعود إلى مصر في سبتمبر".

في الحادي عشر من سبتمبر ١٩٥٦، كتبت مُامْا: "نحن الآن نقوم بترميم الكثير من المباني المُهمة جداً. لقد أحضرتُ محركاً كهربائياً كبيراً (دينامو) من أمريكا. لقد قمنا الآن بتثبيته في مبنى جديد خاص، وكان علينا أن نحصل على محرك مائي جديد وخزان كبير، وكل هذا قيد الإنشاء الآن.

"في العام الماضي، سقط جزء من أحد مبانينا القديمة، لذا فنحن الآن نعيد بناء هذا أيضاً. لقد كُنا نبني مُنذ عودتي من أمريكا في عام ١٩٥٥. تمكنتُ من دفع ثمن كل هذه المباني الرائعة بالمال الذي أعطُوني إياه في الكنائس المُختلفة حيث تكلمتُ العام الماضي أثناء وجودي في أمريكا والمال الذي أعطوني إياه من عرض فيلم "أُم النيل". كُنت أعرف احتياجاتنا العديدة هُنا، لذلك وفرتُ كل قرش فوق احتياجاتي المُطلق للطعام والسفر. "ذات يوم، حجز أصدقاء في سبرينغ فِيلد بولاية ميسوري لمُامْا غُرفة في فندق في المؤتمر الذي طلبوا منها أن تتحدث فيه. كانت الغُرفة جميلة وكان

من المفروض أن تكلفهم تسع دولارات في الليلة. وعندما وصلت واكتشفت السعر، انتقلت على الفور، وأصرت على أن أطفالها يحتاجون إلى هذه الأموال لشراء آلات المياه. (وقد أعطيت لها). "ستكون كل هذه التحسينات الرائعة ذات معنى كبير لنا في السنوات القادمة. احتياجاتنا جديدة كل يوم وأنا أشكُركم على وقوفكم بجانبي. لن أنسى أبداً أنكم في أمريكا وأصدقائي في مصر هم مَن مكَّنُوني من الاستمرار طوال هذه السنوات في إبقاء بابُنا مفتوحاً على مصراعيه".

في الأول من أكتوبر ١٩٥٦ كتبت مْامْا: "يتساءل العديد من أصدقائنا عن حالنا الآن بعد أن حدثت مُشكلة قناة السويس [العدوان الثلاثي على مصر]. نحن مُمتنون حقاً لأن شيئاً لم يتغير معنا بأي شكل من الأشكال. لا مشاكل في مدرستنا أو كنيستنا أو التدريس. نشعر أن الأمور ستستقر قريباً بسلام. لقد كان المصريون دائماً طيبين ومُفيدين لنا، ونشكُر الله على ذلك. إني عالمة بمَن آمنتُ، وإني مُوقنة أنه قادر على الوفاء بما تعهدتُ به إليه إلى ذلك اليوم".

واصلت مْامْا: "في الأسبوع الماضي، سمع أحد الزوار أننا افتتحنا للتو مدرسة جديدة للأولاد الكبار (الذين كانوا عددهم كبيراً جداً) وقال لي: "لكن هذا سيكلفك الكثير من المال لإدارة مثل هذه المدرسة الضخمة! الكُتب والمُعلمين ... كم سيكلفكِ ذلك؟" قُلتُ، "لماذا، لا أعرف؛ لكن هُناك أكثر من مئة ولد، ويجب أن تكون لدينا مدرسة". قال، "لكن هل تقصد أنكِ بدأتِ المدرسة بالفعل ولم تحسبُ تكاليف تشغيلها؟" قُلتُ، "نعم، نحن لا نحسُبُ التكاليف أبداً، نحن نبحث فقط عن الاحتياجات. ثم نمضي قدماً ونقوم بذلك. يُلبي الله الاحتياجات أثناء تَقَدُمَنَا... إن حساب التكاليف ليس

الطريقة التي بها نُدير دار الأيتام هذا. يجب أن يكون الله هو من يقوم بذلك!

"نادراً ما نحصل على تبرعات كبيرة"، كتبت. "خمسة إلى عشرة دولارات تشكل الجزء الأكبر من تبرعاتنا... ثم أضافت بأمل: "لا ننتظر حتى نتمكن من استقبال مبالغ كبير. لدينا العديد من الاحتياجات التي تكلف دولاراً واحداً فقط! ربما يتناسب دولارك بشكل جميل مع هذا الاحتياج! (مُعظم الدولارات تفعل ذلك، كما تعلَم!)" كتبت مُامًا في ١٠ نوفمبر ١٩٥٦: "لقد شعرنا بالحُزن الشديد عندما ودّعتُ الآنسة كريستي والآنسة بيرت عندما غادرتا إلى أمريكا. لقد قامتا بعمل جيد جداً هُنا. كُنا سعداء اليوم بالحصول على أول بريد أمريكي لنا مُنذ بداية الحرب...

"أثناء الكتابة، جاءت إحدى فتياتي لتُخبرني أن زوجة شقيقها أنجبت توأماً بالأمس وتوفيت زوجتهُ على الفور. "ستذهب الفتاة الصغيرة الآن إلى الجنازة وستأتي إلينا بالأطفال إذا كانوا لا يزالوا على قيد الحياة".

"نحن مُمتنون للغاية لأننا أنهينا العديد من المباني الجديدة لأنني أتوقع أنه سيكون من المُستحيل تقريباً الحصول على إذن لبناء أي مبنى جديد حتى يتم إعادة بناء بورسعيد ... بقدر ما نعلم، فإن جميع هيئاتنا على ما يُرام، لكننا لا نعرف شيئاً عن مدرسة الكتاب المُقدس في بورسعيد. لم نسمع من القس عياد شنودة، لكنني تلقيت خطاباً منه قبل حرب العدوان الثلاثي لبورسعيد مُباشَرَةً.

"وُلِدَ طفل جديد آخر للتو وأنا أكتب هذا، طفل صغير مسكين. وهو أيضاً مُقعد، ومات كلا أبواه. من فَضلِكُم صلُّوا من أجل السلام في مصر الجميلة".

في الثاني من فبراير ١٩٥٧ كتبت مْامْا إلى أمريكا: "إن الأطفال الجُدد يأتون بسُرعة أكثر من أي وقت مضى. يبدو أن الحرب جعلت الأمر صعباً جداً على الفقراء في جميع أنحاء البلاد ويشعر الأقارب الفقراء بأنهم لم يعودوا قادرين على إعالة الأيتام. في الشهر الماضي استقبَلنا ثمانية وعشرين طفلاً جديداً... لقد اشتريتُ الآن أكثر من طن من القطن لصنع المراتب. لدينا ما يكفي من البطانيات. اشتريتُ ألف بطانية عسكرية من الصوف بالكامل من الأموال التي أحِضَرتُهَا من أمريكا. أرسلت لي سيدات وأصدقاء من دبليو ام سي الكثير من الأغطية الجميلة. المُشكلة هُنا هي، أين يُمكننا وضع السرائر الجديدة".

في الأسبوع الأخير من ديسمبر ١٩٥٧، نزلت مأساة كادت أن تُصيب مْامْا. أنها مرض شلل الأطفال. كان وقتاً مُخيفاً ضرب في خضم تفريغ الهدايا المُبهجة من أمريكا. في عجلة النشاط والقلق على أطفالها، كان مارس ١٩٥٨، قبل أن تتمكن مْامْا من التحدث عن ذلك في رسائل لأصدقائها الأمريكيين. أخيراً، تمكنت من تسجيل أفكارها:

"أتساءل عما إذا كان بإمكانك أن تتخيل كيف شعرتُ ذات يوم خلال الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر عندما وجدتُ طفلين في حضانة الأطفال مُصابين بشلل الأطفال! هرعت بهما إلى المُستشفى الأمريكية وأكد هُناك الأطباء مخاوفي! ثم في ليلة رأس السنة الجديدة أثناء تفريغ جميع الصناديق من الهدايا التي جاءت من أمريكا، أصيب طفلان آخران بشلل الأطفال! أطفالي! آه، تخيل فقط مئات الأطفال الصغار الرائعين! لم يكن هُناك ما يُمكنني فعله سوى النظر إلى الله. طوال اليوم واصلَتُ تكرار هذه الآية في المزمور الحادي والتسعين، الآية العاشرة "لا يقترب وباء من

مسكنك". "نحمد الله أننا الآن في مُنتصف شهر مارس ولم تظهر أي حالات جديدة. عاد اثنان من الأطفال من المُستشفى. وكان الطفل الآخر ضعيفاً جداً وقد توفيت والدتهُ بمرض السُل. لقد شفيت من شلل الأطفال، لكنها لم تستعيد قوتها أبداً. لقد ماتت في الأسبوع الماضي.

"كتبتُ إلى القاهرة مُحاولاً الحصول على بعض الحُقَن، ولكنني لم أتمكن من الحصول على حُقنة واحدة. ثم في أحد الأيام تلقيت مُكالمة هاتفية من القاهرة من السيد بيكتون من مُنظمة كير، يسألني عما إذا كان بإمكاني استخدام بعض حُقَن شلل الأطفال! سألتَهُ كيف سمع بحاجتنا. لم يسمع بحاجتنا على الإطلاق. أرسل شاباً خصيصاً من القاهرة ومعه ما يكفي من الحُقَن لمائتين وخمسة وعشرين طفلاً. أحضرها كلها مُعبأة في ثلج جاف. لم يُعرض عليَّ أي حُقَن لشلل أطفال من قبل.

"سوف يُسعدك كثيراً أن تعلم أن القس عياد، من مدرسة بورسعيد للكتاب المُقدس، الذي أُبلغ عن وفاته، أنه في أمان تام ولم يلحق بمبنى مدرسة الكتاب المُقدس سوى ضرر طفيف".

لقد حدثت واحدة من أعظم المآسي الشخصية التي عاشتها مْامْا في فبراير ١٩٥٩، عندما فقدت كارولين الصغيرة. كانت الفتاة المصرية الصغيرة والجميلة واحدة من أعز رفقاء مْامْا. ورغم أن مْامْا كانت في السبعين من عمرها والفتاة الصغيرة في السابعة فقط، إلا أنهما كانتا لا تنفصلان عن بعضهم البعض. وقد ازداد قربهما من خلال الرابطة المُشتركة العظيمة بينهما، وحبهما للأطفال. كيف يُمكن لطفلة في السابعة من عمرها أن تكون ناضجة إلى هذا الحد في حُبها لمْامْا وأطفال دار الأيتام، وهو ما

لم تستطع مْامْا أن تفهَمُه أبداً. ولكن هكذا كانت الحال مع كارولين. تدريجياً، أصبح من المفهوم أنه مع تقدم مْامْا في العمر، ستتولى كارولين رعاية الأطفال. وبالفعل، في عام ١٩٥٩، كانت قادرة على القيام بمهام لا حصر لها للمُساعدة وكانت تحب القيام بهذه المهام. وكانت تحب الأطفال. لقد أودت المأساة التي ظهرت في شكل سرطان دم بكارولين، تاركة مْامْا "تبكي بهدوء: مَن سيأخُذ مكانِ مع أطفالي الآن؟ مَن، بدونك يا كارولين؟"

صورة الفتاة الصغيرة بالحجم الطبيعي مُعلقة اليوم في الممر الرئيسي للحضانة، تبدو مُتيقظة ومُتحيرةً، ويبدو أنها تسأل نَفْس السؤال.

كانت إحدى أعظم مُتع مْامْا على مر السنين ارتباطها الوثيق بفتياتها الكبار اللاتي جَعَلنَ منها صديقة مُقَربَة في كل من أحلامهنَ وخططهنَ. تتمتع مْامْا بوفرة من التعاطف والاهتمام الشديد بهُنَ، وهنَ يعرفنَ ذلك. يُخبرنها بمشاكلهنَ ويناقشُنَهَا معها، أحياناً لمدة خمس دقائق، وأحياناً بشكل مُتقطع لأسابيع. أياً كان الوقت الذي يستغرقه هذا الحديث، فإن مْامْا تستغله. إذا لم يكن لديها الوقت، بطريقة ما، فإنها تجد وقت للحديث. عندما تصحح شخصاً ما، تحاول دائماً شرح سبب التصحيح والتأديب. وخاصة في التعامل مع المراهقات، تحاول أن تُعطي سبباً لقولها "لا". أنها تؤَمَن إيماناً راسخاً بالانضباط الجيد. ولكن عندما يُظهَر لها أنها عاقبت شخصاً ما ظلماً، فإنها دائماً تستدعيه وتعتذر له.

تفتخر مْامْا بأولادها الكبار. أينما ذهبت في مصر تجدهم: ويليام، ابن رجل أعمى، وهو الآن مؤسس مدرسة مُمتازة في السودان؛ فيليب، أستاذ في مدرسة ثانوية حكومية في الإسكندرية؛

زاخر، والذي حصل على درجة البكالوريوس من كلية الآداب في القاهرة وكان الرابع في فصله؛ إدوارد، الذي يعمل الآن في مصنع للطائرات؛ روبرت، شقيق ويليام، صانع خزائن رائع؛ إسكندر، مُمثل في شركة أدوية. تم تعيينه مُمثلاً مُباشَرَةً من لندن، إنجلترا. اسكارى كاتب في مكتب مُحاماة في القاهرة. شُكري كاتب في الجيش الإنجليزي، في مكان ما بالقرب من القاهرة؛ جرجس في سكك حديد مصر؛ وديعة، فتاة، تعمل في المكتب الرئيسي لمركز الهاتف.

لا تنتهي القائمة الرائعة. يمكن أن تصل إلى آلاف الأسماء. إن رؤيتهم كمسيحيين مؤسسين بيوت مسيحية في حد ذاته يُعطينا فكرة عن مدى ثقتهم في أنفسهم. كانت فرحة مْامْا لا تُوصف. فهي تستحق كل ما كلّفها؛ وهي تُذكر نَفْسها بذلك كثيراً. والآن، بعد أن أصبح أحد أبنائها رجُلً ناضجاً، يتولى مينا جرجس المُحاسبة (التي كانت تُحفظ بدقة مُنذ أن بدأت دار الأيتام لأول مرة، وقد أشاد بها مسؤولو التفتيش المصريون الذين جاؤوا لفحص دفاتره ثم أرسلوا تبرعاتهم للمُساعدة، والتي كانت تصل أحياناً إلى مئة جنيه). كما يتولى مينا الآن قدراً كبيراً من العبء الإداري لدار الأيتام من على أكتاف مْامْا، وهو لا يُقدر بثمن بالنسبة لمْامْا في نواحٍ عديدة.

ذات يوم ذهبت مْامْا إلى القاهرة لإلقاء كلمة في جمعية الشُبان المسيحيين هُناك وذهبت لرؤية فهيمة، إحدى فتياتها الأوائل، التي تزوجت من موظف جمارك. تحول الأمر إلى حفل عائلي حيث امتلأ المنزل بأطفالها و"أحفادها" الذين جاؤوا لتكريمها. لم تكن لتستطيع أبداً أن تحصي عدد الأولاد الصغار

الذين أُطلق عليهم اسم تراشر أو عدد الفتيات الصغيرات اللاتي أطلق عليهن اسم لِلِيَّان.

لا يزال بيت الإرسالية الذي جاءت إليه مْامْا وهي فتاة صغيرة قائماً، لكن المُرسَلين قد رحلوا مُنذ زمن بعيد. لا يذهب إلى هُناك سوى عدد قليل من المصريين لحضور الخدمات البسيطة يوم الأحد، لكن الإرسالية القديمة المهجورة تقريباً تظل مزاراً دائماً لمْامْا مُنذ أن جاءت إلى مصر حيث بدأت خدمتها.

لقد وجدت الكتابة والرسم التي كانت مْامْا تتوق للقيام بها وهي فتاة - منفذاً لها في مصر أيضاً. قبل أن تكون هُناك لسنوات عديدة، نُشر كتاب يحتوي على حكاياتها ورسوماتها. العديد من تلك القصص في هذا الكتاب، كانت تخبرُها لأطفالها على مر السنين.

قررت مؤخراً شابة أمريكية قضت مُعظم حياتها مع والديها المُبشرين المشيخيين في إفريقيا الذهاب إلى مصر كمُساعدة لمْامْا. كم كانت مْامْا مُمتنة لأنها حصلت عليها! كانت الآنسة روث أندرسون تعرف اللغة العربية، وتعرف وتحب الشعب المصري وخاصة أطفال مْامْا. والآن، بعد أن تجاوزت مْامْا السبعين من عمرها، أصبحت المرأة الصغيرة قادرة على مُساعدتها بشكل لا يُقاس. كما جاءت شابة أخرى، الآنسة روز أرمينيا لمُساعدتها وكانت مْامْا مُمتنة للمُساعدات الإضافية. في السابق، كان لديها عدد قليل من العُمال والمُعلمين المُمتازين، ولكن الآن بعد أن كبُرت، احتاجت إلى مُساعدتهم أكثر من أي وقت فات. ومع ذلك، ظهرت مُشكلة المال السائدة على الدوام مرة أخرى. في يوليو ١٩٥٩، لم يكن لدى مْامْا وسيلة لدفع راتب روز، الفتاة المُساعدة.

ولكن هذا أيضاً كان لهُ إجابة، كما عرفت مْامْا. من أجل هذا الجواب كانت تجثو على ركبتيها كل ليلة في الصلاة: كتبت رسالة إلى أصدقائها الطيبين في أمريكا تُخبرهُم بالمُشكلة: "لقد جاءت روز قبل أن يتم الوعد بدعمها"، كتبت. وأدركت أن الكنائس لم تكن على علم بالموقف، وتابعت: "أنا مُتأكدة تماماً من أن هذا فقط لأن مُعظم الناس اعتقدوا أنها حصلت على دعمها قبل أن تأتي إلى مصر. عائلتها تفعل ما يُمكنهم... بالطبع، لن ندعها تُعاني أبداً، لكنها لا تُريد أن تأخذ منا أي شيء على الإطلاق إذا كان من المُمكن لها الحصول على الدعم من الأصدقاء الطيبين في بلدها".

وكما فعل أعضاء هذه الكنائس مرات عديدة في الماضي، استجابوا لصلواتها. لقد أخذوا هؤلاء المسيحيون المُتدينون العطاء مرات عديدة لمُساعدة مْامْا. تأسست الكنيسة الرسولية في أمريكا في عام ١٩١٤، بعد أربع سنوات من ذهاب مْامْا لأول مرة إلى مصر وهي فتاة. تُعرف الكنيسة الرسولية بعملها في جميع أنحاء العالم.

وصلت رسالة مْامْا لهم في يوليو ١٩٥٩: "لقد استقبلنا للتو فتاة صغيرة تبلغ من العمر خمس سنوات ونصف. توفيت والدتها وتزوج والدها مرة أخرى، ضربتها زوجة أبيها... يا لها من طفلة مسكينة، إنها هُنا الآن حيث ستتمكن من نسيان هذا الألم".

قبل بضعة أيام وصلت أرملة فقيرة مع ثلاثة أولاد صغار. والآن، جاءت أرملة أخرى أيضاً... خمسة أطفال. ولدان صغيران... والدهما مشلول؛ يجب على أمه الذهاب إلى العمل لإطعام الأب المشلول. لا نهاية...

١٠ أغسطس ١٩٥٩، كتبت: "لا يبدو الأمر كثيراً أن نقول، "لدينا طفل جديد اليوم. إن هذا الأمر لا يتطلب أكثر من سطر واحد في رسالتي إليكُم. ولكن هذا يعني عشرين عاماً من العمل الشاق قبل أن نحصل على شاب لطيف مُستعد للخروج والبدء في العمل بمفرده، أو فتاة شابة لطيفة تودعني، وهي ترتدي حجاب زفاف جميلاً يرفرف في النسيم وهي تُغادر الملجأ، كما تعلم. ولكن لا تنسَ الاعوام التي بين المجيء والتخرج من البيت. المرض، كل أمراض الأطفال المعروفة. التعليم، والملابس، والتغذية، والتأديب، والصلاة، والدموع. آه، تلك السنوات الطويلة المليئة بكل الأفراح والأحزان..."

١٠ سبتمبر ١٩٥٩: "تمت خطبة ابنة السيد مينا الكبيرة يوم السبت الماضي. لقد كان يوماً سعيداً حقاً. أقامت السيدة مينا وليمة كبيرة لنحو ثلاثمائة من فتياتنا وأولادنا الصغار. لقد ذبحوا عِجلاً كبيراً وصنعوا حساءً رائعاً، وجاء الجميع وجلسوا في الحديقة. لقد تناولوا أكبر قطعة لحم تناولوها في كل حياتهم! يشعر المصريون أنهم إذا كانوا سعداء، فيجب عليهم أن يفعلوا شيئاً لإسعاد الأقل حظاً أيضاً. بينما كُنت أستمتع بالوجبة، وكانت تجلس طفلة صغيرة جداً وظهرها لي، التفتت ونظرت إلى وجهي وقالت، "مْامْا، هل تعلم أن هذه نعمة الرب؟" قلت، "نعم يا عزيزتي، إنها نعمة الرب بالفعل".

في العاشر من ديسمبر ١٩٥٩، كتبت مْامْا في رسالة لأصدقائها في أمريكا: "لقد تلقيت الآن خطاباً يطلب مني أن أحاول الذهاب إلى أمريكا لحضور مؤتمر مدرسة الأحد الذي سيعقد في مينيا بوليس بولاية مينيسوتا، في ٣ و٤ و٥ مايو. لقد كتبت لهم وأخبرتهم أنني سأذهب بإذن الله، وربما أُغادر مصر في وقت ما

في مُنتصف مارس. أتوقع أن أقضي الصيف في أمريكا لأن الحرارة شديدة جداً بحيث لا يُمكنني قضاء الصيف بأكمله في أسيوط ... أنا حقاً في حاجة ماسة إلى تغيير حقيقي".

لا تزال هناك احتياجات كبيرة في دار الأيتام. مع دروس اللغة الإنجليزية والحِرَفَ الجلدية اليدوية والآلات والخياطة والمدرسة العادية بالإضافة إلى المدرسة النهارية الخاصة والجديدة للأطفال المصريين الأثرياء، أعدادها المتزايدة (١٢٧٥)، فإن دار الأيتام قوة عظيمة ومسؤولية عظيمة. لقد أنفقت مُامْا ما مجموعه ٧١٢٤١,٣٩ جنيه في عام ١٩٥٨، دون اضافة آلاف الدولارات من المواد الغذائية التي أرسلتها لها الحكومة الأمريكية والإمدادات الكبيرة من الملابس التي أرسلتها لها نساء الكنيسة الرسولية. وقد تلقت خلال ذلك العام ٤٤٥٩٨,٥٦ دولاراً من التبرعات الأجنبية و١٦٦٠٦,٦٢ جنيه من التبرعات المصرية؛ و٧٢٠٥,٦٨ جنيه من التبرعات المتنوعة و٩٥٣,٨٥ جنيه من خلال الاشتراكات في مصر. لا تحتفظ مُامْا بأي من هذه الأموال لنفسها إلا عندما يُرسل لها شخص ما شيكاً أو أموالاً موجهاً إليها لاستخدامها الشخصي فقط. يُساعد مُامْا فرق سعر الصرف من العُملة الأمريكية إلى العُملة المصرية بشكل لا يُقاس. فالعملة الأمريكية عالية ببساطة إلى أبعد من ذلك عندما يتم تحويلها إلى عُملة مصرية.

وعلى الرغم من الظروف الأفضل، فإن مُامْا لا تملك في كثير من الأحيان سوى ما يكفيها لإعالة نفسها لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع. ومن المُدهش في عدد الأشياء الصغيرة التي احتاجت إليها، ولكنها تمكنت من الاستغناء عنها طوال هذه السنوات. في

يوليو ١٩٥٩، كتبت إلى أصدقائها في أمريكا أنها في حاجة ماسة إلى بعض موازين للأطفال حتى تتمكن من وزن أطفالها الصغار!

في خريف عام ١٩٥٩، وصلت سيارة مُامْا الجديدة التي أرسلها لها مجموعة من شباب مُرسَلين من الولايات المتحدة إلى ميناء مصري، ولكن تم احتجازها بسبب رسوم جُمركية كبيرة والتي بلغت ١٠٠٪ من سعر السيارة. كان من المُستحيل على مُامْا جمع المبلغ اللازم. عندما أبلغت مُامْا الحكومة المصرية بالمشكلة، تم إطلاق سراح السيارة الجديدة دون أي رسوم. بعد ذلك بوقت قصير، تلقت رسالة من الرئيس المصري، السيد جمال عبد الناصر، كتب فيها: "يُسعدني أن أعلم أنكِ حصلتِ على السيارة مجاناً كما طلبتِ. أود أن أُخبِركِ أن عملكِ بين الأيتام موضع تقدير كبير من قِبَل الجميع في هذا البلد. أتمنى لكِ استمرار النجاح في مساعيك الخيرية".

كانت مُامْا في الثالثة والسبعين من عمرها في سبتمبر ١٩٦٠. يشكل عام ١٩٦٠ مرور نصف قرن على وجودها وخدمتها في مصر حيث كانت تحب وتطعم وتأوي وتُعَلِم أسرتها الضخمة بالإيمان وحده. وهذا في أرض يبلغ عدد سكانها نحو خمسة وعشرين مليون نسمة.

وخلال نصف قرن، أطلقُ عليها نحو ثمانية آلاف طفل لقب "مُامْا" في دار الأيتام الكبير في أسيوط. ولم يجلب أي من أطفالها أي عار طيلة نصف قرن. إن الملايين من المصريين من كافة الطبقات يحبونها ويحترمونها في مُختلف أنحاء هذه الأرض القديمة.

إذا ذهبتُ إلى أي ميناء أو قرية في كل أرض مصر ونطقتُ باسم "مْامْا لِلِيَّان"، فسوف تضيء عيناك الكئيبتان وتبتسم شفتاك الجامدتان. وحتى لو لم يروا مْامْا قَطْ، فإن المصريين في كل مكان يشعرون بأنهم يعرفونها.

لقد قطعت مْامْا شوطاً طويلاً مُنذ أن ركعت وهي طفلة بجوار جذع شجرة ساقط في جورجيا وقالت وعدها لله: "يا ربُ، إذا كان بإمكاني أن أفعل أي شيء لمُساعدتك، فقط أخبِرني وسأفعله!"